مُصْطَلَحَاتُ علومِ القرآنِ

عرضٌ وتَحْلِيلُ وَاسْتِدْرَاك

تأليف

الأستاذ الدكتور

سليمان بن صالح القرعاوي

أستاذ الدراسات الإسلامية

بجامعة الملك فيصل بالأحساء

١٤٢٨هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

ظهر المصطلح اللغوي مع نمو الحضارة الإسلامية، وكان لكل علم من العلوم مصطلحاته الخاصة به.

ففي إطار علوم العربية ظهرت مصطلحات علم النحو، وعلم الصرف، والمعاني، والبيان، والبديع، والعروض، والقافية، وفي إطار العلوم الشرعية ظهرت مصطلحات علم الكلام وعلم التفسير، وعلم القراءة، وعلم الإسناد، وعلم الحديث، وعلم أصول الفقه، وعلم الفقه، وعلم السلوك، وعلم الفرائض.

وفي إطار العلوم البحتة ظهرت مصطلحات علم المنطق والحكمة، والتقسيم، والعلم الرياضي، والطبيعي، والطب، والبيطرة، وأحكام النجوم، والكمياء، والفلاحة، والهندسة، والأبنية، والمرايا، والمساحة، والآلات، والهيئة، والمواقيت والأرصاد. [انظر كشاف مصطلحات الفنون والعلوم].

وعَرَّفَ التهانوي: الاصْطِلَاح بِقَوْلِهِ: هو العرف الخاص، وهو عبارة عن اتفاق قوم على تسمية شيء باسم بعد نقله عن موضوعه الأول؛ لمناسبة بينهما، كالعموم والخصوص، أو لمشاركتها في أمر، أو مشابهتهما في وصف، أو غيرها. [نفسه: الاصطلاح]

ويرى الكفوي: «أنَّ الاصطلاح يُستعملُ غالبًا في العلم الذي تُحَصَّلُ معلوماته بالنظر والاستدلال». [الكتاب: ١٢٣]

وعلوم القرآن: تشمل العلوم التي تتصل بالقرآن الكريم نزولًا وتدوينًا وقراءةً ولغة وتفسيرًا وبيانًا وإعجازًا وصلت إلى سبع وأربعين نوعًا عند الزركشي، وإلى مائة نوع واثنين عند السيوطي.

وكتاب «البرهان في علوم القرآن» للزركشي، و«الاتقان في علوم القرآن» للسيوطي هما المصدران الرئيسان لعلوم القرآن على الرغم مما كُتبَ في هذا الموضوع قديمًا وحديثًا.

ومن هنا نقرر أنّ أوّل كتاب وافٍ ينتظمُ علوم القرآن هو كتاب الزركشي ويليه كتاب السيوطي فكل منهما عمدة في هذا الباب.

يقولُ الزركشي: «ولمّا كانت علوم القرآن لا تنحصر، ومعانيه لا تستقصى، وجبت العناية بالقدر الممكن، ومما فاتَ المتقدمين وضع كتاب يشمل على أنواع علومه، كما وُضِعَ بالنسبة إلى علمِ الحديث، فاستخرت اللّه تعالى -وله الحمد- في وضع كتاب في ذلك، جامع لمَا تكلّم الناسُ في فنونه، وخاضوا في نكته وعيوبه، وضمنته من المعاني الأنيقة، والحكم الرشيقة، ما يهز القلوب طربًا، ويبهر القلوب عجبًا، ليكون مفتاحًا لأبوابِهِ، عنوانًا علي كتابِهِ، معينًا للمفسر على حقائقه، ومطلعًا على بعض أسرارِ دقائقه». [البرهان في علوم القرآن: ٩]

وقد وجدت في أثناء تدريس علوم القرآن بالجامعة -أنّه قد اعترى بعض المصطلحات الخاصة بعلوم القرآن شيء من الغموض والإبهام، الأمر الذي يوجب علينا مناقشة مفهوم المصطلحات ودلالتها اللغوية والاصطلاحية، وتوضيح ما غمض وأبهم، وتحديد الفروق بين المتشابهات. كما يوجب علينا أن نستدرك على ما رأينا أنّه من الضروري أن نستدرك عليه مستندين إلى آراء العلماء من أهل السنة والجماعة من الأئمة المشهود لهم بالصدق والعدل والاستقامة من القدماء وممن تبعهم من العلماء الثقات في العصر الحاضر.

وقد اتبعتُ منهجًا ييسر لي الجمع بين المؤتلف من الموضوعات جمعا يفيدُ في عرض الموضُوعات ومناقشة الآراء، والمحافظة على الأصول والفروع المتصلة بعلوم القرآن ويشتمل البحث على تسعة فصول، ستة

يشتمل كل منها على عدة مباحث، وثلاثة فصول يقتصر كل فصل على موضوع واحد.

فأمّا الستة ذات الموضوعات المتعددة فهي:

الفصل الأول: القرآن الكريم

ويشتمل على خمسة مباحث

المبحث الأول: تعريف القرآن لغة وشرعًا.

المبحث الثاني: أسماء القرآن.

المبحث الثالث: لغة القرآن.

المبحث الرابع: ترجمة القرآن.

المبحث الخامس: إعجاز القرآن.

الفصل الثاني: الوحي

ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: تعريف الوحي لغة وشرعًا.

المبحث الثاني: مراتب الوحي.

الفصل الثالث: نزول القرآن

ويشتمل على ستة مباحث:

المبحث الأول: نزول القرآن منجمًا.

المبحث الثاني: أول ما نزل من القرآن وآخره.

المبحث الثالث: المكي والمدني.

المبحث الرابع: نزوله على سبعة أحرف.

المبحث الخامس: القراءات القرآنية.

المبحث السادس: أسباب النزول.

الفصل الرابع: جمع القرآن

ويشتمل على خمسة مباحث:

المبحث الأول: جمع القرآن في عهد النبي ﷺ.

المبحث الثاني: جمع القرآن في عهد أبي بكر رضي الله عنه.

المبحث الثالث: جمع القرآن في عهد عثمان رضي الله عنه.

المبحث الرابع: ترتيب الآيات والسور القرآنية.

المبحث الخامس: رسم المصحف.

الفصل الخامس: أساليب البيان

ويشتمل على أربعة مباحث:

المبحث الأول: القصة في القرآن.

المبحث الثاني: العام والخاص.

المبحث الثالث: المطلق والمقيد.

المبحث الرابع: المنطوق والمفهوم.

الفصل السادس: التفسير والتأويل

ويشتمل على خمسة مباحث:

المبحث الأول: معنى التفسير والتأويل.

المبحث الثاني: تطور التفسير.

المبحث الثالث: مصادر التفسير.

المبحث الرابع: شروط المفسر.

المبحث الخامس: أنواع التفسير.

والفصول التي يقتصر كل منها على موضوع واحد هي:

الفصل السابع: النسخ.

الفصل الثامن: المحكم والمتشابه.

الفصل التاسع: المعاجم القرآنية.

الفصل الأول
القرآن الكريم

المبحث الأول: تعريف القرآن لغةً وشرعًا.

المبحث الثاني: أسماء القرآن.

المبحث الثالث: لغة القرآن.

المبحث الرابع: ترجمة القرآن.

المبحث الخامس: إعجاز القرآن.

المبحث الأول

تعريف القرآن لغة وشرعًا

١- المعنى اللغوي:

(أ) يرى بعض علماء اللغة أنَّ القرآن مصدر على وزن (فُعلان) كالغُفْران والرُّجْحَان والشكران، فهو مهموز اللام من قرأ يقرأ قراءة وقرآنًا، بمعنى تلا يتلو تلاوة، ثم نقل في عرف الشرع من هذا المعنى وجُعِلَ عَلَمًا على مقروء معين وهو من باب تسمية المفعول بالمصدر، وقد ورد بهذا المعنى في قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾[١].

وقد روى الشيخان ﷺ في سبب نزولها ما يفيدُ هذا المعنى، عن ابن عباس ﷺ أنه قال: «كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة، فكان يحرك به لسانه وشفتيه مخافة أن ينفلت مّنه، يريدُ أن يحفظه فأنزل الله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ. . .﴾الآية.

فكان النبي ﷺ إذا أتاهُ جبريل عليه السلام أطرق، وفي لفظ «استمع» فإذا ذهبَ قرأه كما وعد الله[٢]. فهذا الأثر عن ابن عباس يدل بجلاء.ووضوح على المعني المذكور.

وقد روعي في تسميته قرآنًا كونه متلوًا بالألسن، كما روعي في تسميته كتابًا كونُه مُدوّنًا بالأقلام. فكلتا التسميتين من تسمية الشيء بالمعنى الواقع عليه[٣].

(ب) وذهب الشافعي ورجح قوله السيوطي إلى أنَّ القرآن عَلَمٌ غير

---

(١) القيامة: ١٦ - ١٨ .

(٢) صحيح البخاري. كتاب بدء الوحي، ومسلم في صحيحه. كتاب الصلاة، باب الاستماع للقراءة (١/ ٣٣٠، ح ١٤٨).

(٣) النبأ العظيم، لمحمد عبد الله دراز، ص١٢، دار القلم -الكويت.

مشتق، فهو اسم لكتاب الله مثل سائر الكتب السماوية[١].

٢- المعنى الشرعي:

عرّفَ علماء الأصول وعلماء الكلام القرآن بتعريفات كثيرة، وأحسنُ هذه التعاريف وأقومها قول القائل: إنَّ القرآن [(هو كلام الله المعجز المُنزَّل على محمد ﷺ المنقول تواترًا والمتعبّد به تلاوةً)].

فكلام الله المعجز، قد أخرج كلام غير الله، فهو ليس بكلام إنس ولا جن ولا ملائكةِ، ولا نبي أو رسول، فلايدخل فيه الحديث القدسي ولا الحديث النبوي.

وخرج بقيد -المنزل على محمد ﷺ- الكتب المنزلة على الرسل من قبله كصحف إبراهيم، والتوراة المنزلة على موسى، والإنجيل المنزل على عيسى عليهم السلام.

أمّا القيدُ -المنقول تواترًا- فقد أخرجَ به كل ما قيل أنّه قرآن ولم يتواتر، مثل القراءات الشاذة غير المتواترة، فإنَّها رويت على أنّها من القرآن، إلّا أنَّ نقلها آحادًا قد جعلها غير معتبرة، فلا يعتبر من القرآن قراءة ابن مسعود في قوله تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ﴾[٢]. فقد زاد (متتابعات)، ولا قراءته كذلك في قوله تعالى: ﴿وآتيتم إحداهن قنطارًا «من ذهب» فلا تأخذوا منه شيئًا﴾، (بزيادة «من ذهب»)[٣]، أو قراءة ابن عباس: ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلًا من ربكم «في مواسم الحج»﴾[٤]. بزيادة «في مواسم الحج»، ولا قراءة من قرأ ﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيمانهما﴾[٥] بدل أيديهما، فما زيد أو بُدِّل في هذه

(١) الإتقان في علوم القرآن، (١/ ٥١).

(٢) انظر الإتقان في علوم القرآن، تحت عنوان: القراءات؛ وكذلك كتب التفسير في سورة المائدة آية: ٨٩ .

(٣) انظر تفسير ابن كثير لسورة النساء (١/ ٤٦٧).

(٤) انظر الإتقان، تحت بحث القراءات (١/ ٨٣).

(٥) الدر المصون (٢/ ٥٢٣).

القراءات وأمثالها لا يصحُّ اعتبارها قرآنا حتى، ولا حديثًا نبويًا؛ لأنها نسبت إلى قارئها، فلا يعدو اعتبارها أكثر من أنَّها تفسير أو رأى للمثبت لها.

أمَّا القيدُ الأخير المتعبد به تلاوة -فقد خرج به الحديث القدسي فإنَّه وإن كان منسوبًا إلى الله فإنَّه غيرُ متعبد بتلاوته كما سنبينه بعد.

* * *

المبحث الثاني

أسماء القرآن

صنف الحرالي في أسماء القرآن جزءًا وأنهى أساميه إلى نَيِّفٍ وتسعين، وقال القاضي أبو المعالي رحمه الله : اعلم أنَّ الله تعالى سمى القرآن بخمسة وخمسين اسمًا[(١)]، وقد ذكرَ صاحبا «البرهان والإتقان» وجوهًا للتسمية ومعانيها، أمَّا الطبري فقد اكتفى بذكر أشهرها مبينًا معانيها، من هذه الأسماء[(٢)]:

١- سمّاه اللّه تعالى كتابًا فقال: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾[(٣)].

والكتاب مصدر كتب يكتب كتابة وأصلها الجمعُ، وسميت الكتابة لجمعها الحروف، فاشتق الكتاب لذلك لأنَّه يجمعُ أنواعًا من القصص والأحكام والأخبار على أوجه مخصوصة.

٢- وسمّاه ذكرًا فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[(٤)].

وذلك لما فيه من المواعظ والتحذير وأخبار الأمم الماضية، والذكر أيضًا يأتي بمعنى الشرف والفخر لمن آمن بالقرآن وصدق بآياته ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾[(٥)]. أي شرف لك ولقومك.

٣- وسمّاه فرقانًا فقال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾[(٦)].

---

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي (١/ ٢٧٦)، والإتقان للسيوطي (١/ ١٤٦).
(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١/ ٤١).
(٣) الجاثية: ١، ٢ .
(٤) الحجر. ٩
(٥) الزخرف: ٤٤ .
(٦) الفرقان: ١ .

وذلك لأنه يفرق بين الحق والباطل، والمؤمن والمنافق، والمسلم والكافر، وقيل لأنه مفروق بعضه عن بعض في النزول(١).

أمّا ابن عباس فكان يقول: الفرقان المخرج.

وقال آخرون: الفرقان هو الفرق بين الشيئين والفصل بينهما وقد يكون ذلك بقضاء واستفتاء وإظهار حجة وغير ذلك من المعاني المفرقة بين المحق والمبطل، والقرآن إنما سمّي فرقانًا لفصله بحجته وأدلته وحدوده وفرائضه وسائر معاني حكمه بين المحق والمبطل، وفرقانه بينهما تبصرة المحق وتخذيله المبطل حكمًا وقضاء(٢).

٤- وسمّاه التنزيل: وقد وردت بذلك آيات كثيرة: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾(٣).

وغيرها من الآيات، والتنزيل مصدر سمّي به الكلام المنزل من عند اللّه على رسوله، وتسميته بذلك من قبيل تسمية المفعول بالمصدر وهو من الأسماء الشائعة على ألسنة العلماء حيث يقولون ورد في التنزيل ويعنون القرآن.

٥- ووصفه بصفات كثيرة منها مبارك كما ورد في قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ . . .﴾(٤).

والحكيم كما في قوله تعالى: ﴿يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾(٥).

والمجيد كما في قوله: ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾(٦).

وغيرها من الأسماء والصفات، ومن أراد الاستزادة فليرجع إلى كتابي «البرهان» للزركشي و«الإتقان» للسيوطي.

---

(١) مناهل العرفان (١/٨).
(٢) التبيان في علوم القرآن ص١٢٢ .
(٣) الشعراء: ١٩٢، ١٩٣ .
(٤) ص: ٢٩ .
(٥) يس: ١، ٢ .
(٦) ق: ١ .

استدراك: قلت: والغالب من هذه الأسماء، أو المشهور منها: القرآن، والكتاب، وفي تسميته بهذين الاسمين إشارة إلى أنَّ من حقه العناية بحفظه في موضعين لا في موضع واحد، أعني أنه يجب حفظه في الصدور والسطور جميعًا، فلا ثقة لنا بحفظ حافظ حتى يوافق الرسم المجمع عليه من الأصحاب، المنقول إلينا جيلًا بعد جيل على هيئته التي وضع عليها أول مرة، ولا ثقة لنا بكتابة كاتب حتى يوافق ما هو عند الحفاظ بالإسناد الصحيح المتواتر، وبهذه العناية المزدوجة التي بعثها الله في نفوس الأمة المحمدية اقتداء بنبيها، بقي القرآن محفوظًا في حرز حريز، إنجازًا لوعد الله الذي تكفّل بحفظِه حيث يقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ ولم يصبه ما أصاب الكتب الماضية من التحريف والتبديل وانقطاع السند، حيث لم يتكفل الله بحفظها، بل وكلها إلى حفظ الناس، فقال تعالى: ﴿وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ أي بما طلب إليهم حفظه.

والسر في هذه التفرقة: أنَّ سائر الكتب السماوية جيء بها على التوقيت لا على التأبيد، وأنَّ هذا القرآن جيء به مصدقًا لما بين يديه من الكتب ومهيمنًا عليها، فكان جامعًا لما فيها من الحقائق الثابتة، زائدًا عليها بما شاء الله زيادته، وكان سادًا يسدّها، ولم يكن شيء منها ليسد مسدّه، فقضى الله أن يبقى حجة إلى قيام الساعة، وإذا قضى الله أمرًا يسّر له أسبابه، وهو الحكيم العليم(١).

الفرق بين القرآن والحديث القدسي:

قد ينسب الحديث تارةً إلى النبي ﷺ فيقالُ حديث النبي، وقد ينسبُ إلى القُدس فيقالُ الحديث القدسي(٢)، والحديث كما عرَّفه العلماء هو ما

---

(١) مباحث في علوم القرآن «للقصبي محمود زلط» ص٢٠، ٢١ .

(٢) أقدم الكتب في هذا الموضوع مشكاة الأنوار فيما يروى عن الله لمحيي الدين بن العربي،=

نقل عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير، فالأقوال التي تصدر عن النبي ﷺ تعتبر من الأحاديث النبوية فإذا ما نسبت إلى الله عز وجل سمّاها العلماء أحاديث قدسية وذلك كقول النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل أنّه قال:

«يا عبادي: إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا.

يا عبادي: كلكم ضال إلّا من هديته فاستهدوني أهدكم.

با عبادي: كلكم جائع إلّا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم.

يا عبادى: كلكم عار إلّا من كسوته فاستكسوني أكسكم.

يا عبادي: إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعًا فاستغفروني أغفر لكم.

يا عبادى: إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني.

يا عبادي: إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إيّاها فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلّا نفسه»

[رواه مسلم][1]

ومثل قول النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه: **«أنا عند ظنّ عبدي بي، فإذا ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكَرْتُهُ في ملأ خيرٌ من ملئه»**. [رواه البخاري، ومسلم والترمذي][2].

* * *

= والجامع الكبير للسيوطي، وكذلك الجامع الصغير، كتاب الإتحافات السنية في الأحاديث القدسية لعبد الرؤوف المناوي، وكتاب أدب الأحاديث القدسية لأحمد الشرباصي.

(١) صحيح مسلم. كتاب البر والصلة والآداب. باب تحريم الظلم (٣/ ١٩٩٤) ح٥٥ .

(٢) صحيح البخاري. كتاب التوحيد. باب قوله تعالى: ﴿يريدون أن يبدلوا كلام الله﴾، صحيح مسلم كتاب التوبة، باب في الحض على التوبة والفرح بها (٣/ ٢١٠٢) ح١، سنن الترمذي. كتاب الدعوات (٥/ ٥٨١) ح٣٦٠٣ .

المبحث الثالث

لغة القرآن

نزل القرآن باللغة العربية، قال تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾[1]. فلا غرو إذا قلنا إنَّ التهجم على اللغة هو تهجم على القرآن، والنيل من اللغة هو نيل من القرآن، والمحاولات والمعاول التي تهدم لغتنا إنما هي معاول تحاول هدم القرآن، وهدم كيان الأمة.

وقد طالعنا طالع سوء من المحدثين يزعم «أنَّ القرآن لَمَّا حوى في آياته ألفاظًا أعجمية، فهو أعجمي مزيج من لغات شتى...».

هذا الزعم والادعاء في واقعة ليس بجديد، بل هو دعوى قديمة دحضها القرآن الكريم واصفًا إيّاها بأنّها منطق الذين يلحدونَ في القرآن، فملحدو اليوم هم ببغاوات لملحدي الأمس، لذا كان لزامًا على من يحمل في جعبتِهِ سهامًا أن يرميهم بسمهه، وأن يرد كيدهم إلى نحورهم، وسنحاول بعون الله أن نعرض لهذه القضية القديمة الحديثة في آن واحد، وأن نرد عليهم بأدلة قاطعة، وبراهين ساطعة، وأن نبيّن زيف هذه الأفكار الغاشمة، وأن نتناول فيه جانبًا من الجوانب التي تعنينا في علوم القرآن تاركينَ الجوانب الأخرى لمن هو أهل لها.

هذا الجانب يتناول قضية احتواء القرآن لألفاظ معربة عن أصول أعجمية، وهي قضية استحوذت على علمائنا الأقدمين والمحدثين على حد سواء، وكانت مثار اهتمامهم، فتعددت وتضاربت فيها الآراء والمذاهب ما بين مثبت ونافٍ، والمثبتون قد اختلفوا في حصر هذه الكلمات بين مكثر ومقل، فقد حصرها الإمام الغزالي في كلمتين أو ثلاث، وحصرها تاج الدين السبكي بسبع وعشرين لفظًا ونظمها شعرًا،

---

(١) الشعراء: ١٩٥

وزادها الإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني أربعًا وعشرين لفظًا ونظمها شعرًا أيضًا، كما زادها الإمام السيوطي بضعًا وستين لفظًا فتمت أكثر من مائة لفظ[1].

وسنرى فيما بعد القول الحق في حقيقة هذا الحصر الادعائي.

وقبل أن نخوض في مذاهب العلماء في وقوع المعرب في القرآن، هاك بعض هذه الألفاظ:

سئلَ ابن عباس عن قوله تعالى:

﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾[2] قال هو بالعربية الأسد، وبالفارسية جاد، وبالقبطية أريا، وبالحبشية قسورة، وحين سئل ابن عباس عن معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾[3] قال: حوبًا بلغة الحبشة، وبالعربية إثمًا.

وعن ابن مسعود أنّه فسّر لفظ ناشئة في قوله تعالى من سورة المزمل: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾[4] قال الناشئة هي بالحبشية، وبالعربية قيام الليل، وبما روى عن مجاهد أنّه فسّر القسط في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾[5] قال: إنَّ القسط بالرومية وبالعربية العدل.

وقد أورد السيوطي ما في القرآن عن بعض الألسن، فما ورد بلسان الحبشة «الأرائك» بمعنى السرر، وأواه: المؤمن بمعنى الرحيم، وطوبى اسم للجنة.

وبلسان العبرية مرقوم بمعنى مكتوب، وراعنا وهي كلمة سب عند اليهود.

---

(١) انظر الإتقان في علوم القرآن والمتوكلي ومقدمة تفسير ابن جرير ص٣ .
(٢) المدثر: ٥١ .
(٣) النساء: ٢ .
(٤) المزمل: ٦ .
(٥) النساء: ١٣٥ .

وبلسان الروم «فصرهن» أي قطعهن، وطفقا أي قصدا، و«الفردوس» بمعنى البستان.

وبلسان الفرس «سجيل» عن مجاهد: سجيل أولها حجارة وآخرها طين، و«سرادق» بمعنى الدهليز، و«السندس» بمعنى دقيق الديباج.

وبالنبطية بأيدي «سفرة» أي بأيدي القراء.

وبالسريانية: أسفار بمعنى الكتب، وكلمة شهر ذكر بعض أهل اللغة أنها سريانية كذلك[1].

وبعد: فهذه كلمات وألفاظ قرآنية قَلَّت أو كثرت جرى فيها خلاف في ثلاثة آراء نسوقها إليك مع المناقشة والترجيح في نهاية المطاف.

الفريق الأول: وعلى رأسهم الإمام الشافعي الذي شدد النكير على القائلينَ إنَّ في القرآن غير لغة العرب فأخذ يقيم الحجة بأنَّ القرآن كله عربي، لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[3].

وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾[4].

يقول الشافعي في رسالته:

ومن جماع علم كتاب الله العلم بأن جميع كتاب الله إنما نزل بلسان العرب... فالواجب على العالمين ألّا يقولوا إلّا من حيث علموا، وقد تكلَّم في العلم من لو أمسك بعض ما تكلم فيه منه لكان الإمساك أولى به، وأقرب إلى السلامة له إن شاء الله.

فقال قائل منهم: إنَّ في القرآن عربيًا وأعجميًا، والقرآن يدل على أن

---

(١) تفسير ابن جرير ص٦، ٧ .
(٢) يوسف: ٢ .
(٣) فصلت: ٣ .
(٤) الشعراء ١٩٢ - ١٩٥ .

ليس من كتاب الله شيء إلّا بلسان العرب، ووجد قائل هذا القول من قبل ذلك منه تقليدًا له، وتركًا للمسألة عن حجته ومسألة غيره ممن خالفه، وبالتقليد أغفل من أغفل منهم، والله يغفر لنا ولهم، ولعل من قال إن في القرآن غير لسان العرب، وقبل ذلك منه، ذهب إلى أن من القرآن خاصًا يجهل بعضه بعض العرب، ولسان العرب أوسع الألسنة مذهبًا وأكثرها ألفاظًا، ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غير نبي، ولكنه لا يذهب منه شيء، على عامتها حتى يكون موجودًا فيها من يعرفه، والعلم به عند العرب كالعلم بالسنّة عند أهل الفقه، لا نعلم رجلًا جمع السنن فلم يذهب منها شيء فإذا جمع علم عامة أهل العلم بها أتى على السنن، وإذا فرق علم كل واحد منهم، ذهب عليه الشيء منها، ثم كان ما ذهب عليه منها موجودًا عند غيره[١].

وأمّا الطبري فقد قال: إنّ الذي قالوه من ذلك غير خارج من معنى ما قلنا، من أجل أنّهم لم يقولوا: هذه الأحرف وما أشبهها لم تكن للعرب كلامًا، ولا كان ذلك لها منطقًا قبل نزول القرآن، ولا كانت به العرب عارفة قبل مجيء الفرقان، فيكون ذلك قولًا لقولنا خلافًا. إنما قال بعضكم: حرف كذا بلسان الحبشة معناه كذا، وحرف كذا بلسان العجم معناه كذا. ولم يستنكر أن يكون من الكلام ما يتفق فيه ألفاظ جميع أجناس الأمم المختلفة، وذلك كالدرهم، والدينار، والدواة، والقلم والقرطاس، وغير ذلك مما يتعب احصاؤه ويمل تعداده، لذا كرهنا إطالة الكتابة بذكره مما اتفقت فيه الفارسية والعربية باللفظ والمعنى، ولعل ذلك كذلك في سائر الألسن التي يجهل منطقها ولايعرف كلامها. فلو أن قائلًا قال فيما ذكرنا من الأشياء التي عددنا وأخبرنا اتفاقه في اللفظ والمعنى بالفارسية وبالعربية وما أشبه ذلك، مما سكتنا عن ذكره، كلّه فارسي لا

---

(١) الرسالة للشافعي، تحقيق أحمد شاكر. ص٤١ - ٤٣ .

عربي. أو ذلك كله عربي لا فارسي، أو قال: بعضه عربي وبعضه فارسي، أو قال: كان مخرج أصله عند العرب، فوقع إلى العجم فنطقوا به، أو قال: كان مخرج أصله من عند الفرس فوقع إلى العرب فأعربته كان مستجهلًا، لأنَّ العرب ليست بأولى أن تقول كان مخرج أصل ذلك العجم، ولا العجم بأحق أن تقول كان مخرج أصل ذلك عنها إلى العرب، إذا كان استعمال ذلك بلفظ واحد ومعنى واحد موجودًا في الجنسين... ثم قال: وهذا المعنى الذي قلناه في ذلك هو معنى قول من قال: في القرآن من كل لسان عندنا بمعنى أن فيه من كل لسان، اتفق فيه لفظ العرب ولفظ غيرهم من الأمم التي تنطق به نظير ما وضعنا من القول فيما مضى، وذلك أنه غير جائز أن يتوهم على ذي فطرة صحيحة مقر بكتاب الله ممّن قرأ القرآن وعرف حدود الله أن يعتقد أنَّ بعض القرآن فارسي لا عربي، وبعضه حبشي لا عربي، بعد ما أخبر اللّه تعالى أنّه جعله قرآنًا عربيًا[1].

وقد ذهب فخر الدين الرازي المفسر، والعالم اللغوي ابن فارس إلى هذا الرأي وأطال الاستشهاد على صحة هذا القول، ومما قاله: «لو كان في القرآن الكريم من غير لغة العرب شيء لتوهم متوهم أن العرب إنما عجزت عن الإتيان مثله، لأنه أتى بلغات لا يعرفونها»[2].

هذه أدلة الإمام الشافعي ومن معه، ويجدر بالذكرِ أن هذا الفريق وإن كان يقول إن جميع ألفاظ القرآن عربية إلّا أنه لا ينكر موافقة لسان العرب للسان العجم كما يقول الشافعي، ولا ينكر إذا كان اللفظ قيل تعلمًا أو نطق به موضوعًا، أن يوافق لسان العجم أو بعضها قليلًا من لسان العرب، كما يتفق القليل من ألسنة الأعاجم المتباينة في أكثر كلامها مع تنائي

(١) جامع البيان ص ١/ ٧، ٨ .

(٢) انظر الصاحبي لابن فارس ص٤٦، والإتقان ١٧٨ .

ديارها، واختلافِ لسانها، وبعد الأواصر بينها وبين من وافقت بعض لسانه[1].

ويمثل أبو عبيد على ذلك بالمثال التطبيقي فيقول: «وقد يوافق اللفظ ويفارقه ومعناهما واحد، أحدهما بالعربية، والآخر بالفارسية أو غيرها، فمن ذلك الإستبرق بالعربية، وهو الغليظ من الديباج، وهو استبره بالفارسيةِ، ثم ختم أبو عبيد كلامه بقولِه: «من زعم أنَّ في القرآن لسانًا سوى العربية فقد أعظم القول»[2].

يقولُ أبو بكر الباقلاني: «القرآن عربي لا عجمة فيه، فكل كلمة في القرآن استعملها أهل لغة أخرى فيكون أصلها عربيًا إنما غيّرها غيُرهم تغييرًا ما، كما غَيَّرَ العبرانيون فقالوا: للإله: لاهوب، وللناسك: ناسوت.

أمَّا الفريق الثاني: فهو فريق المتساهلين الذي حكموا بأن القرآن شامل لجميع لغات العالم في زمنهمّ، استنادًا لقوله تعالى: ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾ فالآية حسب زعمهم شاملة وعامة، لذا قالوا إنَّ القرآن فيه من كل لهجة عربية بل باللغات الشائعة في زمن نزوله، كالفارسية والرومية والعبرية، لذا فقد تساهلوا وتوسعوا في الألفاظ الوافدة التي استعملها القرآن الكريم ظنًا منهم أنَّها مزية من مزاياه في عدمِ التفريط بشموليته لسائر اللهجات واللغات. قال الثعلبي: إنَّه ليس لغة في الدنيا إلَّا وهي في القرآن.

ويرى أنَّ وقوع هذه الألفاظ في القرآن إنما يدلُّ على حكمة احتوائهِ لعلوم الأولينَ والآخرين، ومن ضمن ذلك إحاطته بجميع اللغات والألسن.

---

(١) الرسالة للإمام الشافعي ص٤٤، ٤٥ .
(٢) الصاحبي ص٤٣، ٤٤ .

مما تقدَّم يتبيَّنُ لنا أنَّ هناك خلافًا بين الفريقين، وهو خلاف حقيقي لا شكلي، وعلى الرغمِ من وضوحِ حقيقة الخلاف إلَّا أنَّ أبا عبيد بن سلام قد صبغ الخلاف وفاقًا.

قال أبو عبيد القاسم بن سلام: «إنَّ القرآن كله عربي ورُوِيَ عن ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وغيرهم في أحرف كثيرة من غير لسان العرب مثل: سجيل، ومشكاة، واليم، والطور، وأباريق، واستبرق، وغير ذلك فهؤلاء أعلم بالتأويل من أبي عبيد ولكنهم ذهبوا إلى مذهب، وذهبَ هذا إلى غيره، وكلاهما مصيب إن شاء الله تعالى، وذلك أن هذه الحروف بغير لسان العرب في الأصل، فقال أولئك على الأصل ثم لفظت به العرب بألسنتها فعرَّبته فصار عربيًا بتعريبها إيَاهُ فهي في هذه الحال أعجمية الأصل».

وعلَّق الشيخ الزفزاف فقال: «وهذا الرأي الذي ذكره أبو عبيد إنما أرادَ به أن يجعل الخلاف بين الفريقين السابقين لفظيًا. والذي يظهر لي أنَّه ليس كذلك لأنَّ الإمام الشافعي ومن معه لم يكونوا يجهلونَ أنَّ العرب إذا تكلَّمت اللفظ الأعجمي يصبح عربيًا ولكنهم كانوا يرون أن القطع بأن هذه الألفاظ أعجمية الأصل لا سبيل إليه. كما يفهم ذلك من القرآن وكما يفهم من كلام القاضي أبي بكر الباقلاني وهم يرون غلق هذا الباب»[١].

ثم استدل هذا الفريق أولًا: بالآية القرآنية: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾[٢].

ووجه الدلالة في الآية أن كل رسول مرسل إلى قومه، فيتحدث بلسانهم والنبي ﷺ مرسل إلى كل الأمم فلابد أن يكون في الكتاب المبعوث إليهم من لسان كل قوم إن كان أصله بلغة قومه هو.

---

(١) القرآن والحديث للشيخ الزفزاف.

(٢) إبراهيم ٤

ثانيًا: ورد في القرآن الكريم أعلام أعجمية وهي كما يقول علماء النحو ممنوعة من الصرف وعلة ذلك العلمية والعجمة، وإذا اتفق على وقوع الأعلام فلا مانع من وقوع الأجناس.

ثالثًا: أمّا الدليل الأخير فهو القياس كما ذكره ابن جني: «أنَّ ما قيس على كلام العرب، فهو من كلام العرب»[1].

الفريق الثالث: وهو الوسط بين الفريقين فليس بمبالغ ولا متساهلٍ، ذلك أنَّه أثبت وجود كلمات أعجمية، ولكنها لما عربت أصبحت عربية، فوصف القرآن بأنَّه عربي صحيح، لأنَّ المعرب كالعربي سواء بسواء، وبهذا القول يكون قد وافق فريق المتساهلين، ولكنه يخالفه في الإفراط بالكم من هذه الكلمات إلى درجة إثبات أن القرآن فيه كل اللغات واللهجات، أو على حد تعبيرهم في القرآن من كل لسان عربي. أمّا وجه مخالفة الفريق الثالث للفريق الأول فإنَّ العرب في جاهليتهم قد استعملوا كلمات أعجمية، ولكنهم لاكّوها بألسنتهم وأخضعوها لتفعيلاتهم، فأصبحت معربة، فامرؤ القيس استعمل لفظة السجنجل في معلقتِه المشهورة:

مهفهفةٌ بيضاءُ غيرُ مفاضةٍ تَرَائِبُهَا مصقولَةٌ كالسَّجَنْجَلِ

والسجنجلَ بمعنى المرآة وهي لفظة معربة[2] لم يستعملها العرب من قبل، والتعريب في هذه الألفاظ لا يكون بأخذها كما وردت عن الأعاجم، بل لابد من صياغتها على تفعيلة من التفعيلات العربية، كأفعل وفعل وفاعل وافتعل واستفعل وغيرها، فإن وافقتها أخذ بها، وإلَّا أنقص أو بدِّل حرف منها حتى توافق أوزان التفعيلات، فالتعريب هو صوغ الكلمة الأعجمية إلى اللغة العربية ولكنها أصبحت عربية حين لاكتها

---

(١) الخصائص جا، ص٣٥٧.

(٢) انظر شرح المعلقات السبع للزوزني.

العرب بألسنتها، نعم إننا لا نستطيع أن نجزم أن جميع الألفاظ التي أوردها بعض العلماء هي ألفاظ أعجمية في الأصل، لأنَّ القطع بهذا يحتاج إلى تتبع اللفظ والتنقلات التي اعتورته حتى نصل إلى منشئه الأصلي، هذا أولًا.

ثانيًا: إنَّ الفريق الأول الذي استدل على عربية القرآن وأنَّه ليس فيه كلمة معربة بمعنى أن أصلها أعجمي، ثم نقلت إلى العربية قد خالفوا سنة التأثير والتأثر بين اللغات، وحكموا أنَّ اللغة العربية قد أثرت في اللغات الأخرى على الدوام والاستمرار، فقد أثرت ولم تتأثر، وأقرضت ولم تستقرض، ويعللونَ هذه الظاهرة بأحد أمرين كما يقولُ الشيخ أحمد شاكر[1]:

أولهما: أنَّ العربَ من أقدم الأمم، ولغتها من أقدم اللغات وجودًا، كانت قبل إبراهيم وإسماعيل، وقبل الكلدانية[2] والعبرية[3] والسريانية[4]، وغيرها، بله الفارسية. وقد ذهبَ منها الشيء الكثير بذهاب مدنيتهم الأولى قبل التاريخ، فلعلَّ الألفاظ القرآنية، التي يظنُّ أن أصلها ليس من لسان العرب، لا يعرف مصدر اشتقاقها، لعلها من بعض ما فقد أصله وبقي الحرف وحده.

ثانيهما: اتساع اللغة العربية.

يقولُ الإمام الشافعي: «ولسانُ العرب أوسع الألسنة مذهبًا، وأكثرها ألفاظًا، ولا نعلمه يحيط بجميع علمِه إنسان غيرُ نبي»[5].

ولذا وجدنا ابن عباس مع علمِهِ الواسع يخفى عليه معنى «فاطر» فروي

---

(١) انظر تقديم أحمد شاكر لكتاب الرسالة.

(٢) الكلدانية نسبة إلى الكلدانيين بالضم وهم طائفة من عبدة الكواكب، تاج العروس (٢/ ٤٨٦).

(٣) العبرية والعبرانية لغة اليهود، لسان العرب: عبر.

(٤) السريانية: لغة سواد العراق، المعرّب ٦٠ .

(٥) الرسالة للإمام الشافعي.

عنه أنّه قال: «كنتُ لا أدري ما فاطر السموات والأرض حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما لصاحبه أنا فطرتها أي بدأتها»[1].

ونظرًا لاتساع اللغة العربية فقد رأوا أنّها المصدر لتلك اللغات أو المتواتر أو المقرض لتلك اللغات، فقد أعطت ولم تأخذ، وأثرت ولم تتأثر، وأقرضت ولم تقترض. إلخ.

المناقشة والرد والنقض لهذه الأدلة:

١- إنَّ قضية أقدمية اللغة العربية غير مسلم بها، والنظريات في الأقدميات لم تستقر على حال، وهي أدلة ظنية، وهناك كلام طويل في لغة آدم عليه السلام وكلام طويل في توقيفية اللغة ووضعها من البشر، والخلاف في هذه القضية طويل وعريض.

ولكن من المسلم به أن اللغات قد عايشت بعضها بعضًا، واحتكَّ البشر مع البشر، فجريا على سنة التأثير والتأثر جرى الإقراض والاقتراض، واللغة العربية لم تخرج عن هذه السنة، وليست لغة بأولى من لغة في هذه السنة.

٢- أمّا القول بأن اللغة العربية من أوسع اللغات فلا يحتم ذلك أن تكون دومًا هي المؤثر الذي لا يتأثر، والمقرض الذي لا يقترض.

مجمل القول أن أقدمية اللغة وسعتها لا يمنع شيئًا مما قلناه، وأقصى ما يمكن قوله أنّها اللغة الأكثر تأثيرًا وإقراضًا وهذا الأمر الصواب.

٣- أمّا القول بأن ابن عباس قد خفي عليه معنى فاطر، فلا ينهض دليلًا على ما تقولون، لأنَّ خفاء المعاني على العلماء لا يدل على سلب أو إيجاب في هذا المقام.

وبعد: فيظهر مما تقدّم أنَّ القول الراجح هو رأي الفريق الثالث وهو

---

(١) تفسير ابن كثير لمطلع سورة فاطر.

قول ترجمان القرآن ابن عباس الذي دعا له النبي ﷺ : «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل» ووافقه تلميذه ابن مجاهد، وعكرمة فهم أعلم بالتأويل كما يقولُ أبو عبيد مخالفًا شيخه أبا عبيدة.

«فهؤلاء أعلم بالتأويل من أبي عبيدة»[1]، وقد روى عنهم أقوال في بيان الأصل الأعجمي لبعض الألفاظ القرآنية، وهذا غير مانع من وضعها بالعربية لأنَّ تعريب العرب لها جعلها عربية، فهي أعجمية في الابتداء، عربية في الانتهاء وكما يقول ابن جني فما قيس على كلام العرب فهو من كلامهم.

قال ابن عطية: «فحقيقة العبارة عن هذه الألفاظ أنَّها في الأصل أعجمية، لكن استعملتها العرب وعربتها فهي عربية بهذا الوجه، فقد كان للعرب العاربة التي نزل القرآن بلسانها بعض مخالطة لسائر الألسنة بتجارات، وبرحلتي قريش، كسفر «مسافر بن أبي عمرو» إلى الشام، وكسفرِ «عمر بن الخطاب» وكسفر «عمرو بن العاص» و«عمارة بن الوليد» إلى أرض الحبشة، وكسفرِ «الأعشى» إلى «الحيرة» وصحبته لنصاراها مع كونِه حجة في اللغة، فعلقت العرب بهذا كله ألفاظًا أعجمية غيرت بعضها بالنقص من حروفها، وجرت إلى تخفيف ثقل العجمة واستعملتها في أشعارها ومحاوراتها، حتى جرت مجرى العربي الصحيح، ووقع بها البيان. وعلى هذا الحد نزل بها القرآن، ثم تابع ابن عطية حديثه فقال ردًا على الطبري: «وما ذهبَ إليه الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ من أنَّ اللغتين اتفقتا لفظة لفظة بذلك بعيد، بل أحدهما أصل والأخرى فرع، وليس بأولى من العكس.»[2].

إنَّ هذا القول لا يقلل من شأن عربية القرآن لا من قريب ولا من بعيد،

---

(١) المعرب للجواليقي ص٥٣، والمهذب للسيوطي ص١٨

(٢) مقدمة المهذب ص١٥ - ١٨ بتصرف، وقوع المعرب في القرآن للأستاذ محمد السيد

بل يدل على مرونتها واتساعها لما هو مستحدث وجديد، وكما قيل ولنا أن نضيف إليها كلمات لم تكن مستعملة من قبل، ولقد أضافَ لها العرب في جاهليتهم وإسلامهم، وصبوا ذلك في قوالبهم وأصبحت الألفاظ المعرَّبة عربية فصيحة».

يقولُ السيوطي: «وقد رأيتُ الجويني ذكر لوقوع المعرب في القرآن فائدة أخرى فقال: إن قيل إن (إستبرق) ليس بعربي، وغير العربي من الألفاظ دون العربي في الفصاحة والبلاغة، فنقول: لو اجتمعَ فصحاء العالم وأرادوا أن يتركوا هذه اللفظة ويأتوا بلفظة تقوم مقامها في الفصاحة لعجزوا عن ذلك. فمثلًا كلمة (إستبرق) إن أرادَ الفصيح أن يترك هذا اللفظ ويأتي بلفظ آخر لم يمكنه، لأنَّ ما يقوم مقامه إمَّا لفظ واحد أو ألفاظ متعددة، ولا يجدُ العربي لفظًا واحدًا يدل عليه؛ لأنَّ الثياب من الحرير عرفها العرب من الفرس، ولم يكن لهم بها عهد، ولا وضع في اللغةِ العربية للديباج الثخين اسم، وإنما عربوا ما سمعوا من العجم، واستغنوا عن الوضعِ لقلة وجودِه عندهم وندرة تلفظهم به. أمَّا إن ذكره بلفظين فأكثر فإنَّه يكون قد أخلَّ بالبلاغةِ، لأنَّ ذكرَ لفظين لمعنى يمكن ذِكره بلفظ تطويل، فعلم بهذا أنَّ لفظ (إستبرق) يجب على كل فصيح أن يتكلم به في موضعه ولا يجد ما يقوم مقامه. وأي فصاحة أبلغ من ألَّا يجد غيره مثله؟[١]».

ويؤكد هذه الحيقية الرافعي إذ يقول: «ولذا قال العلماء في تلك الألفاظ المعربة التي اختلطت بالقرآن. إنَّ بلاغتها في نفسها أنَّه لا يوجد غيرها يغني عنها في مواقعها من نظم الآيات، لا إفرادًا ولا تركيبًا[٢]، وهو قول يحسن بعد الذي بيّناه».

---

(١) المرجع السابق ٢٣١ وقارن به«البرهان» للزركشي.

(٢) إعجاز القرآن والبلاغة العربية ص٧٢، ٧٣ .

وما نراهُ أنّ في القرآن ألفاظًا اشتهرت في اللسان الأعجمي، ولذا مَنَعها العرب من الصرفِ. فاللغة العربية لُغَةٌ ساميَّة، وهي أقربُ اللغات الساميّة إلى اللغة السامية الأم. وكان اللسان العربي معروفًا في العراق والشام قبل الإسلام، بدليل الرحلات والهجرات العربية. وكان كثير من ألفاظ السامية في العبرية والسريانية والآكدية والأشورية -معروفًا عند العرب. ودخل ذلك كله العربية، وتعرَّب، وأصبح عربيًا.

فالقرآن عربي؛ لأنَّ لغته عربية خالصة، وما دخله من ألفاظ اشتهرت في اللسان الأعجمي، هي ألفاظ صارت عربية، ومعلومة عند بطون من العرب. وهو عربي لنزوله على نبي عربي، وهو عربي؛ لأنَّ أوَّل من حفظه عرب، ولسانهم عربي. وأوَّل من حمله ونشره هم العرب.

* * *

المبحث الرابع

ترجمة القرآن

يقودنا الحديث عن لغة القرآن وإعجازه إلى حديث عن ترجمة القرآن بغير لغته، إذ مفهوم الترجمة كما يقول لسان العرب هي نقل الكلام بلغة غير لغته، فترجمه وترجم عنه إذا فسرّ كلامه بلسان آخر، كما أنَّ الترجمان -بالضم والفتح- هو الذي يترجم الكلام أي ينقله من لغة إلى أخرى.

ويجدر بنا أن ننوّه إلى أن الترجمة ضرورة لنا من أجل إبلاغ ديننا الذي لا يتأتّى بدونها، وقد مارسها أجدادنا الأوائل بحال من الأحوال، وإن قل اعتمادهم عليها في صدر الإسلام الأول نظرًا لإقبال الشعوب غير العربية على تعلُّمِ اللغة العربية التي هي عمادُ دينهم، فجعل القرآن منهم لسانًا عربيًا أنساهم في كثير من الأحيان لغاتهم الأصلية بل نصَّب الأعاجم أنفسهم لخدمةِ العربيةِ، فكان منهم من وضع القواعد والأسس للغة القرآن، وما أفضل ما قاله الإمام ابن حجر: «إنَّ العربي هو من تكلَّم العربية وإن كان من العجم، والأعجمي هو من تكلَّم غير العربية وإن كان من العرب».

أقوال: إنّ الأهمية للترجمة قد بدأت تأخذ طريقها وأحرى بنا أن نعتني بها؛ لأنَّ البعثات التنصيرية والاستشراقية أصبحت المصدر الوحيد للمعرفة الإسلامية لأولئكَ الذينَ يسلمونَ من غير العرب أو لأولئكَ الذين يرغبون في معرفة الإسلام.

بعد هذه اللمحة نتحدث عن حكم الترجمة للقرآن، ولا يفوتنا أن ننبه إلى نوعين من الترجمة:

ترجمة حرفية وترجمة تفسيرية: ولا خفاء أنَّ الترجمة الحرفية مستحيلة، إذ إبدال حرف أو كلمة منه يخلُّ بإعجازِه الذي هو سمته،

والتي بدونها لا يكون قرآنا، فكيف بإبدال لغة غير لغته، وعلاوة علي ذلك فإنّ الألفاظ العربية لها معنيان: معنى أصلي وهو المعنى الذي لا اختلافَ فيه ي كل الألسنة واللغات، ومعني ثانوي: وهو المعنى الذي يختلف باختلاف اللغات ويتفاوت الناس في فهمه ويتفاوت المتكلمون في درجة الإجادةِ فيه.

وهذا مثال يوضح المقصود والمراد من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾(١).

فلو ترجمتها ترجمة حرفية ما بلغت المراد منها؛ لأنَّ المراد: النهي عن البخل والإسراف، ولست ببالغه مر ظاهر الألفاظ أي من الترجمة الحرفية، وإن أردت المعنى والتفسير وترجمته إلى لغة أخرى لم يستعص عليك ذلك، إذا فهمت وكان فهمك صوابًا في تعيين المعنى، ولكن عندها لن يكون كلامك قرآنًا ولو كان بلغة القرآن نفسها فأنّى يكون للغة غيرها أن نسميها قرآنا؟.

لذا قرر العلماء قديمًا وحديثًا أن الترجمة الحرفية مستحيلة ولا يجوزُ أن تسمّى الترجمة قرآنا، ولا أن يسند شيء منها إليه تعالى، فيقالُ: قال اللّه: كذا، فإسنادها إليه تعالى كذب وافتراء.

أمَّا ترجمة معاني القرآن أو الترجمة التفسيرية فلا ريب بجوازها بل قل وجوبها إذا كان لا يتم التبليغ للقرآن إلّا بها، وما لا يتم الواجب إلّا به فهو واجب.

يقولُ شيخ زاده في حاشيته على تفسير البيضاوي وذلك بصدد تفسيره للآية: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا...﴾(٢).

وما أنزل إليه عليه الصلاة والسلام بلسان العرب خاصة، فكيف يخرج

---

(١) الإسراء ٢٩

(٢) الأعراف ١٥٨

به جميع الناس من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان فأجابَ عنه بقوله: وما أرسلنا من رسول إلى الأمم التي اختلفت ألسنتهم إلَّا بلغة قومه الذين هو منهم، إذ لا حاجة إلى أن ينزل إلى كل قوم كتاب ملتبس بلغة أولئكَ القوم، لأنَّ ذلكَ ينوب ويكفي عن التطويل اللازم من ذلك، فإذا أنزل بلسان واحد من الأقوام كان أولى الألسنة لسان قوم الرسول، لأنَّ قومه أقرب الناس إليه، فكان حقهم عليه أقدم، وكان الأولى أن يدعوهم إلى الحق أولًا، وينذرهم عن المخالفة والعصيان، حتى إذا فهموا منه يبينون ما أرسل به إليهم ويترجمون لغيرهم ما فهموه فتنتشر دعوته بذلك إلى أطراف العالم(١).

حكم قراءة الترجمات القرآنية في الصلاة:

نقولُ: إن كلمة المجتهدين سواء في عدم جواز الصلاة بالترجمةِ، إلَّا ما روي عن الإمام أبي حنيفة كما سنرى.

أمَّا الشافعية فقالوا: (لا تجوز قراءة القرآن بغير لسان العرب، سواء أمكنته العربية أم عجز عنها).

أمَّا الحنابلة فيقولون: «ولا تجزئه القراءة بغير العربية ولا إبدال لفظ عربي، سواء أحسن القراءة بالعربية أم لم يحسن، ويلزمه التعلم»، وروي مثل ذلك عن المالكية. قال أبو بكر بن العربي -هو من فقهاء المالكية- في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ﴾(٢)، قال علماؤنا: وهذا يبطل قول أبي حنفية بأنَّ ترجمة **القرآن بإبدال اللغة العربية منه بالفارسية جائز، لأنَّ** اللّه تعالى قال: ﴿ولو جعلناهُ قراءنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمي وعربي﴾ نفى أن يكون للعجمة إليه طريق -فكيف يصرف إلى ما نفى اللّه عنه؟.

---

(١) (٣/ ١٢٤).

(٢) فصلت: ٤٤ .

أمَّا ابن حزم فيحكم بفسقِ من قرأ غير العربية في الصلاة.

يقولُ في «محلّاه»: «من قرأ أم القرآن أو شيئًا منها أو شيئًا من القرآن في صلاتِه مترجمًا بغير العربية أو بألفاظ غير الألفاظ التي أنزل اللّه تعالى، عامدًا لذلك، أو قدَّم كلمة أو أخرها، عامدًا لذلك، بطلت صلاته، وهو فاسق لأنَّ اللّه تعالى قال: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾[1]. وغير العربي ليس عربيًا، وإحالة عربية القرآن تحريف لكلام اللّه، وقد ذمَّ اللّه تعالى من فعلوا ذلك فقال: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾[2].

أمَّا الحنفية فقد خالفوا جمهور الفقهاء، فقد روي عن أبي حنيفة أنَّه أجازَ قراءة الترجمةِ في الصلاة سواء أكانَ عاجزًا عن العربية أو قادرًا عليها. وروي عن الصاحبين الإمام يوسف ومحمد جواز ذلك للعاجز عن العربية فقط.

يقولُ الشيخ محمد أبو زهرة:

«إنَّ أبا حنيفة الذي عاش أكثر من خمسين سنة في العصر الأموي، قد أدركَ الفرس وهم يدخلونَ في دين اللّه أفواجًا أفواجًا، وهم يلوونَ ألسنتهم بالعربية، لا يحسنونَ النطق بها ولا تسطيع ألسنتهم إخراج الحروف العربية من مخارجها، وإن عرفوا العربية في الجملة، واستطاعوا التفاهم بها بشكل عام، ثم رآهم ينطقونَ بآي القرآن نطقًا غير حسن فرخَّص فيها واعتبرها ذكرًا لا قرآنًا.

ويبدو أنَّه رجعَ عن هذا القول خوفًا من أن يظنَّ أنَّ الترجمةَ قرآن يقوم مقام الأصل العربي. فأجازها للعاجز فقط. واعتبرها ذكرًا لا قرآنًا كذلك، كما اعتبرها صاحباه على الوضع نفسه»[3].

---

(١) يوسف: ٢

(٢) المائدة: ١٣.

(٣) أبو حنيفة للشيخ محمد أبو زهرة وكشف الأسرار (١/ ٢٥). أمَّا أقوال المذاهب الأخرى فيرجع فيها إلى المجموع في فقه الشافعية وإلى المغني لابن قدامة، وإلى كتاب المحلى لابن حزم.

المبحث الخامس

إعجاز القرآن

لكل رسول معجزة تعد دليلًا على نبوته ورسالته، وعلى أنَّه مرسل من قبل اللَّه الخالق، فبذلك تقعُ حجة اللَّه على الخلق بالإيمان برسله، فمهما سمت أخلاق الرسول وعلت همته، وجادت قريحته، وتوقد ذهنه، واقتعد المكانة الأولى في قومِه، فإنَّ كلَّ هذا لا يكفي دليلًا على أنَّه مرسل من قبل اللَّه، فلا يمكن للعقل أن يصدق ويذعن ويعترف بأنَّ هذا رسول إلَّا بما يظهره اللَّه على يديه من معجزات، فيخرق له السنن الكونية، أسبابها ومسبباتها، **إذ المعجزة هي الأمرُ الخارق للعادة**، وهي خارجة عن الأسباب المعروفة، هادمة للنتائج المبتناة على المقدمات، فالنارُ مثلًا حارقة عادة، ولكنها أصبحت بردًا وسلامًا على سيدنا إبراهيم، فالذي جعلها حارقة على وفق السنن والقوانين التي نعرفها هو الذي جعلها تكونُ بردًا وسلامًا، فكانت بذلك معجزة لإبراهيم عليه السلام ودليلًا على نبوته.

والمقصودُ من المعجزة ليس هو إعجاز الناس لذات الإعجاز، أي لمجرد إيقاعهم في العجز عن الإتيان بمثل المعجزة، بل المقصود هو الإذعان والإيمان بصاحبها أنَّه رسول من قبل خالق هذه السنن وهو اللَّه تعالى.

لذا فإنَّ اللَّه تعالى قد بعث كل رسول إلى قومه، وأظهر على يديه المعجزات التي من شأنها أن تجعلَ قومه يدركونَ إدراكًا يرفع عنهم كل لبس وغموض أنَّ هذا رسول من عند اللَّه، وليس بُمدَّعٍ عليه، لذا كانت معجزات كل نبي ورسول نابعة من بيئته، ومتناسبة مع قومه، فتأتيهم على وفق ما برعوا فيه حتى يكون ذلك أدعى لإيمانهم، ولإقامةِ الحجة لأنَّ المعجزةَ لا تحقق الغاية منها إلَّا إذا حصل التحدي بها ولا يتحقق التحدي

لأمة من الأمم تعرف شيئًا عن المتحدَّى به.

وإنَّ المتتبعَ لآياتِ القرآن الكريم والمتدبر لآياتهِ التي تتحدث عن المعجزات بشكل عام لتبرز له كل هذه المعاني التي أشرنا إليها.

فهناك معجزة موسى عليه السلام التي كانت في عصاه، وهي تتلاءمُ مع قوم برعوا في السحرِ، إذ احترفوا السحر حرفة، ويدلنا على معرفة قومه بالسحر تلك الآيات القرآنية التي تحدثت عن فرعون ودعوته السحرة في زمنه:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾[1].

﴿وَأَرْسِلْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾[2].

واستجاب له السحرة: ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾[3].

وقد وردت مشتقات كلمة سحر، فوردت كلمة ساحر (إفرادًا) والسحرة (جمعًا) ووردت بصيغة اسم الفاعل (ساحر) واسم الفاعل الموصوف (ساحر عليم) ووردت بصيغة المبالغة على وزن فعّال (سحّار) كل هذا يشعرنا بما عليه القوم من علم بالحسرِ وفنونه، وقوم هذا شأنهم أهل للتحدي الكبير في هذا المجال، وجعلت لهم المكافأة العظمى إن كانوا غالبين، وأية مكافأة أعظمُ من أن يكونوا من المقربين... من الطاغوت العظيم إلههم فرعون... لقد استجمعَت جميع عناصر التحدي ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾

---

(١) يونس ٧٩.
(٢) الأعراف: ١١١، ١١٢.
(٣) الشعراء: ٣٦، ٣٧.
(٤) الأعراف ١١٣

﴿فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ (١١٩) وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (١٢٠) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (١٢٢) قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣) لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤) قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾(١).

وهكذا وقع التحدي، وانتهى التحدي بإيمان السحرة أجمعين بالله ربِّ العالمين.

وقل مثل ذلك في معجزة عيسى عليه السلام، حين برعَ قومه في الطب، فجعل المعجزة من جنس ما عرفوا وبرعوا، جعل الله على يدِ عيسى إحياء الموتى قبل دفنهم أو بعده، وجعل مسحة من يديه تَرُدُّ الأعمى بصيرًا وتبرئ الأكمه والأبرص فيصبح سليمًا، وأي معجزة أعظمَ من إحياء الموتى، وأَعْلَمُ الناس إدراكًا لهذه المعجزة هم أولئكَ الذين يعرفونَ الطب وعلومه، وهم أَقْدَرُ الناس على التمييز بين إحياء حقيقي أو إحياء مزعوم، قادرونَ على معرفة الفارق بين حياة حقيقية بعد موت محقق أو إغفاءة نتيجة سكرات المرض ثم صحوة منه.

وقل مثل ذلك في معجزة النبي ﷺ، فلقد بعث الله تعالى محمدًا ﷺ في قوم كان الكلام بضاعتهم، فرسان البلاغة والفصاحة والبيان، الشعر والخطب البليغة زادهم وشرابهم، قصيدة تجذبهم فتكون وكأنَّها معبود لهم، فتعلق في الكعبةِ أعز مكان وتكون من المعلقات، كانت أسواقهم تبادلًا وتداولًا، يتبادلونَ بضائعهم ويتداولونَ أشعارهم.

فجاءتهم معجزة من جنس ما عرفوا وألفوا، فتحداهم بالمعروف عندهم والمألوفِ لديهم.

بعد كلِّ هذا قد يدورُ في خلدنا حيرة وتساؤل، كيف ولِمَ لَمْ تؤمن

---

(١) الأعراف: ١١٥ - ١٢٥.

الشعوب والأمم برسالات الرسل عليهم السلام؟ لِمَ بادروهم بالتكذيب والجحود بعد مشاهدة المعجزات الأكثر عددًا والذينَ خلقوا لجهنم هم الكثير من الناس: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُولَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾(1).

فهذا نوح عليه السلام يمكث في قومِه ألف عام إلّا قليلًا وهو يدعوهم ليلًا ونهارًا سرًا وجهارًا ومع ذلك لم يلق إلّا إصرارًا وعنادًا وجحودًا: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا﴾(2).

وهذا موسى عليه السلام أتى قومه بالمعجزات العظام، فَعصاهُ يلقيها فتنقلبُ ثعبانًا، ويضربُ بها الصخرَ فتنفجرُ منه العيون، ولقد عاينوا ذلك بأعينهم، ولكن العناد والإصرار هو الدافع لهم للجحود والإنكار، حتى قالوا قولتهم الآثمة: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾(3).

وهذا عيسى قد لاقى من قومه صدودًا، حتى الحواريين طلبوا منه أن ينزل عليهم مائدة من السماء فقالوا لعيسى عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(4)

وأجابهم الله بما سألوا: ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(5).

---

(1) الأعراف: ١٧٩ .
(2) نوح: آيات ٥ - ٧ .
(3) البقرة: ٥٥ .
(4) المائدة: ١١٢ .
(5) المائدة: ١١٥ .

وهكذا الشأنُ مع رسول اللّه ﷺ فقد جاءهم بالمعجزة التي تذعن لها العقول، ولكن لم يؤمن بها إلَّا من هداه اللّه للإيمان، أمَّا أكثرُ العرب فقد جحدوا بها واستيقنتها قلوبهم وأبوا إلَّا الضلال، فراحوا يقولونَ كما تحدث عنهم القرآن: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾[1].

وقال اللّه تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[2].

وما هذه المواقف وما هذا الكفر والإلحاد إلَّا نتيجة إدبار واستكبار: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾[3].

وعلى كُل، فالقرآن الكريم جاء منهجًا، ومعجزة في وقت واحد، فهو يختلف عن توراة موسى، وإنجيل عيسى عليهما السلام، فالتوراةُ منهج منفصل عن معجزة موسى عليه السلام، والإنجيل منهج منفصل عن معجزة عيسى عليه السلام. أمَّا القرآن فهو معجزة، وهو منهج في الوقت نفسه، ولعل السر في ذلك: أنَّ القرآن لم ينزل على أنَّه كتاب جيل أو شعب، ولم ينزل على أنه كتاب بيئة معينة، أو زمان معين، والرسول الذي أنزل عليه رسول للناس جميعًا، من لدن بعثته إلى أن يرثَ اللّه الأرض ومن عليها، فلابدَّ أن يكونَ المنهج والمعجزة متلازمين، حتى إذا مات الرسول تبقى المعجزة على طول الزمان، يشاهدها كل البشر، ويطلع عليها كل من أراد.

(١) الإسراء: ٩٠ - ٩٤.
(٢) الأنعام: ٧.
(٣) المدثر: ٢٣ - ٢٥.

ولو كانت معجزة رسول الله ﷺ حسية، وكانت غير منهجية، لانقطعت بموته كبقية المعجزات. وهذا ينافي عموم الرسالة وختمها للرسالات[1]. ويشهد لذلك قول الله سبحانه في حق رسوله ﷺ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾[2]، وقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾[3]. وقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾[4]. ويشهدُ له أيضًا:

قول الله سبحانه عن القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾[5].

وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[6].

وإذا كان الله سبحانه قد أرادَ للقرآن: أن يكون كتاب البشرية كلها، وأرادَ لرسوله ﷺ أن يكونَ رسولًا للناس كلهم، حتى إذا مات بقي دليل رسالته خالدًا ينظرُ فيه، فمن البديهي: أن يكونَ حفظ القرآن موكولًا إلى الله، وقد عبرَّ القرآن عن ذلك فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[7].

أمّا الكتب السماوية الأخرى فكانت المحافظة عليها أمرًا تعليقيًا.

وفي ذلك يقول الله سبحانه عن التوراة التي كانت شريعة موسى

---

(١) إذن فالكتب السماوية الأخرى كانت منفصلة عن المعجزات، لأنها كانت منهجًا لفترة معينة، وكانت المعجزات حية، لأنّ الهدف منها: أن يؤمن بها من شاهدها، أو من بلغته في عصرها، ثم بعد ذلك تصبح خبرًا يحتملُ التصديق والتكذيب، ولولا أنّ الله أخبرنا بها لما صدقناها.

(٢) الأعراف: ١٥٨.

(٣) الحج: ٤٩.

(٤) سبأ: ٢٨.

(٥) النساء: ١٧٤.

(٦) يونس: ٥٧.

(٧) الحجر: ٩.

عليه السلام، وشريعة الأنبياء من بعده حتى عيسى عليه السلام: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ﴾(١).

ومعنى «استحفظوا»: أمروا بحفظه، فهناك حفظ، وهناك استحفاظ.

وإذا كان الأحبار والرهبان ممن جاء بعد لم يحفظوا، بل بدلوا وحرفوا، فليس معنى ذلك أنَّ الله لم يقدر على حفظ كتبه -حاشا- ولكن المعنى: أنَّ الله لم يتكفل بحفظها، لأنَّه لم يرد لها البقاء بعد أن حصل بها البلاغ، فمن تمسك بها، وتمسك برسالة من أنزلت عليه في زماننا هٰذا، فقد تمسك بدين منسوخ وكتاب محرف(٢).

وجه الإعجاز القرآني:

رأى بعض العلماء وجوهًا كثيرة في إعجاز القرآن، فبعضهم رأى من وجوه الإعجاز إخبار القرآن بالغيبِ، أو في نظامِه التشريعي، أو الاجتماعي أو علم الجناية، أو علم الاقتصاد، أو الفلك أو الطب، وغير ذلك من العلوم التي لا تعد ولا تحصى، ويذهب للتدليل على رأيه بقوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَـٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾(٣).

وقد ذهبَ بعضهم إلى كثير من المبالغة فيما يسمّى بالإعجاز العلمي

---

(١) المائدة: ٤٤، و المراد بالنبيين: موسى، ومن بعده من الأنبياء، إلى عيسى عليه السلام. والمراد بالربانيين والأحبار: أي: ويحكمُ بها الربانيون والأحبارَ في الازمنة التي لم يكن فيها أنبياء معهم، أو يحكمون مع وجودهم بإذنهم. والمراد بما استحفظوا: طلب الأنبياء من الأحبار والرهبان أن يحفظوا التوراة، وأن يحموها من التغيير والتبديل. والمراد بقوله: كانوا عليه شهداء: كان السلف الصالح من الربانيين والرهبان رقباء على الكتاب، وعلى من تحدثه نفسه من العبث به، ولكن الخلف حرفوا وبدلوا، اتباعًا للهوى، أو خوفًا من أشرافهم، إذا نفذوا ما جاء فيه من الحدود، أو طمعًا في عطاياهم.

(٢) مباحث في علوم القرآن للقصبي محمود زلط ص١٥.

(٣) الأنعام: ٣٨.

حتى حمّلوا النصوص القرآنية ما لا تحتمله، وما لا يقبله العقل في تأويل النصوص تأويلًا متعسفًا في كثير من الأحيان.

ونحنُ لا ننكرُ أنَّ القرآن الكريم يتسعُ للكثير مما هُدِيَ إليه البشر في بعض المجالات كالطبِّ، وعلم الفلك، وغيرها، وقد توسعت فيه مدارك علماء التفسير فأبرزوا لنا هذه المعاني ومدى مطابقتها للواقع ومدي احتمال الآيات القرآنية لمعانيها العلمية، فهذه العلوم تصدق القرآن ولكنها ليست وجوهًا في الإعجاز.

لهذا فإننا نحصر وجه الإعجاز القرآني في الوجه الذي تحدى به القرآن سائر العرب، نحصرهُ في وحه واحد ألَا وهو لفظ القرآن ونظمه وبيانه، فهو الوجه الذي تحدى اللّه به العرب قاطبةً منذ نزول القرآن وحتى هذا الزمن، وسيبقى هذا الوجه هو الشاهدُ على القرآن بنظمِه وبيانه لا بشيء خارج عن ذلك، فما هو بتحد بالأخبار بالغيبِ المكنون ولا بالغيبِ الذي يأتي تصديقه بَعْدَ دَهْر من تنزيله، ولا بعلم ما لا يدركه علم المخاطبين به من العربِ، ولا بشيء مما لا يتصل بالنظم والبيان.

إن ما في القرآن من مكنونات الغيب ومن دقائق التشريع ومن عجائب آيات اللّه في خلقه، كل ذلك بمعزل عن هذا التحدي المفضي إلى الإعجاز، وإن كل ما فيه يعد دليلًا على أنّه من عند اللّه، ولكنه لا يدل على أنْ نظمَه وبيانَه مباين لنظم كلام البشر وبيانه، وإنَّه بهذه المباينة كلام ربِّ العالمين لا كلام بشر مثلهم[(١)].

نعم لقد تحدَّاهم القرآن بدايةً بالإتيان بمثل هذا القرآن: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[(٢)].

---

(١) علوم القرآن. ص٢٨٨ ؛ والكلام من مقدمة للأستاذ محمود شاكر في مقدمة لكتاب الظاهرة القرآنية لمالك بن نبي.

(٢) الإسراء. ٨٨

وتحداهم أن يأتوا بعشر سور ولو كانت هذه السور مفتريات حسب زعمهم: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾(١).

بل تحدّاهم بسورة واحدة: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾(٢).

هذه الآيات القرآنية المتحدية للبشرية بل للإنسان والجن معًا إنما تحدتهم، وما زالت تتحداهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن نظمًا وبيانًا، وهذا هو الوجه الذي أعجزَ العرب سابقًا ولاحقًا، وهم إذ عجزوا عن الإتيان بمثله فقد انتفى أن يكون القرآن من كلامهم أو من كلام محمد لأنَّه واحد منهم علاوة على أنَّه ثبتَ لنا أحاديث شريفة قالها الرسول ﷺ والقرآن ينزل عليه، وبالمقارنةِ بين الكلامينِ نجد البون شاسعًا والفرق بعيدًا، بعد الفارق بين الخالق والمخلوق.

ويجدرُ بنا أن ننقل إليك كلمة الجاحظ في تجلية هذه الحقيقة إذ يقول: «بعث اللّه محمدًا ﷺ أكثر ما كانت العرب شاعرًا وخطيبًا، وأَحْكَمَ ما كان لغةً، وأشدَّ ما كانت عدَّة، فدعا أقصاها وأدناها إلى توحيد اللّه، وتصديق رسالته، فدعاهم بالحجة، فلمَّا قطع العذر وأزالَ الشبهة، وصار الذي يمنعهم من الإقرار الهوى والحمية دون الجهل والحيرة، حمله على حضهم بالسيف، فنَصبَ لهم الحرب ونصبوا له، وقتلَ من علْيَتِهم وأعلامِهم وأَعمامهم وبني أعمامهم، وهو في ذلك يحتج عليهم بالقرآن، ويدعوهم صباحًا ومساءً إلى أن يعارضوه -إن كان كاذبًا بسورة واحدة، أو بآيات يسيرة، فكلمًا ازداد تحديًا لهم بها، وتقريعًا لعجزهم عنهار تكشف عن نقصهم ما كان مستورًا، وظهرَ منه ما كان خفيًا».

---

(١) هود: ١٣ .
(٢) يونس: ٣٨ .

«فحين لم يجدوا حيلةً ولا حجة، قالوا له: أنت تعرف من أخبار الأمم ما لا نعرف، فلذلك يمكنكَ ما لا يمكننا، قال: فهاتوا مفتريات!! فلم يَرُم ذلك خطيب ولا طمع فيه شاعر... ولو تكلَّفه -أي لو استطاعه- لظهر ذلك، ولو ظهر لوجدَ من يَسْتَجيدهُ، ويحامي عليه، ويكايد فيه، ويزعمُ أنَّه قد عارضَ وقابلَ وناقضَ[1]».

«فدلَّ ذلك العاقل على عجزِ القوم مع كثرةِ كلامهم واستقامةِ لغتهم، وسهولة ذلك عليهم وكثرة شعرائهم، وكثرة من هجاه منهم، وعارض شعراء أصحابه وخطباء أمته، لأنَّ سورة واحدة وآيات يسيرة كانت أنقض لقوله، وأفسد لأمرِه، وأبلغ في تكذيبه، وأسرعَ في تفريقِ أتباعِه، من بذلِ النفوس، والخروج من الأوطان، وإنفاق الأموال. وهذا من جليل التدبير الذي لا يخفى على من هو دون قريش والعرب في الرأي والعقل بطبقات، ولهم القصيد العجيب، والرجز الفاخر، والخطبُ الطوال البليغة، والقصارُ الموجزة ولهم الأسجاع، والمزدوج، واللفظ المنثور، ثم يتحدى به أقصاهم بعد أن ظهرَ عجز أدناهم، فمحال -أكرمكَ اللَّه- أن يجتمعَ هؤلاء كلهم على الغلطِ في الأمرِ الظاهرِ، وهم أشدُّ الخلق أنفة، وأكثرهم مفاخرة، والكلام سيد عملهم وقد احتاجوا إليه، والحاجة تبعث على الحيلة في الأمرِ الغامض، فكيف بالظاهر الجليل المنفعة!! وكما أنَّه محال أن يطيقوه ثلاثًا وعشرينَ سنة على الغلط في الأمرِ الجليل المنفعة، فكذلك محال أن يتركوه وهم يعرفونه ويجدونَ السبيل إليه، وهم يبذلونَ أكثر منه[2]».

الإعجاز العلمي:

اتجه المسلمون إلى هذا اللون المعاصر من ألوان التفسير تأكيدًا لإعجاز القرآن أو بابًا جديدًا من أبوابه وتأكيدًا على عدم التعارض بين القرآن

---

(١) الإتقان في علوم القرآن (٤/ ٥).

(٢) الإتقان في علوم القرآن (٤/ ٥).

والإسام للعلم، حتى قام بعض المفسرين من أمثال طنطاوي جوهري بتفسير آيات الطبيعة في القرآن بحقائق العلم التجريبي ونظرياته وذهب إلى حشو تفسيره الجواهر -بإجراء المطابقة بين كشوف الغرب العلمية وآيات القرآن الكريم وتعسّفَ كثيرًا في إجراء هذه المطابقة في معظم الأحيان، ووصفَ كتابه «بهذا الكتاب في التفسير وأمثاله سيستيقظ المسلمون سريعًا، سيجيء جيل لم تشهد الأرض مثله... أيُّها المسلمون هذا هو علم التوحيد في الحقل والجبل والزرع والشجر والثمر والشمس والقمر، لا في الكتب المصنفة المشهورة، هي واللّه مبعدة عن حكمة اللّه، ومبعدة عن معرفة آياتِه[1]».

وقد أبعدَ الشيخ طنطاوي جوهري رحمه الله النجعة، ولم يتحقق له ما أمل أو أراد! . لقد أصبح التفسير العلمي والإعجاز العلمي قرينين، أو شيئًا واحدًا في عرف كثير من الدراسين والباحثين، ورأوا فيه ميدانًا ملائمًا للدعوةِ إلى الإسلام، وإقامةِ الدليل على أنَّ القرآن وحي يوحى، وأنَّه تنزيلٌ من حكيم حميد، في الوقت الذي ضعفت سليقة العرب اللغوية، وأضحوا غير قادرينَ على «تذوق الإعجاز البياني للقرآن الكريم»، وفي الوقت الذي عد فيه هذا «الإعجاز الجديد» قادرًا على مخاطبة العرب وغير العرب، كما يقوى على إدراكه المسلمون وغير المسلمون، بل إن غير المسلمين من الأوربيين المكتشفينَ للسنن، وأصحاب التقدم العلمي، يأتونَ في مقدمة من يعقل عن القرآن هذا الإعجاز، أو بعبارة أدق: هذا السبق العلمي الباهر الذي جاء به القرآن الكريم قبل مئات السنين.

والواقع -والقول الحق- أنَّ الإعجاز الحقيقي في هذا الجانب أعني جانب الحقائق العلمية عن الكون والإنسان التي أشار إليها القرآن الكريم، يكمن في طريقة القرآن في التعبير عن هذه الحقائق لا فيما سميناهُ تفسيرًا

(١) تفسير الجواهر (١/ ٦٦) طبعة القاهرة سنة ١٣٥٢هـ .

علميًا قد نخطئ فيه أو نصيب!! لقد عبرَّ القرآن الكريم عن هذه الحقائق على نحو يفهم خلال العصور! بمعنى أنَّ أسلوب القرآن ونظمه وبيانه - الذي جعلناهُ مناط الإعجاز فيما سبق- اتسع للتعبير عن هذه الحقائق العلمية على نحو لا يعجز عن خطاب الإنسان في أي عصر، ولا يحمله كذلك أكثر مما يطيق، هذا هو وجه الإعجاز الحقيقي في هذه المسألة.

وغني عن البيان أنَّه ليس في مقدرو أحد من الثقلين أن يكتب بهذه الطريقة، أو يجيء بمثل ما جاء به القرآن، وهذا هو السببُ في أنَّ القرآن الكريم فهم وفسر خلال هذه العصور.

أمَّا انفراد العصر الحديث -عصر الكشوف العلمية- بهذا اللون من ألوان الفهم، أو ألوان الشرح والتفسير، فيعود إلى إدراك المدلول (العلمي) أَو الحقيقي للإشارات القرآنية المتعلقة بالطبيعة والإنسان، يتوقف على التجربة والعمل الإنساني وعلى تطبيق المنهج القرآني في التعامل مع هذه الإشارات والظواهر أو على الامتثال للأمر القرآني بالنظرِ والملاحظةِ والتجربة، وقد قصر المسلمونَ في الامتثال للمنهج العلمي الذي تضمنه القرآن الكريم ودعا إليه، بوصفه الطريق الصحيح للاكتشاف.

هذا والحديث طويل ودقيق في هذا اللون من ألوان التفسير وبيان الإعجاز ولكن لن ننهي الحديث قبل أن نلقي الضوء -بإيجاز شديد- على شروط التفسير العلمي:

١- أقول أول هذه الشروط أن لا يفسر القرآن إلَّا باليقينيات العلمية، أو بالحقائق الثابتة التي ارتقت من درجة الفروض والنظريات العلمية إلى مقام اليقينيات أو «الفعل الواقع القائم» بحسب عبارة موريس بوكاي، والذي لا يمكن أن يتطرق إليه التغيير والتبديل[١].

---

(١) دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة تأليف موريس بوكاي ص١٨٤ دار المعارف ١٩٧٧ م.

مثال تطبيقي على ما سبق:

قال تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾[2].

إنَّ العلم الحديث يجعلنا ندرك بسهولة كيف يتداخل كل من الليل والنهار في حركة الأرض حول محورها وحول الشمس الثابتة نسبيًا، وربط بهذا تعدد المشارق والمغارب[3].

قال تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ﴾[4].

فلا خلاف على جواز تفسير هذه الآيات بما يدل على كروية الأرض والتي تمثل حقيقة علمية واقعة... إلخ.

٢- إنَّ حقائق العلم لا تفسر بها المعجزات والأمور الخارقة للعادة التي نصت عليها الآيات الكريمات نظرًا لافتراق «موضوع» هذه الآيات عن آيات الكون والطبيعة وأطوار الخلق، وسائر الآيات التي يمكن الانتفاع بحقائق العلم وثوابته في تفسيرها وشرح معانيها، بل نقول أبعد من ذلك: إنَّ الآيات القرآنية التي تحدثت عن المعجزات والخوارق لا يمكن إقحامها من باب العلم التجريبي أصلًا، لأنَّها إنما ثبتت بمقدار مخالفة السنن والقوانين، فكيف يتأتى تفسيرها من خلال السنن والقوانين.

فمثلًا معجزة حمل مريم بعيسى عليه السلام ليس لها تفسير علمي بناء على سنن الحمل والولادة، ولكن هناك تعسف في تفسير هذه المعجزة وراح يفسرها تفسيرًا علميًا حسب زعمه، فقال: إنَّ مريم خنثى، والخنثى له مبيض في جهة، وخصية في الجهة الثانية[5]!!.

(١) لقمان: ٢٩.

(٢) الزمر: ٥.

(٣) دراسة الكتب المقدسة ص١٤٥.

(٤) المعارج: ٤٠.

(٥) الدكتور محمد توفيق صدقي: دروس في سنن الكائنات (١/ ١٥) ط١ في مجلة المنار بمصر سنة ١٣٣٣ هـ.

ولا يدري القارئ مع هذا التفسير العجيب كيف تكون مريم وابنها آية للعالمين؟ وما معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾[1] الآيات الدالة على المعجزة و«الاستثناء» في حمله وولادته.

ومثل هذا، أو قريب منه من تحدث عن الكهرباء، وكيف يصعق التيار الكهربائي الأحياء... في سياق شرحه لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾[2].

ويضيفُ طنطاوي جوهري حديثًا عن معجزة موسى التي نصت عليها الآية الكريمة: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾[3].

قال: إنَّ اللّه اختارَ الحجر ليضربه موسى بعصاهُ دون غيره ليلفت العقول إلى بدائعَ خلقهِ ومعجزاتهِ في الكونِ، فالحرارةُ تحول الماء بخارًا، والبرد يجمده وهو بين الصخور فيصدعها.

ثم يمضي في تفسيره للآية (١٢) من سورة سبأ ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾.

يقولُ طنطاوي في تفسيرها: إنَّ سليمان عليه السلام كان له سفر هوائي منظم!! ومن ذلك يتضحُ أنَّ اختراعَ الطائرات في هذا العصر قد سبق إليه العصر السليماني، وهذا من معجزات القرآن[4].

ومن العجيب حقًا هذا القلبِ للحقائق تحت عنوان التفسير العلمي، أو في سبيل حض المسلمين على الأخذ بأسباب التقدم العلمي.

٣- ومن أصول التفسير المُسَلَّمَة أنّه لا يجوزُ تفسيرُ القرآن باصطلاح حادث بعد نزوله؛ لأننا لو فعلنا ذلك لعدنا على معاني القرآن بالتحوير

---

(١) آل عمران: ٥٩.

(٢) الأعراف: ١٤٣.

(٣) البقرة: ٦٠.

(٤) تفسير الجواهر (١/ ٧٠).

والتبديل، أو بالإبطال والألغاء، فالملائكةُ المسومّون الذي قاتلوا مع النبي ﷺ يوم بدر لا صلة لهم «بالجنود الذين يهبطونَ بواسطة الطائرات في الحروب» والغواصات التي عمَّ استعمالها في جميع البحارِ لم تكن مستعملة في عصر سليمان عليه السلام، على خلاف[1] من استنتجَ ذلك من قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ﴾[2] ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ . . .﴾[3] الآية.

فلا تكفي كلمة غواص أو «يغوصون» في سياق الحديث عن الشياطين!! للزعم بأن الغواصات التي عرفتها الحروب الحديثة كانت معروفة في عصر سليمان! وكأنَّ عالم الشياطينَ -بوصفهِ من عالم الغيب- لا معنى له أو لا وجودَ له في القرآن! وكأنَّ عصرَ سليمانَ -على عكس ما يدلُّ عليه التاريخ- عرف هذا التقدم العلمي والسبق في ميدان الاختراع.

وأخيرًا تحسن الإشارة إلى أنَّ من أبرزِ الباحثينَ المعاصرينَ الذينَ يسارعونَ إلى أخذِ الآية القرآنية شاهدًا على صحةِ «نظرية» من النظريات العلمية، أو يحاولونَ تفسيرَ الآية بنظرية من النظريات: عبد الرزاق نوفل، الذي كتبَ كثيرًا من الأعاجيب. ومصطفى محمود في كتابه «السقيم»: «القرآن محاولة لفهم عصري» والدكتور جمال الدين الفندي في كتابه «اللّه والكون» الذي ردَّ فيه كثيرًا من الأحاديث! ووقع في كثير من المجاز وضروب التأويل. واللّه تعالى أعلم[4].

* * *

(١) على فكري «القرآن ينبوع العلوم والفرقان» (١/ ٥١) ط١ المطبعة السلفية.

(٢) ص: ٣٧.

(٣) الأنبياء: ٨٢.

(٤) هذا البحث الإعجاز العلمي من كتاب علوم القرآن للأستاذ الدكتور عدنان زرزور ونقلناه بتصرف يسير.

وجوه فاسدة في إعجاز القرآن

(القول بالصرفة)

بعد أن بيّنا وجه الإعجاز الذي تحدّى الله به البشرَ نذكرُ وجهًا من الوجوه الفاسدة، بل هو من أفسد الأقوال، وهو القول بالصرفة، والمنسوب إلى أبي إسحاق النظام من المعتزلة والإمام المرتضى من الشيعة ثم إلى أبي إسحاق الإسفرائيني من أهل السنة، وخلاصة هذا القول أنّه وجه الإعجاز في القرآن هو الصرفة أي أنّ الله صرّفَ قلوب العرب عن معارضة القرآن فزهدهم في معارضته فلم تتعلق إرادتهم ولم تنبعث إليها عزائمهم، فكسلوا وقعدوا رغم توافر البواعث والدواعي.

بل زعموا أنّ عارضًا مفاجئًا عطّل مواهبهم البيانية وعاق قدرتهم البلاغية.

لم يظهر هذا القول إلّا في القرن الثالث الهجري وكان النظام هو أول القائلين به، ولعله استمد مقولته من الفلسفة الهندية عند البرهمية في كتابهم الفيدا، إذ يعتقدون أنّ ما ورد فيه لا يستطيع أحد من البشر أن يأتي بمثله لأنّ براهما صرفهم عن أن يأتوا بمثله، ولكن خاصتهم يقولون: إنّ في مقدرتهم أن يأتوا بمثله ولكنهم ممنوعون من ذلك احترامًا لها.

هذا القول ظاهر العوار لكل ذي عين، لذا وجدنا الأمة بقضها وقضيضها، بفرقها ومذاهبها، مجمعة علي خلاف هذا، فالمعتزلة وعلى رأسهم الزمخشري قد أبطل مثل هذا القول، والطبرسي الشيعي قد فنده وأهلُ السنّة كذلك، فهو مذهب باطل وإن قال به آحاد من المعتزلة والشيعة وأهل السنة، وقد جوبه بالرفض، ذلك أنّ تحدي القرآن وإثبات العجز للناس ليس مقتصرًا على عهد النبوة فقط بل هذا التحدي قائم، وهذا العجز من البشر ثابت إلى قيام الساعة. فمن قال بالصرفة فليحاول هو، وهل يحس بشيء من الصرفِ أو السلبِ في نفسِه؟.

إنَّ استعظام العرب لفصاحة القرآن وبلاغته وتعجبهم من ذلك لهو دليل على بطلان الصرفة، فلو كانوا مصروفينَ عن المعارضة بنوع من الصرف لكان تعجبهم للصرفِ لا للبيان المعجز. ولو كان هناك سلب لعلومهم لكان الفرق بين كلامهم بعد التحدي وكلامهم قبله كالفرقِ بين كلامهم بعد التحدي وبين القرآن، ولمّا لم يكن كذلك بطل القولُ بالصرفة[1].

والعربُ لم تفقد عقولها بعد بالتحدي، فإنَّ سلب العلوم ونسيانها في هذه المدة اليسيرة دليل على زوال العقل، ومعلوم بقاء العقول بعد التحدي كما كانت، بل من تغلب على نزعات الشيطان وترك اتبّاع الهوى في نفسِه وترفع عن الحسد والبغضاء وآمن بدعوة الحق ازداد عقله رجاحة وصفاء.

وما أحسن ما قال السيوطي في إبطال القول بالصرفة حيث يقول: «وهذا فاسد بدليل قوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا﴾[2].

فإنَّها تدلُّ علي عجزهم مع بقاء قدرتهم، ولو سلبوا القدرة لم تبق فائدة لاجتماعهم لمنزلته منزلة اجتماع الموتى، وليس عجز الموتى مما يحتفل بذكره[3]».

والإجماعُ منعقدٌ على إضافةِ الإعجاز إلى القرآن، فكيف يكون معجزًا وليس فيه صفة إعجاز، بل المعجز هو اللّه تعالى حيث سلبهم القدرةَ على الإتيانِ بمثله، ثم قال السيوطي: «ولو كانت المعارضة ممكنة، وإنما منع منها الصرفة لم يكن الكلام معجزًا، وإنَّما يكون بالمنع معجزًا، فلا يتضمّنُ الكلام فضيلة على غيره في نفسه[4]».

---

(١) الفوائد المشوق لابن القيم ص٢٥٢، ومباحث في إعجاز القرآن للدكتور مصطفى مسلم ص٦٠ .

(٢) الإسراء: ٨٨ .

(٣) الإتقان للسيوطي (٢/١١٨).

(٤) المرجع السابق.

ومن الوجوه الفاسدة تلك الأقوال المستحدثة والمبالغة المفرطة في إعجاز القرآن العلمي في كل كلمة وحرف ورد فيه. فجعلوا من القرآن كتابًا في التشريح وكتابًا في الفضاء وكتابًا في كل فن.

* * *

الفصل الثاني

الوحـــي

المبحث الأول: تعريف الوحي لغة وشرعًا.

المبحث الثاني: مراتب الوحي.

المبحث الأول

تعريف الوحي لغة وشرعًا

١- المعنى اللغوي:

الوحي مصدر بمعنى الإشارة السريعة الخفية، يقال أوحيتُ إلى فلان إذا كلمته بسرعة خفية، وأوحى وأومأ إلى فلان بمعنى أشار، وأوحى الله إليه: ألهمه[١]، وقد ورد في القرآن الكريم استعمال هذه المعاني، من ذلك:

(أ) الإلهام الغريزي للحيوان كقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾[٢].

(ب) الوسوسة بالشر سواء أصدرت من إنسان إلى إنسان أم من شيطان، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾[٣].

وفي السورة نفسها: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾[٤].

(ج) وبمعنى أشارَ وأومأ ورد قوله تعالى في سورة مريم عن زكريا عليه السلام: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾[٥].

---

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٦/ ٩٣) مادة وحي. فالواو والحاء والحرف المعتل: أصل يدل على إلقاء علم إلى غيرك، فالوحي الإشارة، والوحي الكتاب والرسالة، وكل ما ألقيته إلى غيرك حتى علمه فهو وحي كيف كان.

(٢) النحل: ٦٨.

(٣) الأنعام: ١١٢.

(٤) الأنعام: ١٢١.

(٥) مريم: ١١.

فالوحي هنا لا يجوزُ أن يكون المراد به الكلام لأنَّ الكلام كان ممتنعًا عليه لقوله تعالى في الآية التي قبلها: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا﴾[1].

قال الرازي: والأشبه بالآية وهو أن يعرفهم ذلك إمّا بالإشارة أو برمز مخصوص لقوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾[2].

والرمز لا يكون كتابة للكلام[3].

٢- المعنى الشرعي:

عرَّفه العلماء بتعريفات كثيرة ومنهم من أسهبَ، فقال: «الوحيُ هو أن يُعْلِمَ اللّه من اصطفاهُ من عباده كل ما أرادَ اطلاعه عليه من ألوانِ الهداية، والعلم، ولكن بطريقة سرية خفية غير معتادة للبشر».

وعرَّفه الشيخ محمد عبده: «بأنّه عرفان يجده الشخص من نفسه على اليقين بأنّه من قبل اللّه بواسطة أو غير واسطة، والأول بصوت يتمثل لسمعه أو بغير صوت، ويفرق بينه وبين الإلهام، أن الإلهام وجدان تستيقينه النفس فتنساق إلى ما يطلبُ على غير شعور منها من أين أتى وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور».

ومنهم الموجز في تعريفه بقوله: «كلام اللّه المنزل على نبي من أنبيائه».

كل هذه التعريفات لم تَخْلُ من مقال ونقد. وأفضل التعريفات وأحسنها ما قاله ابن حجر في فتح الباري: «الوحي هو الإعلام بالشرع» أو «إعلام

---

(١) مريم: ١٠ .
(٢) آل عمران: ٤١ .
(٣) انظر التفسير الكبير (٢١/ ١٩٠).

الله لنبي من أنبيائه بحكم شرعي ونحوه»[1]، أو ما روي عن الزهري حين سئلَ عن الوحي فقال:

«الوحي ما يوحي الله إلى نبي من الأنبياء فيثبته في قلبه فيتكلم به ويكتبه وهو كلام الله»[2].

* * *

(١) فتح الباري (١/ ٩).

(٢) انظر الإتقان في علوم القرآن مبحث الوحي (١/ ١٤).

المبحث الثاني

مراتب الوحي إلى النبي ﷺ

ومظهر النبي مع تلك المراتب[١]

قال ابن القيم: «وكل[٢] الله تعالى النبي ﷺ من الوحي مراتب عديدة نذكر من هذه المراتب:

أوَّلها: الرؤيا الصادقة «فكان لا يرى الرؤيا إلّا جاءت مثل فلق الصبح»، واستدل السهيلي وغيره على أنَّ الرؤيا من الوحي بقول إبراهيم عليه السلام ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾ فدلّ على أنَّ الوحي يأتيهم منامًا كما يأتيهم يقظة، وبرواية ابن إسحاق أن جبريل أتى النبي ﷺ ليلة النبوة وغطه ثلاثًا وقرأ عليه أول سورة اقرأ، ثم أتاهُ وفعل معه يقظة، وفي الصحيح عن عبيد بن عمير: «رؤيا الأنبياء وحي وقرأ ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ. . .﴾[٣] الآية.

ثانيها: ما كان يلقيه الملكُ في روعِه من غير أن يراه، من ذلك ما روى عن النبي ﷺ : **«أنَّ روح القدس نفث في روعي، أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله واجملوا في الطلبِ، ولا يحملن أحدكم استبطاء الرزق أن يطلبه بمعصية الله، فإنَّ الله تعالى لا ينالُ ماعنده إلاَّ بطاعتهِ»**[٤].

---

(١) هذا بحث جديد كتبه الأستاذ الدكتور إبراهيم خليفة عن الوحي وقد أوجزناه بتصرف.

(٢) وكَّلَ الله له أي أعطاه.

(٣) الصافات: ١٠٢ .

(٤) رواهُ ابن أبي الدنيا في كتابه القناعة والحاكم، وصححه من طرق، ورواه ابن ماجه والطبراني، وروح القدس: جبريل، ونفث في روعي: ألقى في قلبي أو خلدي أو عقلي، ومعنى أجملوا في الطلب، أي: اطلبوه بطرق الحلال بلا كد ولا حرص ولا تهافت على الحرام.

ثالثها: خطاب المَلَك حين كان يتمثلُ له المَلَك رجلًا فيخاطبه، حتى يعي عنه ما يقول له.

فقد ثبتَ أن جبريل كان يأتيه في صورة دَحية الكلبي[1]، كما أخبرَ النبي ﷺ : «**وأحيانًا يتمثلُ لي الملكُ رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول**». زاد أبو عوانة: «وهو أهونه عليه».

وفي الصحيح روي عمر بن الخطاب نزول جبريل بهيئة رجل، فعنه ﷺ قال: «بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلعَ علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ ، وأسندَ ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمد أخبرني عن الإسلام، الحديث. . . يقولُ عمر: ثم انطلق، فلبثتُ مليًا، ثم قال ﷺ : «**يا عمرَ أتدري من السائل؟**» قلتُ: الله ورسوله أعلم، قال: «**فإنَّه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم**» رواه مسلم[2].

رابعها: أن يأتيه جبريل في مثل صلصلة الجرس، وكان أشده عليه، وكان ﷺ إذا نزل عليه الوحي سُمِعَ عنده دويٌّ كدويّ النحل، فسماع الدوي بالنسبة للحاضرينَ كما شبهه به عمر بن الخطاب، والصلصلَة بالنسبة إليه كما شبهه به ﷺ بالنسبة إلى مقامه، فقد كان شديدًا على نفسه حتى أنَّ جبينه ليتفَصَّد عَرَقًا في اليوم الشديد البرد، وحتى إن راحلته لتبرُك به في الأرض[3].

---

(١) دحية بفتح الدال وكسرها لغتان مشهورتان، وهو بلسان أهل اليمن رئيس الجند ابن خليفة بن فضالة بن فروة الكلبي، شهد المشاهد كلها بعد بدر، وكان دحية جميلًا وسيمًا، وكان إذا قدمَ لتجارة خرجت الظعنُ لتراه. تقريب التهذيب ص٢٠٠ .

(٢) مسلم في صحيحه. كتاب الإيمان. باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان (١/ ٣٦) ح١ .

(٣) رواهُ البيهقي في الدلائل في حديث عائشة بلفظ «وإن كان ليوحى إليه وهو على رأس ناقته فتضرب جرانها من ثقل ما يوحى إليه.

وقد جاءه الوحي مرة كذلك وفخذِه على فخذ زيد بن ثابت فثقلت عليه كادت ترضُها.

الخامسة: أن يرى النبي ﷺ الملَكَ جبريل في صورته التي خلق عليها، له ستمائة جناح فيوحي إليه ما شاء الله أن يوحيه، وهذا ما وقع له مرتين.

إحداهما: في الأرض حين سأله أن يريه نفسه فرآهُ في الأفق الأعلى، قال الحافظ ابن كثير: «كانت والنبي بغار حراء أوائل البعثة بعد فترة الوحي»[1].

والثانية: عند سدرة المنتهى في ليلة الإسراء والمعراج.

هذه أشهر المراتب، وهناك مراتب أخرى مختلف فيها، لا نطيلُ الحديث بذكرها مكتفينَ بما ذكرناهُ لك من المشهور.

* * *

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٢٦٥).

استدراك: وتحته مطالب

المطلب الأول

هل الوحي إلى أمِّ موسى، حقيقة شرعية، أو لغوية؟

درج الكتاب في علوم القرآن الكريم على تعريف معنى الوحي لغة واصطلاحًا، وجعلوا من معاني الوحي لغة الإلهام الفطري للإنسان السليم الفطرة، واستدلوا على ذلك بالآية الكريمة: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[1]، وقد أيَّد ذلك الراغب الأصفهاني[2]، ونحا نحوه الإمام البيضاوي[3]، والحافظ ابن كثير[4]، وغيرهم، كما سار على هذا النهج من بعض طائفة من الكاتبين في علوم القرآن من أهل هذا العصر، حيث قالوا إن الوحي إلى أمِّ موسى هو الإلهامُ الفطري وهو إلى النحلِ الإلهامُ الغريزي[5].

وذهب آخرون -قدامى ومحدثون- منهم الأستاذ الدكتور إبراهيم خليفة إلى أن الوحي هنا بمعناهُ الشرعي، وناقش ورد على القائلين بأنَّ الوحي هنا بمعناهُ اللغوي هو الإلهام الفطري، فقال: إنَّ هذا الرأي غير صحيح، وإلَّا فمن أين لفطرةٍ كائن من كان اعتقاد جازم بأنَّ فلانًا سيكون من المرسلين، حتى يتصور ارتكاز مثل هذا الاعتقاد في فطرة أم موسى بالنسبة لولدها عليه السلام حسبما نطقت به الآية الكريمة من سورة القصص: ﴿وَلَا

---

(١) القصص: ٧.

(٢) المفردات ص ٥١٦.

(٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٢/ ١٨٧).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٣٩٧).

(٥) انظر: مباحث في علوم القرآن، صبحي الصالح، ص٥٧. علوم القرآن، لعدنان زرزور، ص٥٥. مباحث في علوم القرآن، للقصبي محمد زلط، ص٢٩.

تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[1].

هكذا وعلى هذا النحو المؤكد بإن واسمية الجملة ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ هذه واحدة.

وثانية لا تدنو عن أختها دلالة وهي تعبيره تعالى عن هاتين البشارتين بالوعد في قوله الكريم: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[2].

فمن أين يصلح أن يقال لمجرد الإلهام أو حتى لرؤيا منام رآها غير نبي كأم موسى، مهما تكن درجة رائيها من الصلاح والورع، من أين يصلح أن يقال لشيء من هذا أو ذاك [وعد].

فمن ثم استظهرَ كل من أبي حيّان[3]، والألوسي[4]، أن يكونَ الوحي إلى أمّ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ هو من طريق ملك أرسله الله إليها.

ولعلّ الذي حمل هؤلاء وأولئك من قدامى ومحدثين القائلين بدعوى الإلهام الفطري في حسابنا ما هو إلّا من خشيتهم أن يظن بأم موسى النبوّة، مع إجماع المسلمين وغيرهم على عدم نبوتها بل مع إجماع المسلمين على أنّ من شروط النبوة الذكورة، إنطلاقًا من نحو قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيْهِمْۚ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[5]. ولكن من أين يقتضي إرسال الملك إلى أحد ضرورة نبوته، أفلا يرونَ إلى إرساله تعالى جبريل إلى مريم حين تمثل لها بشرًا سويًا، وكلمها بما ذكرَ من قصتها في كتابه الكريم.

لذا قال بعض المفسرين: إنّ الله تعالى أرسل إلى أم موسى ملكًا ولا

---

(١) القصص: ٧ .

(٢) القصص: ١٣ .

(٣) انظر تفسير البحر المحيط (٧/ ١٠٥).

(٤) انظر: روح المعاني (٢٠/ ٤٥).

(٥) النحل: ٤٣ .

يستبعد أيضًا أن يكون هذا الوحي إليها كان عن طريق نبي في زمانها لم يقص علينا القرآن الكريم قصته، وأي ذلكَ قد كان مما اللّه أعلم به، فليس لما قاله أهل دعوي الإلهام، ومثلهم أهل دعوى رؤية المنام وجه ألبته فتنبه[(١)].

المطلب الثاني

حقيقة حالات الوحي..

كما درج العلماء في تقسيم حالات الوحي إلى ثلاث[(٢)]، ومستدلين على ذلك بالآية الكريمة ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾[(٣)]، والحق يقال إنَّ الاستدلال على حالات الوحي بهذه الآية الكريمة فيه نظر، إذ إن الآية لا تحدد حالات الوحي وأقسامه، وإنما تتحدث على أنَّ اللّه سبحانه لا يكلم أحدًا إلَّا بإحدى ثلاث: إمَّا وحيًا، أو من وراء حجاب، أو يرسلَ رسولًا، فالوحي على هذا شق يمثل الشق الأول من الآية، والآية لا تمثل كما هو مفهوم حالات الوحي الثلاث التي يتحدثونَ بها.

وقد فطن إلى المنهج الحق في هذا الموضوع الإمام ابن القيم الجوزية حين راح يتحدث عن مراتب الوحي إلى النبي ﷺ، ومظهر النبي ﷺ مع تلك المراتب، فقال: «وكل[(٤)] اللّه تعالى النبي ﷺ من الوحي مراتب عديدة:

الأولى: الرؤيا الصادقة، وكانت مبدأ وحيه ﷺ، وكان لا يرى رؤيا إلَّا جاءت مثل فلق الصبح.

---

(١) منة المنان في علوم القرآن (٢/ ١٥١، ١٥٣).

(٢) مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني (١/ ٥)، مباحث في علوم القرآن لمناع خليل القطان، ص٣٧ . مباحث في علوم القرآن، للقصبي محمود زلط ص٣١ . علوم القرآن، لعدنان زرزور، ص٥٦ .

(٣) الشورى: ٥١ .

(٤) وكل اللّه: أي أعطاه.

الثانية: ما كان يلقيه الملك في روعه وقلبه من غيرِ أن يراهُ، كما قال النبي ﷺ: «إنَّ روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا اللّه وأجملوا في الطلب، ولا يحملنكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعصية اللّه، فإنَّ ما عند اللّه لا ينالُ إلَّا بطاعته»(١).

الثالثة: أنَّه ﷺ كان يتمثل له الملك رجلًا، فيخاطبه حتى يعي عنه ما يقول به، وفي هذه المرتبة كان يراه الصحابة أحيانًا(٢).

الرابعة: أنَّه كان يأتيه في مثل صلصلة الجرس، وكأنَّه أشده عليه، فيتلبس به الملك حتى إنَّ جبينه ليتفصد عرقًا في اليوم الشديد البرد(٣)، وحتى إن راحلته لتبرك به إلى الأرض إذا كان راكبها(٤). ولقد جاءه الوحي مرة كذلك، وفخذه على فخذ زيد بن ثابت، فثقلت عليه حتى كادت ترضاها(٥).

الخامسة: أنَّه يرى الملك في صورتِهِ التي خلق عليها، فيوحي إليه ما شاء اللّه أن يوحيه، وهذا وقع له مرتين، كما ذكر اللّه ذلك في سورة النجم(٦).

السادسة: ما أوحاه اللّه وهو فوق السموات ليلة المعراج من فرض الصلاة وغيرها.

السابعة: كلام اللّه له منه إليه بلا وسطة ملك، كما كلم اللّه موسى بن عمران. . .(٧).

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في كتابه القناعة والحاكم، وصححه من طرق، ورواهُ ابن ماجه، والطبراني. انظر حلية الأولياء (١٠/ ٢٦، ٢٧). سنن ابن ماجه ح٢١٤٤، والحاكم (٢/ ٤، ٤/ ٣٢٥).

(٢) صحيح مسلم. كتاب الإيمان. باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان (١/ ٣٦).

(٣) صحيح البخاري. في بدء الوحي.

(٤) مسند الإمام أحمد (٦/ ١١٨)، والحاكم في صحيحه (٢/ ٥٠٥)، ووافقه الذهبي.

(٥) صحيح البخاري. كتاب التفسير. باب قوله تعالى: ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين﴾ الآية.

(٦) وهي قوله تعالى: ﴿وهو بالأفق الأعلى﴾ الآية ٧، وقوله: ﴿ولقد رآه نزلة أخرى﴾ الآية ١٣.

(٧) زاد المعاد في هدي خير العباد (١/ ٧٨ - ٨٠).

المطلب الثالث

التدليل على حقيقة الوحي

انبهرَ بعض العلماء بمظاهر الحضارة الغربية، وبالتقدم العلمي فراح يدلل على الحقائق الغيبية بما برز من علوم واكتشافات علمية، وهو بذلك يحاول أن يرسخ أو يدلل بالحقائق العلمية القضايا الغيبية.

فعلى سبيل المثال: التدليل على الوحي -كحقيقة غيبية- بالتنويم المغناطيسي.

ولعل أقدم ما اطلعت عليه في هذا الصدد كتاب مناهل العرفان في علوم القرآن للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني حيث قال: [اعلم أنَّ أعداء الوحي ومنكريه لا يؤمنونَ بالشرعِ وأدلة الشرع. إنما يؤمنونَ بالعقل على الطريقة التي يستسيغونها، وبالعلمِ الذي تواضعوا عليه في اصطلاحهم الحديث، وهو جملة المعارف اليقينية التي أنتجها دستور البحث الجديد في الوجود وكائناته، من جعل الشك أساسًا للبحث، والاستناد إلى القاطع الذي يؤيده الحس دون سواه، فهم يقدمونَ الشك ويمعنون فيه، ثم لا يعترفون إلَّا بالحسيّات، ولا يحفلون بمجرد العقليات. ومن هنا سجنوا أنفسهم في سجن المادة، ومكثوا حينًا من الدهرِ ينكرونَ ما وراء المادة، ويسرفونَ في الشكوك إلى أبعد الحدود، ويستخفون بأمر الإلهيات والنبوات والوحي إلى مدى بعيد لم تصل إليه أظلم عهود الجاهلية، لولا أن صدمهم العلم نفسه صدمة عنيفة غيرت رأيهم في إنكار ما وراء المادة كما يأتي إن شاء الله. وإنما نبدأ هنا بأدلة الوحي العلمية؛ لأنَّها في الواقع أدلة لإمكان الوحي وتقريبه إلى العقول. وإمكان الوحي هو الخطوة الأولى في الموضوع، وهو ملحوظ في المقدمة الأساسية من مقدمات الدليل العقلي الآتي، فلا غرو أن يكون لتلك الأدلة العلمية مكان الصدارة والتقديم.

الدليل الأول: التنويم الصناعي، أو التنويم المغناطيسي، وهو من المقررات العلمية الثابتة. كشفه الدكتور «مسمر» الألماني في القرن الثامن عشر، وجاهد هو وأتباعه مدى قرن كامل من الزمان في سبيل إثباته وحمل العلماء على الاعتراف به وقد نجحوا في ذلك.

فاعترف العلماء به علميًا؛ بعدَ أن اختبروا به الآلاف المؤلفة من الخلق واطمأنوا إلى تجاربه.

وأخيرًا أثبتوا بوساطته ما يأتي:

١- أن للإنسان عقلًا باطنًا أرقى من عقله المعتاد كثيرًا.

٢- أنَّه وهو في حالة التنويم يري ويسمع من بعد شاسع، ويقرأ من وراء حجب، ويخبر عمّا سيحدث، مما لا يوجد في عالم الحس أقل علامة لحدوثه.

٣- أنَّ للتنويم درجات بعضها فوق بعض يزداد العقل الباطن سموًا بتنقله فيها.

٤- أنَّه قد يصل إلى درجة تخرج فيها روح الوسيط من جسده؛ وتمثل إلى جانبه غير مرئية، بينما يكون الجسم في حالة تشبه الموت، لولا علاقة خفية بين الروح والجسم.

٥- أثبتوا من وراء ذلك أنَّه هناك روحًا.

٦- أنَّ الروح مستقلة عن الجسم كل الاستقلال.

٧- أنَّ الروح لا تنحل بانحلاله.

٨- أنَّها تتصل بالأرواح التي سبقتها إذا تجرّدت عن المادة، إلى غير ذلك مما لا نسلم جميع تفاصيله تقليدًا، وإن كنا نسلم هذا العلم وتجاربه، ومقرراته في الجملة، لثبوت الدليل بها في الجملة -أيضًا- بواسطة التجارب العديدة والمشاهدات الكثيرة. وله في الغرب أنصار من علماء وطلاب، وله دور وكتب، وله مستشفيات يؤمها الناس للتداوي به.

وليس من هدفنا أن نتوسع لك في هذا العلم وتاريخه وتجاربه وفوائده، ولكنا نريد أن نتقدم إليك بفكرة مجملة عنه، تريك إلى أي حد أظهر الله في هذا العصر آيات باهرات على أيدي الطبيعيين الذين ينكرونَ ما وراء المادة ويسرفون في الإنكار، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل يثبتون ما وراء المادة ويسرفون في الإثبات. تحقيقًا لقوله سبحانه ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾(١).

وإننا نضع بين يديك هنا تجربة واحدة من تجارب التنويم، تقرب إليك الوحي كل التقريب، وهذه التجربة رأيتها بعيني، وسمعتها بأذني، بنادي جمعية الشبان المسلمين، على مرأى ومسمع من جمهور مثقف كبير، حضر ليشهد محاضرة مهمة في التنويم المغناطيسي وإثبات أنَّه يمكن أن يتخذ سلاحًا مسمومًا لتغيير عقيدة الشخص ودينه، كما تسفل إلى ذلك بعض المبشرين، إذ فتن بهذا العدوان الخبيث شابًا من خيرة الشبان المسلمين حول سنة ١٣٥١ هـ في حادثة مشهورة مروعة، وما هي منكم ببعيد.

قام المحاضر، وهو أستاذ في التنويم المغناطيسي، وأحضرَ الوسيط وهو فتى فيه استعداد خاص للتأثر بالأستاذ، والأستاذ فيه استعداد خاص للتأثير على الوسيط، فالأول ضعيف النفس، والثاني قويها. وللضعف والقوة وجوه ليس هذا موضع بيانها، نظر الأستاذ في عين الوسيط نظرات عميقة نافذة، وأجرى عليه حركات يسمونها سحبات فما هي إلَّا لحظة حتى رأينا الوسيط يغط غطيط النائم، وقد امتقعَ لونه، وهمد جسمه، وفقد إحساسه المعتاد، حتى لقد كان أحدنا يخزه بالإبرة وخزات عدة، ويخزه كذلك ثاني وثالث، فلا يبدي الوسيط حراكًا، ولا يظهرُ أي عرض لشعوره وإحساسه بها. وحينئذ تأكدنا أنَّه قد نام ذلك النوم الصناعي أو المغناطيسي.

---

(١) فصلت: ٥٣.

وهناك تسلط الأستاذ على الوسيط يسأله: ما اسمك؟ فأجابه باسمه الحقيقي. فقال الأستاذ: ليس هذا هو اسمك، إنما اسمك كذا (وافترى عليه اسمًا آخر) ثم أخذَ يقرر في نفس الوسيط هذا الاسم الجديد الكاذب، ويمحو منه أثر الاسم القديم الصادق، بوساطة أغاليط يلقنها إيّاهُ في صورة الأدلة، وبكلام يوجهه إليه في صيغة الأمر والنهي. وهكذا أملى عليه هذه الأكذوبة إملاءً، وفرضها عليه فرضًا، حتى خضعَ لها الوسيط وأذعنَ! .

ثم أخذَ الأستاذ وأخذنا نناديه باسمه الحقيقي المرة بعد الأخرى في فترات متقطعة، وفي أثناء الحديث على حين غفلة، كل ذلك وهو لا يجيب. ثم نناديه كذلك باسمه المصنوع فيجيبه، دون تردد، ولا تلعثم. ثم أمرَ الأستاذ وسيطه أن يتذكرَ دائمًا أنَّ هذا الاسم الجديد هو اسمه الصحيح حتى إلى ما بعد نصف ساعة من صحوهِ ويقظته، ثم أيقظه وأخذ يتم محاضرته ونحن نفجأ الوسيط بالاسم الحقيقي فلا يجيب، ثم نفجؤه باسمه الثاني فيجيب، حتى إذا مضى نصف الساعة المضروب عاد الوسيط إلى حاله الأولى من العلم باسمه الحقيقي.

وبهذه النتيجة أثبتَ الأستاذ أنَّ المنوِّم «بكسر الواو» يستطيع أن يمحو من نفس وسيطه كل أثر يريد محوه، مهما كان ثابتًا في النفس، كاسم الإنسان عينه، ومهما كان مقدسًا فيها كعقائد الدين.

وإنما اختارَ الأستاذ محو الاسم دون الدين لأمرين:

أحدهما: أن محو الدين عدوان أثيم، وإجرام شنيع، لم تقبله نفسية المحاضر ولا الحاضرين.

ثانيهما: أن الاسم أثبت في نفس صاحبه من دينه، فمحوه منها أعجب، ومنه تعلم أنَّ محو الدين منها أيسر! .

وبهذه التجربة -أيضًا - ثبتَ لي أنا من طريق علمي، ما قرب إلى

الوحي عمليًا، وما جعلني أعلله تعليلًا علميًا: فالوحي «عن طريق الملك» عبارة عن اتصال الملك بالرسول اتصالًا يؤثر الأول في الثاني، ويتأثر فيه الثاني بالأول، وذلك باستعداد خاص في كليهما، فالأول فيه قوة الإلقاء والتأثير، لأنّه روحاني محض، والثاني فيه قابلية التلقي عن هذا الملك لصفاء روحانيته، وطهارة نفسه المناسبة لطهارة الملك، وعند تسلط الملك على الرسول ينسلخ الرسول عن حالته العادية، ويظهر أثر التغير عليه، ويستغرق في الأخذ والتلقي عن الملك، ويتطبعُ ما تلقاه في نفسه، حتى إذا انجلى عنه الوحي وعاد إلى حالتهِ الأولى، وجد ما تلقاه ماثلًا في نفسهِ، حاضرًا في قلبه، كأنما كتب في صحيفة فؤادِه كتابًا.

أتظنُّ -أيها القارئ الكريم- أنَّ المخلوق يستطيع أن يؤثر في نفس مخلوق آخر ذلك التأثير بواسطة التنويم المغناطيسي، ثم لا يستطيع مالك القوى والقدر أن يؤثر في نفس من شاء من عباده بواسطة الوحي؟ كلَّا ثم كلَّا، إنّه علي ما يشاء قدير(١).

ولم يرتض هذا النهج صبحي الصالح في كتابة «مباحث في علوم القرآن الكريم» فقال: «وحاولنا ألّا نقرّب حقائق الغيب العليا بما يعرفه الناس عن التنويم المغناطيسي وتسجيل الأصوات على الأشرطة وإذاعتها أو نقلها عن طريق الهاتف واللاسلكي، وظننا أن لا جدوى من هذه الأشياء وأنّها ليس هي طريق الإيمان(٢)».

ومثل قوله ما قاله عدنان زرزور: «وهل نحن بحاجة إلى ضرب الأمثلة والشواهد من عالم البشر المادي والمحسوس على شرحِ حقيقة الوحي، وبيانِ إمكانية وقوعه. إنَّ الأمر هنا ليجل عن هذا وذاك، والقرآن الذي نتلوه الآن شاهد صدق على مصدره، كما أنَّ الأدلة على صدقِ هذه

---

(١) (٥٦/١ - ٥٩).

(٢) ص٤٧، ٤٨ .

الظاهرة أكثر من أن تحصى[1]».

ونضيفُ إلى قولهم: إنَّ الدليلَ على حقيقة الوحي شرعي لا عقلي، لأنه من الأمور الغيبية التي لا يقعُ عليها الحس، والذين يدللونَ على الوحي بالأدلة العقلية -ولو بحسن نية- إنما هم واهمونَ ومخطئون، فإنَّ للعقل دائرته التي لا يتعداها فهو يسلمنا إلى حقيقة وجود الخالق ويرشدنا إليه فإذا ما أسلمنا إلى هذه الحقيقة فقد هدانا إلى الإيمان الذي من مقتضياته التسليم بما أخبرنا من أدلة قطعية، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ﴾[3]. وقال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾[4].

ويكفي دلالةً على حقيقة الوحي إعجاز القرآن الذي أثبتَ عقلًا أنَّه منزل من اللَّه على رسوله، وإن من آياتِه المعجزةَ ما دلنا على الوحي ومصدره، والنازلُ به والمنزل عليه، والكيفية والحالة التي نزل بها. أمَّا التدليل على حقيقة الوحي بالأدلة العلمية لتقريبه للعقل فهو مجاف للصواب.

* * *

---

(١) علوم القرآن ص٥٩ .
(٢) النساء: ١٦٣ .
(٣) الشورى: ٥٢ .
(٤) النجم: ٣، ٤ .

الفصل الثالث
نزول القرآن

المبحـــث الأول: نزول القرآن منجمًا.

المبحث الثـــاني: أول ما نزل من القرآن وآخره.

المبحث الثـــالث: المكي والمدني.

المبحث الرابـــع: نزوله على سبعة أحرف.

المبحث الخامس: القراءات القرآنية.

المبحث السادس: أسباب النزول.

المبحث الأول

نزول القرآن منجما

هذا الباب المهم ينبثق عنه فصول ومباحث هي لب علوم القرآن، كنزول القرآن منجمًا وأول وآخر ما نزل منه، وأسباب النزول، ونزوله بالأحرف والقراءات، ومن قبلُ نزوله بالوحي ونزوله من السموات، وغيرها، وأبدأ بالحديث عن معنى النزول والمقصود منه.

معنى نزول القرآن:

نزل القرآن حقيقة، وماهية هذا النزول لا نعلمُ منها إلَّا ما أخبرنا عنها العزيز الحكيم في قرآنه الكريم، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾[1] قال ابنُ عباس رضي الله عنهما: «أنزل القرآن في ليلة القدر جملة واحدة من الذكرِ الذي عند ربِّ العزة حتى وضع في بيت العزة في السماء الدنيا، ثم جعل جبريل ينزل على محمد بحراء بجواب كلام العباد وأعمالهم»[2]. والنزول لا يعني أنَّ هناك تغيرًا لحق المُنزل في القدرِ أو المنزلةِ، فالعظيم أو الكريم ينزل المكان ولا تتغير منزلته وقدره، لأنَّ التمايز في القدرِ قد يكونُ بين اثنين أو شيئين في موضع واحد، وليس بالضرورة أن يكون أحدهما في مكان أعلى من الآخر.

ونقولُ هذا لننفي أي شبهة يمكن أن تلحق القرآن بعد أن نزله العليّ القدير على عبده محمد ﷺ؛ لأنَ القرآن عَليٌّ في الأرض، وعَليٌّ في السماء، وعلي أينما كان، ومعنى ذلك أننا لسنا مضطرينَ لننفي عن القرآن شبهة تغير قدره بنزوله، فنقولُ إنَّ نزوله إعلام، وليس نزولًا حقيقيًا. فالنزول حقيقي على الوجه الذي يليق بالقرآن من غير تكييف ولا تمثيل.

---

(١) القدر: ١.

(٢) الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي (٦/ ٦٢٨)

وقد ورد في الحديث الصحيح الذي رواهُ الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول اللَّه ﷺ قال: «**ينزلُ ربّنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلثُ الليل الآخر فيقولُ: من يدعوني فأستجيبُ له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفرُ له**»[1] قال الإمامُ النووي: «هذا الحديث من أحاديث الصفات. وفيه مذهبان مشهوران للعلماء... ومختصرهما أن أحدهما وهو مذهب جمهور السلف وبعضُ المتكلمين أنَّه يؤمن بأنَّها حق على ما يليق باللَّه تعالى، وأنَّ ظاهرها المتعارف في حقنا غير مراد، ولا يتكلم في تأويلها مع اعتقادِ تنزيه اللَّه تعالى عن صفات المخلوق[2]. وقال سماحة الشيخ ابن باز في تعليقه على شرح ابن حجر لصحيح البخاري: «والصوابُ ما قاله السلف الصالح من الإيمان بالنزول وإمرار النصوص كما وردت من إثبات النزول للَّه سبحانه على الوجهِ الذي يليقُ به من غيرِ تكييف ولا تمثيل كسائر صفاتِه»[3].

كيفية نزول القرآن وحكمة تنجيمه:

نزل الوحي بالقرآن الكريم على رسوله ﷺ بعضه في أثر بعض، وأرسلَ على مواقع النجوم رسلًا في الشهورِ والأعوام، كما يقولُ ابن عباس: «وقد تتابع نزول القرآن ثلاثة وعشرين عامًا تقريبًا منها ثلاث عشرة سنة في مكة، وعشر سنوات في المدينة، وكان نزوله مفرقًا كما نطق بذلكَ القرآن الكريم في أكثر من سورة وآية. ففي سورة الإسراء: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾[4]، وغيرها من الآيات.

١- ولا شك في أنَّ نزول القرآن منجمًا تثبيتًا لقلبه ﷺ فتبقى الغبطة

---

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني (٣/ ٢٩). صحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها. باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل والإجابة فيه ح١٦٨.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي (٦/ ٣٦).

(٣) فتح الباري (٣/ ٢٩) حاشية.

(٤) الإسراء ١٠٦

تشرح صدره، ويزداد سروره، كلمّا تجدد لقاؤه بالوحي الإلهي، وهذا واضح وجلي من حزنه ﷺ مرة أو مرات حين تأخر عنه الوحي، فأقسم له مولاه ليطمئنه أنّه ما ودعه ربه وما قلاه: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾(1).

إنّ نزول الوحي مرة ومرات على فترات يقوي من عزمه، وفيه مزيد العناية والرعاية والتسلية للرسول ﷺ مما يلقاه من هول ومصاعب تتعب نفسه، وهذا واضح وجلي في نزول القصص القرآني، القصة تلو القصة، ليأخذ منها العظة والعبرة، وإن شأنه مع أمته هو شأن الرسل عليهم السلام مع أممهم: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ. . .﴾(2)، ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾(3).

٢- من حكمة تنجيمه في النزول تسهيل حفظه وامتثال أوامره ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا﴾(4) على تمهل وتؤدة، فيسهل حفظه لنزوله شيئًا فشيئًا، ووفق طريقة الصحابة الذين كانوا يتعلمون العلم والعمل معًا فهم يحفظونَ ويتعلمونَ ويعملونَ قولًا وعملًا.

٣- لقد تكون المجتمع الإسلامي الأول عبر المراحل الزمنية المتابعة والمتعاقبة حسب الوقائع والأحداث والظروف التي كان يمر بها بين الحين والحين، ولم يتم هذا طفرة واحدة، وهذه سنن المجتمعات التي تقوم على غير طراز سبق.

فالمجتمع الإسلامي لم يتم تكوينه وتأسيسه بين عشية وضحاها، وإنما بدأ وتطوّر واستوى على سوقه عبر السنوات والأعوام، فقد بدأ بتأسيس العقيدة وكرائم الأخلاق، ثم شرعَ بالتشريع والأحكام في العبادات

---

(١) الضحى: ١ - ٣ .
(٢) هود: ١٢٠ .
(٣) الأحقاف: ٣٥ .
(٤) الإسراء: ١٠٦ .

والمعاملات، ثم بيان الأحكام الدولية بعد تأسيس الدولة، كل هذا يتطلب مراحل زمنية متعاقبة تنزل فيها الآيات تبعًا للأحداث والوقائع المستجدة لكل مرحلة من المراحل، وبذلك بنى المجتمع لبنة لبنة. ولنضرب لذلك مثلًا في تحريم اللَّه تعالى للخمر عبر المراحل الزمنية المتعاقبة.

فإنَّ الخمرَ كانت أعجب شراب لدى العرب وهي عند مدمنيها عادة مكينة صعبة الترك، وقد حاولت أمريكا من عشرات السنوات تحريم الخمر بتشريع واحد حاسم فعجزت، وأصبح تهريبها إلى عشاقها حرفة رائجة لعشرات العصابات، فعادَ البرلمان الأمريكي إلى إلغاء الحظر السابق وإباحة الخمر لجمهور السكارى.

واللَّه -عز وجل- أحكم من أن يفطم عباده عن هذه الآفة بكلمة واحدة، فشرع لهم ما يبعدهم عن الشراب المحرم رويدًا رويدًا، حتى إذا تمهد الجو للصراحة الكاملة، والعقاب الشديد، أعلنَ الحكم الذي سبق الإيماء إليه، فاعتبرت الخمر رجسًا، واعتبر شاربوها مجرمين، يضربونَ بالعصي وبالنعالِ. . . !!

والآيات التي نزلت في صدد هذا التحريم هي: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾(1).

وهذا بداية تؤذن بالخطر، فالقاعدة أن ما غلب شره خيره ترك، والشرائع العامة والخاصة تقوم على هذا الأساس. ونفع الميسر أن كسبه كان يرمى للفقراء، ونفعُ الخمر يجيء من الإتجارِ فيها، أو من النشوةِ الموقوتةِ التي تعقب تناولها. . .

بيد أنَّ هذه المنافعُ خفيفة الوزن إذا قورنت بالأضرار والآثام التي

---

(1) البقرة: 219 .

تصحب السكر والقمار... ثم بعد ذلك قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾[١].

وهذه سياسة عملية واسعة المدى في تحريم الخمرِ، فإنَّ الصلاة في الإسلام تكتنفُ الليل والنهار، ومعنى اليقظة التامة عند قربانها أنَّ الذينَ ما زالوا يستهينونَ بالشراب سوف يكفونَ عنه أغلب يومهم، كالذي تعود تدخين ثلاث علب من السجائر إذا فرض عليه أسلوب من الحرمان يباعد بينه وبين شهوته، فإنَّ عدد ما يحرقه قد يهبط من ستين سيجارة إلى عشر أو ست.

وعندما تبلغ الإرادة هذا الحد من القدرة والتسامي، فإنَّ القرار الأخير بالحرمان يجيء في إبانة المناسب، وفي أحسن الظروف لتنفيذه، ومن ثم لم يمض كبير وقت حتي نزل النص الأخير: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾[٢].

وبعد مجيء هذا الإرشاد القاطع شقت بواطي الخمر، وكسرت دنانها، ورمي بها في طرق المدينة، وعلى هذا النحو حرم الربا عبر مراحل زمنية متعاقبة ما كانت لتتم لو نزل القرآن دفعة واحدة كما تقول عائشة: «إنما نزل أول ما نزل سورة من المفصل، منها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام، نزل الحلالُ والحرام، ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندع الخمر، ولو نزل: لا

---

(١) النساء: ٤٣.
(٢) المائدة: ٩٠ - ٩١.

تزنوا، لقالوا: لا ندعُ الزنا أبدًا»[1].

٤- من الحكمِ البالغة في نزول القرآن منجمًا الدلالة على الإعجاز القرآني وإثبات مصدره.

استدراك: وتحته ثلاثة مطالب

المطلب الأول

هل للقرآن نزول آخر غير المعروف على النبي ﷺ؟

الحديث عن نزول القرآن حديث مهم، فهو لب علوم القرآن، والذي تنبثق عنه علوم كثيرة، كنزول القرآن منجمًا، وأول ما نزل وآخر ما نزل منه، وأسباب النزول، ونزوله بالأحرف والقراءات، ومن قبل نزوله بالوحي، ونزوله من السموات، وغيرها.

وفي هذا المقامُ يتبادر إلى ذهننا السؤال التالي:

هل للقرآن نزول آخر غير المعروف على النبي ﷺ ؟

لايرتابُ مسلم في أنَّ القرآن الكريم قد أنزل على محمد ﷺ منجمًا، كما نطق بذلك القرآن الكريم في أكثر من سورة وآية.

ففي سورة الإسراء: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾[2].

ومع ذلك فقد رأى بعضُ العلماء القول أنَّ للقرآن نزولًا آخر، قال الزركشي: «اختلفَ العلماء في كيفية نزول القرآن على ثلاثة أقوال».

١- أنَّه نزل إلى السماء الدنيا ليلة القدرِ جملةً واحدةً، ثم نزل منجمًا في ثلاث وعشرين سنة.

٢- أنَّه نزل إلى السماء الدنيا في ثلاث وعشرين ليلة قدرٍ في ثلاث

---

(١) نظرات في القرآن ص٢٣٠، ٢٣١، انظر صحيح البخاري (٦/ ١٠١) باب تأليف القرآن.

(٢) الإسراء: ١٠٦ .

وعشرين سنة.

٣- أنّه ابتدأ إنزاله في ليلة القدر ثم نزل بعد ذلك منجمًا في أوقات مختلفة في سائر الأوقات.

وذهب الزركشي إلى القول الأول، وقال إنّه الأشهر والأصح وإليه ذهب الأكثرون[١]، واستدلوا على ذلك بقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾[٢] وفي سورة الدخان: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾[٣]، وفي سورة القدر: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾[٤].

فقد دلت الآيات الثلاث أن القرآن أنزل في ليلة تسمّى ليلة القدر من شهر رمضان، وقد سأل سائل ابن عباس فقال له: إنَّ هذه الآيات أوقعت في قلبه الشك، فكيف ينزل القرآن في ليلة القدر، وهذا أنزل في «شوال» وفي «ذي القعدة» وفي «ذي الحجة» وفي كل الشهور...

فقال ابنُ عباس: «إنّه أنزل في رمضان في ليلة القدر جملة واحدة، ثم أنزل على مواقع النجوم رسلًا في الشهور والأيام». يريدُ أنزل في رمضان في ليلة القدرِ جملة واحدة، ثم أنزل مفرقًا يتلو بعضه بعضًا على تؤده ورفق، وذكر السيوطي عن ابن عباس عدة روايات أخرى تفيدُ نزول القرآن جملة إلى السماء الدنيا[٥]، فهو حديث ورد عنه من طرق متعددة يقوي بعضها بعضًا. وهو وإن كان موقوفًا على ابن عباس إلّا أنّه له حكم المرفوع إلى النبي ﷺ لما هو مقرر من أنَّ قول الصحابي فيما لا مجال للرأي فيه إذا لم يكن معروفًا بالأخذِ عن الإسرائيليات حكمه حكم

(١) البرهان في علوم القرآن (١/ ٢٨٨).
(٢) البقرة: ١٨٥.
(٣) الدخان: ٣.
(٤) القدر: ١.
(٥) الإتقان في علوم القرآن (١/ ١١٦ - ١١٩).

المرفوع إلى النبي ﷺ ولا ريب أنَّ نزول القرآن في بيت العزة من أنباء الغيب التي لا تعرف إلّا من المعصوم.

أمّا حكمة إنزال القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا قبل إنزاله مفرقًا على النبي ﷺ فهي أن إنزاله مرتين على وجهين مختلفين، مرة جملة واحدة. ومرة أخرى مفرقًا فيه من الاحتفال به والعناية بشأنه ما ليس في إنزالهِ مرة واحدة علي وجه واحد، ولا شك أنَّ في المزيد من العناية به تعظيمًا لشأنه وشأن من نزل عليه، ثم إنَّ وضعه في مكان يسمّى ببيت العزة يدل على إعزازه وتكريمه، ومن لوازم هذا تكريم المنزل عليه، وتفخيم شأنه، هذا شيء يمكن أن يقال في حكمة إنزله جملة. ثم إنزاله مفرقًا والله تعالى هو العليم بحقيقةِ السر في ذلك.

وقد ذهبَ إلى هذا الرأي كثير من الأقدمين والمحدثين منهم الشيخ الزرقاني[١] والشيخ محمد أبو شهبة ونص عبارته: «ومعلوم: أنَّ هذا لا يقوله -ابن عباس- بمحض الرأي، فهو محمول على سماعِه من النبي ﷺ أو ممن سمعه من النبي من الصحابة، ومثل هذا له حكم المرفوع، لأنَّ القاعدة عند أئمة الحديث: أنَّ قول الصحابي الذي لم يأخذ عن الإسرائيليات فيما لا مجال للرأي فيه له حكم الرفع، وبذلك ثبتت حجية هذه الآثار»[٢].

هذا الرأي لم يلق استحسانًا عند بعض العلماء كالشيخ محمد عبده والأستاذ الدكتور إبراهيم خليفة رئيس قسم التفسير بالأزهر.

أمّا الإمام محمد عبده فقال في تفسير جزء عم: «إنَّ ما جاء من الآثار الدالة على نزوله جملة واحدة إلى بيت العزة في السماء الدنيا، مما لا يصح معه الاعتمادُ عليه، لعدمِ تواتر خبره عن النبي ﷺ وأنّه لا يجوزُ

(١) مناهل العرفان (١/ ٤٥).

(٢) المدخل لدراسة القرآن الكريم ص٥١

الأخذ بالظن في عقيدة مثل هذه، وإلّا كان اتباعًا للظنّ»[1].

أمّا الأستاذ الدكتور إبراهيم خليفة، فقال:

«أقول أقصى وأعظم ما استمسك به أصحاب هذا القول هو الآثار التي مدار الأمرُ فيها جميعًا على ابن عباس رضي الله عنهما ، وأنَّ حق هذه الآثار أن تعطي حكم المرفوع إلى النبي ﷺ ونحنُ لا ننازعهم أولًا في ثبوت هذه الآثار عن ابن عباس رضي الله عنهما ، ولا ننازعهم ثانيًا في توفر أحد الشرطين بالفعل هنا وِهو كونُ قول الصحابي في أمر ليس للرأي فيه مدخل، فإنَّ تعيين **مكان بالذاتِ في السماءِ**، وتسميته ببيت العزة هو حقًا أمر من أمور الغيبِ **التي لا يمكن أن تدرك مثلها بالرأي**، ولكنا ننازعهم في توفر ثاني الشرطينِ اللذينِ لابد منهما مجتمعين لإعطاء قول الصحابي حكم المرفوع، وهو كون الصحابي لم يعرف بالأخذ من الإسرائيليات حتى يكون لقوله صلة مما لدى بني إسرائيل.

ولكنّا لا نسلّمُ أنَّ ابن عباس لم يعرف بالأخذِ من الإسرائيليات بالرغم من نهيه الصريح من الأخذِ بها.

أخرج البخاري عنه في كتاب الشهادات قال: «يا معشر المسلمين، كيف تسألونَ أهل الكتاب وكتابكم الذي نزل على نبيهِ ﷺ أحدث الأخبار باللّه تقرءونه لم يشب؟ وقد حدثكم اللّه أنَّ أهل الكتاب بدلوا ما كتب اللّه، وغيرّوا بأيديهم الكتاب، فقالوا: هو من عند اللّه ليشتروا به ثمنا قليلًا، أفلا ينهاكم بعد ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم؟ ولا واللّه ما رأينا منهم رجلًا قط يسألكم عن الذي أنزلَ عليكم»[2].

فإنّه رضي الله عنه وعلى الرغم من نهيه الصريح هذا، فقد ثبت عنه الأخذ عن بني إسرائيل، إمّا من منطلق الأمان على نفسه ما لم يأمنه على غيره، وإمّا

(١) تفسير جزء عم محمد عبده ص١٣٦ .

(٢) صحيح البخاري. كتاب الشهادات، باب لا يسأل أهل الشرك عن الشهادة وغيرها.

ثقة منه أنَّ ما أخذه عنهم مما لا يخفي حاله على من تدبر أمره، وإمَّا رؤية منه أن ما أخذه عنهم لا يتنافى مع شيء مما جاء في الكتاب والسنة، سواء أخطأ في هذه الرؤية أم أصاب، ودليلنا على أنه ﷺ قد ثبتَ عنه الأخذ من الإسرائيليات أمور:

أحدهما: ما ذكره غير واحد من الحفاظ عند ترجمتهم لكعب الأحبار الذي هو أحد رؤوس المصادر الإسرائيلية من كون ابن عباس رضي الله عنهما هو أحد الرواة عنه، وانظر في تحقيق ذلك على سبيل المثال لا الحصر «تهذيب التهذيب» للحافظ ابن حجر، ج ٨، ص٤٣٨ . و«خلاصة تهذيب الكمال في أسماء الرجال» للحافظ صفي الدين الخزرجي ص٣٢١ .

وثاني هذه الأمور: التي يتشكل منها دليلنا على ما نقول في هذه القضية المهمة روايات قد ثبتت عن ابن عباس رضي الله عنهما بالفعل، لا يشك منصف في أنَّها من الإسرائيليات، ولا نقول إنَّها من صنف الإسرائيليات الموافقة للكتاب والسنة، ولا حتى من جنس ما لا تعرف له موافقة ولا مخالفة، بل هي من جنس الإسرائيليات المرذولة المنافرة للعقل وصريح النقل، ونكتفي هاهنا بإيراد مثالين -نستسمح قارئنا العزيز الكريم العذر في تسويد الصفحات بغثاء ما جاء فيها من الرواية عنه ﷺ .

وأوَّلُ هذه المواضع، ما جاء من روايته في شأن شيطان سليمان الذي أخذ خاتمه من إحدى أزواجه، وتملك على ملكه وأقام حيث كان يقيم سليمان حتى من نسائه عليه السلام تفترى هذه الرواية، ولعله يجدر بنا الآن أن نكلك في سوق الرواية والتعقيب عليها إلى قلم الحافظ ابن كثير عليه الرحمة إذ يقول فيما يقول بعد أن ساق قصة ذلك عن غير واحد من التابعين في تفسير القول الكريم من سورة ص : ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾(١) .

---

(١) ص ٣٤

وهذه كلها من الإسرائليات، ومِنْ أنكَرِها ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾[1] قال أراد سليمان عليه الصلاة والسلام أن يدخل الخلاء، فأعطى الجرادة خاتمه، وكانت الجرادة امرأته وكانت أحب نسائه إليه، فجاء الشيطان في صوّرة سليمان فقال لها: هات خاتمي، فأعطته إيّاه، فلمَّا لبسه دانت له الإنس والجن، والشياطين، فلمَّا خرج سليمان عليه السلام من الخلاء، وقال لها هات خاتمي، قالت: قد أعطيته سليمان، قال أنا سليمان، قالت: كذبتَ ما أنتَ سليمان، فجعل لا يأتي أحدًا يقول له أنا سليمان إلَّا كذَّبه حتى جعل الصبيان يرمونه بالحجارة، فلمَّا رأى ذلك سليمان عرف أنَّه من أمر اللَّه عز وجل، قال: وقام الشيطان يحكم بين الناس، فلمَّا أرادَ اللَّه تبارك وتعالى أن يرد على سليمان سلطانه، ألقى في قلوب الناس إنكار ذلك الشيطان، قال: فأرسلوا إلى نساء سليمان فقالوا لهن: أتنكرونَ من سليمان شيئًا، قلن: نعم إنَّه يأتينا ونحنُ حيض، . . . . إلخ[2].

أمَّا المثال الثاني: فأورده ابن كثير أيضًا في تفسيره[3] ما جاء عنه في شأن الملكين والمرأة التي مسخت فكانت كوكب الزهرة، روي عن ابن عباس من قصة طويلة. أنَّ هاروتَ وماروتَ هبطا إلى الأرض، وجعل لهما شهوات بني آدم، وأمرهما أن يعبداه ولا يشركا به شيئًا، ونهيا عن قتل النفس الحرام، وأكل المال الحرام، وعن الزنا والسرقة وشرب الخمر، فلبثا في الأرض زمانًا يحكمان بين الناس بالحق، وذلك في زمن إدريس عليه السلام ، وفي ذلك الزمان امرأة حسنها في النساء كحسن الزهرة في سائر الكراكب، وأنَّهما أتيا عليها، فخضعا لها في القول، وراوداها

(١) ص: ٣٤ .
(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٩).
(٣) المرجع السابق (٤/ ١٤٤).

على نفسها، فأبت إلّا أن يكونا على أمرها وعلى دينها، فسألاها عن دينها فأخرجت لهما صنمًا فقالت: هذا أعبده، فقالا: لا حاجة لنا في عبادة هذا، فذهبا فغبرا ما شاء ثم أتيا عليها، فراوداها على نفسها، فلمّا رأت أنّهما أبيا أن يعبدا الصنم، قالت لهما: اختارا إحدى الخلال الثلاث: إما أن تعبدا هذا الصنم، وإمّا أن تقتلا هذه النفس، وإمّا أن تشربا هذه الخمر.

فقالا: كل هذا لا ينبغي، وأهونُ هذا شرب الخمر، فشربا فأخذت فيهما فواقعا المرأة، فخشيا أن يخبر الإنسان عنهما فقتلاه، فلمّا ذهب عنهما السكرُ، وعلما ما وقعا فيه من الخطيئة، أرادَ أن يصعدا إلى السماء فلم يستطيعا، وحيل بينهما وبين ذلك، وكشف الغطاء فيما بينهما وبين أهل السماء، فنظرت الملائكة إلى ما وقعا فيه، فعجبوا كل العجب، وعرفوا أنّه من كان في غيب فهو أقل خشية، فجعلوا بعد ذلكَ يستغفرونَ لمن في الأرض فنزل في ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾(١). فقيل لهما: اختارا عذاب الدنيا أو عذاب الآخرة، فقالا: أمّا عذاب الدنيا فإنّه ينقطعُ ويذهبُ، وأمّا عذاب الآخرة فلا انقطاع له، فاختارا عذاب الدنيا، فجعلا ببابل فهما يعذبان، وقد رواه الحاكم في مستدركه مطولًا، ثم قال صحيح الإسناد لم يخرجاه(٢).

إنَّ هذه الروايات قد ثبتت عن ابن عباس كما قال ابن كثير، وهي تدل على أخذه بالإسرائيليات كما بينّا، لذا ترد هذه الرواية -نزول القرآن إلى السماء الدنيا دفعة واحدة- ولا تعطي حكم المرفوع إلى النبي ﷺ لأنَّ من شروطهِ أن يكونَ مما لا مجال للرأي فيه وأن يكونَ الصحابي ممن لم

(١) الشورى: ٥ .
(٢) المستدرك على الصحيحين للحاكم (٢/ ٤٤٢)

يأخذ بالإسرائيليات فيما له صلة بالرواية فقط، فإن لم يكن للإسرائيليات صلة فتقبل الرواية[1].

وبهذه يكون القول الراجح في كيفية نزول القرآن: أنَّ القرآن الكريم قد ابتدأ إنزاله في ليلة القدرِ ثم نزلَ بعد ذلك منجمًا على مدار السنوات على رسول اللَّه ﷺ واللَّه أعلم.

المطلب الثاني

هل ترتيبُ السور القرآنية في المصحف العثماني ترتيب توقيفي أم اجتهادي؟

في ترتيب السور ثلاثة آراء:

١- ترتيب جميع السور توقيفي، ويستدلُ أصحابُ هذا الرأي بقصة معارضة جبريل القرآن على النبي ﷺ وهذا يعني أنَّ جبريل كان يقرأ القرآن مرتبًا بسوره وآياتِه.

وأقوى أدلة هذا الفريق هو إجماعُ الصحابة رضوان اللَّه عليهم على المصحف العثماني وحرقهم لجميع المصاحف المختلفة الترتيب في السور.

٢- ترتيب جميع السور اجتهادي ويستدلون على ذلك باختلافِ مصاحف الصحابة في ترتيب السور، ولو كان الترتيبُ توقيفيًا لما اختلفوا، وكذلك ما روي عن عثمان رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ قبض ولم يبين للصحابة أمر سورتي الأنفال وبراءة، وكانت الأنفال من أول ما نزل في القرآن وكانت براءة من آخر ما نزل، ولما ترك النبي ﷺ البيان قال عثمان: كانت قصتها شبيهة بقصتها، فظننت أنَّها منها، فمن أجل ذلك قرنت بينها ولم أكتب «بسم اللَّه الرحمن الرحيم» ووضعتها في السبعِ الطوال، فهذه

---

(١) منة المنان في علوم القرآن (١/ ٧٢).

القصة تدل على أنَّ ترتيب السور كان أمرًا اجتهاديًا.

٣- ترتيب بعض السور توقيفي وبعضها الآخر اجتهادي. وقد وصفَ الزرقاني هذا القول بأنّه أمثل الآراء وإليه ذهبَ فطاحل العلماء(١).

وأصحابُ هذا الرأي وإن اتفقوا على هذا التقسيم إلّا أنّهم اختلفوا في مقدار التوقيفي والاجتهادي.

وعلى أية حال فإنَّ الذي لا مجال للشك فيه أنَّ كتابة القرآن بترتيبه المعروف في السور والآيات قد اجتمعت عليه الأمة منذ الجمع الأول والثاني وحتى عصرنا الحاضر.

لذا نميلُ إلى الرأي الأول؛ لأنَّ إجماعَ الصحابة وإقرارهم كاف للدلالة على توقيف ترتيب السور ولا نعلمُ عنهم خلافًا فكفى بذلك دليلًا وبرهانًا والله أعلم.

المطلب الثالث

هل القرآن مرتب في سوره وآياتِه ترتيبًا نزوليًا أم لا؟

إنَّ الحديث عن الترتيب الزمني للنزول حديث قديم، هو من أصعب الأمور تعقيدًا، فمنذ عهد عثمان ﷺ وهذا الموضوع موضع أخذ ورد، فقد ساق السيوطي رواية عن علي بن أبي طالب ﷺ أنّه رتَّب مصحفه حسب النزول، فقام عثمان وأمره بحرقه، وساق رواية أخرى عن التابعين، فقد روى أنَّ محمد بن سيرين سأل عكرمة عن جمع القرآن وترتيبِ القرآن حسب نزوله، قال: فقلت لعكرمة: ألفوه كما أنزل، الأول فالأول، قال: لو اجتمعت الإنس والجن على أن يؤلفوه ذلك الترتيب ما استطاعوا(٢).

---

(١) مناهل العرفان (١/ ٢٨٧).

(٢) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (١/ ٢٠٤).

فالأمرُ صعب المنال، وقد جزم صاحب الظلال بتعذر ذلك فقال: إنَّ الترتيب الزمني للنزول لا يمكن القطع فيه بشيء، ولا يكادُ الإنسان يجد فيه شيئًا مستيقنًا إلَّا في آيات معدودات تتوافر بشأنها الروايات[1].

ويمضي صاحب الظلال قائلًا: «وعلى كل ما في محاولة تتبع آيات القرآن وسوره وفق الترتيب الزمني للنزول من قيمة. ومن مساعدة على تصور منهج الحركة الإسلامية ومراحلها وخطواتها، فإنَّ قلة اليقين في هذا الترتيب تجعل الأمرُ شاقًا، كما أنها تجعل النتائج التي توصل إليها تقريبية ظنية، وليست نهائية يقينية. . . وقد تترتب على هذه النتائج الظنية التقريبية نتائج أخرى خطيرة، ثم قال إن ترتيب القرآن وفق النزول لا سبيل اليوم فيه إلى اليقين[2].

وقد قام الشيخ محمد عزة دروزة بترتيب تفسيره القرآني الموسوم بالتفسير الحديث ترتيبًا زمنيًا حسب نزول القرآن، فبدأ بتفسير سورة اقرأ ثم سورة ن والقلم، ثم المزمل، ثم المدثر، ثم انتهى من السور المكية، وبدأ بالسور المدنية حتى نهايتها.

وقد أثارَ تفسيره ثائرة العلماء حتى اضطرَّ إلى استفتاء[3] الشيخ عبد الفتاح أبو غدة فأفتى بجواز الأمرِ، لأنَّ هذا ليس ترتيبًا قرآنيًا لآيات القرآن بل هو ترتيب تفسيري لآيات القرآن، وقد أحب صاحبه أن يتتبع التفسير القرآني حسب تاريخ النزول والذي يعين كثيرًا في فهم الأحداث القرآنية، كما يعينُ في المراحل الزمنية للدعوة الإسلامية، وقد سبق للمؤلف أن تتبع سيرة الرسول ﷺ من خلال الآيات القرآنية عبر مراحلها الزمنية، وقد أفاد سيد قطب من الدراسة وإن لم يسلم الأستاذ دروزة من نقده.

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب (٣/ ١٤٢٩).
(٢) المرجع السابق.
(٣) انظر مقدمة اتجاهات التفسير في العصر الراهن.

وعلى الرغمِ من نهج دروزة هذا النهج المتميز في التفسير إلّا أنّه ينقصه كثير من تحرير بعض المواضع في ترتيبها النزولي، ولم يقف موقف الناقد البصير لهذا الترتيب، وقد غرّه السيوطي؛ ومن سبقه. في هذا الترتيب الخاطئ ولم يحسن الفهم للآثار التي ساقوها.

إن ما دعاني للكتابة هو تسليم كثير من المؤلفين لهذا الترتيب الخاطئ وقد دونوا أخطاءهم في المصاحف، ففي بداية السور تراهم يكتبون أنَّ هذه السور نزلت بعد سورة كذا، ويعتبرون الآثار المروية قضايا مسلمة وقد يكون الأمر على خلاف ذلك، ولقد راعني ما قرأتُ من أنَّ سورة محمد قد نزلت قبل الأنفال، ووجدت قولًا مخالفًا وهو أنَّ سورة الأنفال نزلت قبل سورة محمد، ولا شك أنَّ أحد القولين خاطئ، وقد استعرضتُ الآثار فعرفتُ مكمن الخطأ.

لذا استعنتُ باللّه راجيًا عونه وتوفيقه.

فأبدأ أولًا بذكرِ الآثار الواردة في هذا الموضوع، ثم مناقشتها سندًا ومتنًا. ثم إقامة الدليل والبرهان على مخالفة هذه الآثار لما هو أقوى منها مثبتًا عكس دعواها من خلال مناقشة أمثلة صحيحة وواضحة وضوح الشمس في رابعة النهار، ثم الانتهاء إلى النتائج المهمة في هذا المجال.

أولاً: الآثار الموهمة للترتيب الزمني لنزول السور القرآنية وفيه ما ورد معطوفًا بحرف الواو.

قال ابن سعد في الطبقات: أنبأنا الواقدي، حدثني قدامة بن موسى، عن أبي سلمة الحضرمي، سمعتُ ابن عباس قال: سألتُ أبيَّ بن كعب عمّا نزل من القرآن بالمدينة؟ فقال: نزل بها سبعُ وعشرونَ سورة، وسائرها بمكة.

وقال أبو جعفر النحاس في كتابه الناسخ والمنسوخ: حدثني يموت بن المزارع، حدثنا أبو حاتم سهل بن محمد السجستاني، أنبأنا أبو عبيدة

معمر بن المثنى، حدثنا يونس بن حبيب، سمعتُ أبا عمرو بن العلاء يقولُ: سألتُ مجاهدًا عن تخليص آي القرآن، المدني من المكي، فقال: سألتُ ابن عباس عن ذلك، فقال: سورةُ الأنعام نزلت بمكة جملة واحدة فهي مكية، إلَّا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة: (قل تعالوا أتل. . .) إلى تمامِ الآيات الثلاث. وما تقدّم من السور مدنيات.

ونزلت بمكة سورة الأعراف ويونس وهود ويوسف والرعد وإبراهيم والحج والنحل سوى ثلاث آيات من آخرها فإنَّهن نزلت بين مكة والمدينة في منصرفة من أحد. وسورة بني إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء والحج. سوى ثلاث آيات (هذان خصمان) إلى تمام الآيات الثلاث، فإنَّهن نزلت بالمدينة. وسورة المؤمنون والفرقان والشعراء. سوى خمس آيات من آخرها نزلت بالمدينة: (والشعراء يتبعهم الغاوون. . .) إلى آخرها.

وسورة النحل والقصص والعنكبوت والروم ولقمان سوى ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة: (ولو أنَّ ما في الأرض من شجرة أقلام. . .) إلى تمام الآيات، وسورة السجدة، سوى ثلاث آيات: (أفمن كان مؤمنًا كمن فاسقًا) إلى تمام الآيات الثلاث.

وسورة سبأ وفاطر ويس والصافات وص والزمر، سوى ثلاث آيات نزلت بالمدينة في وحشي قاتل حمزة: (قل يا عبادي الذين أسرفوا. . .) إلى تمام الثلاث آيات والحواميم السبع وق والذاريات والطور والنجم والقمر والرحمن والواقعة، والصف، والتغابن إلَّا آيات من أخرها نزلت بالمدينة: والملك ون والحاقة وسأل نوح والجن والمزمل إلَّا آيتين: (إنَّ ربك يعلمُ أنَّك تقوم) والمدثر إلى آخر القرآن إلَّا إذا زلزلت، وإذا جاء نصرُ الله، وقل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس فإنَّهن مدنيات.

ونزل بالمدينة سورة الأنفال وبراءة والنور والأحزاب وسورة محمد والفتح والحجرات والحديد وما بعدها إلى التحريم. هكذا أخرجه بطوله، وإسناده جيد، رجاله كلهم ثقات من علماء العربية المشهورين[(١)].

وقال البيهقي في دلائل النبوّة: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرنا أبو محمد بن زياد العدل، حدثنا محمد بن إسحاق، حدثنا يعقوب بن إبراهيم الدورقي حدثنا أحمد بن نصر بن مالك الخزاعي، حدثنا علي بن الحسين بن واقد عن أبيه، حدثني يزيد النحوي، عن عكرمة والحسن بن أبي الحسن قالا: أنزل الله من القرآن بمكة: اقرأ باسم ربك، ون، والمزمل، والمدثر، وتبت يدا أبي لهب، وإذا الشمس كورت، وسبح اسم ربك الأعلى، والليل إذا يغشى، والفجر، والضحى، وألم نشرح، والعصر، والعاديات، والكوثر، وألهاكم التكاثر، وأرأيت، وقل يا أيُّها الكافرون، وأصحاب الفيل، والفلق، وقل أعوذ برب الناس، وقل هو الله أحد، والنجم، وإنَّا أنزلناه، والشمس وضحاها، والسماء ذات البروج، والتين والزيتون، ولإيلاف قريش، والقارعة، ولا أقسمُ بيوم القيامة، والهمزة، والمرسلات، وق، ولا أقسمُ بهذا البلد، والسماء والطارق، وأقتربت الساعة، وص، والجن، ويس، والفرقان، والملائكة، وطه، والواقعة، طسم، وطس، وطسم، وبني إسرائيل، والتاسعة، وهود، ويوسف، وأصحاب الحجر، والأنعام، والصافات، ولقمان، وسبأ، والزمر، وحم المؤمن، وحم الدخان، وحم السجدة، والطور، وتبارك، والحاقة، وسأل، وعم يتسالون، والنازعات، وإذا السماء انشقت، وإذا السماء انفطرت، والروم، والعنكبوت.

وما نزل بالمدينة: ويل للمطففين، والبقرة، وآل عمران، والأنفال، والأحزاب، والمائدة، والممتحنة، والنساء، وإذا زلزلت، والحديد،

---

(١) انظر الإتقان ص١٢، ١٣، وكتاب الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم للنحاس

ومحمد، والرعد، والرحمن، وهل أتى على الإنسان، والطلاق، ولم يكن، والحشر، وإذا جاء نصرُ اللّه، والنور، والحج، والمنافقون، والمجادلة، والحجرات، ويا أيُها النبي، لم تحرم، والصف والجمعة، والتغابن، والفتح، وبراءة.

قال البيهقي:

والتاسعة، يريد بها سورة يونس. قال: وقد سقط من هذه الرواية: الفاتحة، والأعراف، وكهيعص، فيما نزل بمكة[١].

قال أبو عبيد في فضائل القرآن:

حدثنا عبد اللّه بن صالح ومعاوية بن صالح، عن ابن أبي طلحة، قال: نزلت بالمدينة سورة البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنفال، والتوبة، والحج، والنور، والأحزاب، والذين كفروا، والفتح، والحديد، والمجادلة، والحشر، والممتحنة، والحواريين، يريد الصف، والتغابن، ويا أيها النبيٰ إذا طلقتم النساء، ويا أيها النبي لم تحرم، والفجر، والليل، وإنّا أنزلناه في ليلة القدر، ولم يكن، وإذا زلزلت، وإذا جاء نصرُ اللّه، وسائر ذلك بمكة.

وقال أبو بكر بن الأنباري:

حدثنا إسماعيل بن إسحاق القاضي، حدثنا حجاج بن منهال، نبأنا هشام عن قتادة، قال: نزل في المدينة من القرآن: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، وبراءة، والرعد، والنحل، والحج، والنور، والأحزاب، ومحمد، والفتح، والحجرات، والحديد، والرحمن، والمجادلة، والحشر، والممتحنة، والصف، والجمعة، والمنافقون، والتغابن، والطلاق، ويا أيها النبي لم تحرم، إلى رأس العشر، وإذا زلزلت، وإذا جاء نصرُ اللّه، وسائر القرآن بمكة. وقال أبو الحسن بن

(١) دلائل النبوة (٧/ ١٤٢).

الحصار في كتابه الناسخ والمنسوخ: المدني باتفاق عشرون سورة، والمختلف فيه اثنتا عشرة سورة، وما ذلك مكي بالاتفاق.

ثم نظم في ذلك أبياتًا من الشعر. ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في النوع السابع الذي عقده في هذا الكتاب للحديث عن أول ما نزل من القرآن تحت عنوان.

فرع:

أخرج الواحدي عن طريق الحسين بن واقد، قال: سمعتُ على بن الحسين يقول: أول سورة نزلت بمكة (اقرأ باسم ربك) وآخر سورة نزلت بها (المؤمنون) ويقال (العنكبوت).

وأول سورة نزلت بالمدينة (ويل للمطففين) وآخر سورة نزلت بها (براءة) وأول سورة أعلنها رسول اللّه ﷺ بمكة (النجم).

وفي شرح البخاري لابن حجر: اتفقوا على أنَّ سورة البقرة أول سورة أنزلت بالمدينة. وفي دعوى الاتفاق نظر لقول على بن الحسين المذكور.

وفي تفسير النسفي عن الواقدي: أنَّ أول سورة نزلت بالمدينة سورة (القدر)[1].

ثانيًا: الآثار المفيدة لترتيب نزول السور القرآن على التراخي:

وردت هذه الآثار معطوفًا بعضها على بعض بالحرف «ثم» الذي يفيد الترتيب المتراخي. وقال ابن الضريس في فضائل القرآن: حدثنا محمد بن عبد اللّه بن أبي جعفر الرازي، أنبأنا عمرو بن هارون، حدثنا عثمان بن عطاء الخرساني، عن أبيه، عن ابن عباس، قال: كانت إذا نزلت فاتحة سورة بمكة كتبت بمكة، ثم يزيد اللّه فيها ما يشاء، وكان أول ما أنزل من القرآن: اقرأ باسم ربك، ثم ن ثم يا أيها المزمل، ثم يا أيها المدثر، ثم تبت يدا أبي لهب، ثم إذا الشمس كورت، ثم سبّح اسم ربك الأعلى، ثم

(١) الإتقان للسيوطي (ص١٢، ١٣ .

والليل إذا يغشى، ثم والفجر، ثم والضحى، ثم ألم نشرح، ثم والعصر، ثم والعاديات، ثم إنا أعطيناك، ثم ألهاكم التكاثر، ثم أرأيت الذي يكذب، ثم قل يا أيها الكافرون، ثم ألم تر كيف فعل ربك، ثم قل أعوذ برب الفلق، ثم قل أعوذُ برب الناس، ثم قل هو اللّه أحد، ثم النجم، ثم عبس، ثم إنا أنزلناهُ في ليلة القدر، ثم والشمس وضحاها، ثم والسماء ذات البروج، ثم والتين، ثم لإيلاف قريش، ثم القارعة، ثم لا أقسم بيوم القيامة، ثم ويل لكل همزة، ثم والمرسلات، ثم ق، ثم لا أقسم بهذا البلد، ثم والسماء والطارق، ثم اقتربت الساعة، ثم ص، ثم الأعراف، ثم قل أوحي، ثم يس، ثم الفرقان، ثم الملائكة، ثم كهيعص، ثم طه، ثم الواقعة، ثم طسم الشعراء، ثم طس، ثم القصص، ثم بني إسرائيل، ثم يونس، ثم هود، ثم يوسف، ثم الحجر، ثم الأنعام، ثم الصافات، ثم لقمان، ثم سبأ، ثم الزمر، ثم جم المؤمن، ثم حم السجدة، ثم حم عسق، ثم حم الزخزف، ثم الدخان، ثم الجاثية، ثم الأحقاف، ثم الذاريات، ثم الغاشية، ثم الكهف، ثم النحل، ثم إنا أرسلنا نوحًا، ثم سورة إبراهيم، ثم الأنبياء، ثم المؤمنون، ثم تنزيل السجدة، ثم الطور، ثم تبارك الملك، ثم الحاقة، ثم سأل، ثم عمّ يتساءلون، ثم النازعات، ثم إذا السماء انفطرت، ثم إذا السماء انشقت، ثم الروم، ثم العنكبوت، ثم ويل للمطففين، فهذا أنزل بمكة.

ثم أنزل بالمدينة: سورة البقرة، ثم الأنفال، ثم آل عمران، ثم الأحزاب، ثم الممتحنة، ثم النساء، ثم إذا زلزلت، ثم الحديد، ثم القتال، ثم الرعد، ثم الرحمن، ثم الإنسان، ثم الطلاق، ثم لم يكن، ثم الحشر، ثم إذا جاء نصر اللّه، ثم النور، ثم الحج، ثم المنافقون، ثم المجادلة، ثم الحجرات، ثم التحريم، ثم الجمعة، ثم التغابن، ثم

الصف، ثم الفتح، ثم المائدة، ثم براءة[1].

الأثر الثاني: من الآثار الواردة بإفادة الترتيب النزول المتراخي بالحرف ثم:

وقال أبو بكر محمد بن الحارث بن أبيض في جزئه المشهور: حدثنا أبو العباس عبيد اللّه بن محمد بن أعين البغدادي، حدثنا حسان بن إبراهيم الكرماني، حدثنا أمية الأزدي، عن ابن زيد، قال: أول ما أنزل اللّه من القرآن بمكة: اقرأ باسم ربك، ثم ن والقلم، ثم يا أيها المزمل، ثم يا أيُها المدثر، ثم الفاتحة. . .، وهذه الآثار التي ساقها السيوطي وقد استوفاها واستقصاها ولم يفته أثر ولا خبر في إفادة ترتيب النزول بالحرف «ثم» المفيد للترتيب المتراخي[2].

النقد الموضوعي لهذه الآثار:

سبق وأن ذكرنا الآثار الواردة وقد ذكرت بحرفين من حروف العطف وهما «الواو» و«ثم». .

١- أما الآثار الواردة بحرف الواو، فإنَّ الواو في لغة العرب لا تفيد في العطف إلَّا مطلق الجمع فلا تفيد ترتيبًا تعقيبيًا ولا ترتيبًا متراخيًا. فالآثار وإن صحت الرواية عن ابن عباس لا تفيد الترتيب لسور القرآن لا الترتيب النزولي ولا غيره «ولولا أن الترتيب المصحفي هو أمر معلوم لنا من واقع المصحف الشريف الذي أجمع عليه الصحابة رضوان اللّه عليهم ما أفدنا أي نوع من الترتيب من مثل هذه الآثار على نحو ما هو واقع المصحف الإمام الذي أجمع عليه الصحابة». على أن المدقق في هذه الآثار يلحظ فيه اضرابًا من حيث الزيادة والنقصان ومن حيث التقديم والتأخير، فقدمت ما حقه التأخير وأخرت ما حقه التقديم وما دام أمر هذه الآثار بهذه الحال

---

(١) فضائل القرآن لابن الضريس ص٣٣ .

(٢) الإتقان للسيوطي ص١٤ .

فلا يصلح أن نعول عليها في إفادة الترتيب الزمني لنزول السور القرآنية.

٢- أمّا الآثار الواردة بحرف العطف «ثم» فأثران ضعيفان كما نص على ذلك علماء الحديث: فالأثرُ الأول رواهُ ابن الضريس في فضائل القرآن وهو مروي عن ابن عباس: وفيه وهن من عدة أوجه، منها:

أ) أنَّ فيه عثمان بن عطاء الخرساني عن أبيه، وعثمان ضعيف، وعطاء الخراساني وإن كان صدوقًا إلَّا أنَّه يخطئ كثيرًا ويدلس. وقد عنعن في الأثر، ومعلوم أنَّ المدلس إذا عنعن لم يقبل أثره، إذ لا يغتفرُ تدليسه.

ب) أمّا الأثر الثاني فهو أثر أبي بكر محمد الحارث بن أبيض، عن جابر بن زيد من علماء التابعين بالقرآن وهو أثر ضعيف، لأنَّ فيه حسّان بن أبراهيم الكرماني، وهو صدوق يخطئ ويكثر تفرده بالمناكير، كما أنَّ في سنده أمية بن زيد الأزدي، وهو وإن كان مقبولًا ولكن شرط الحافظ ابن حجر المتابعة في الرواية، وهنا لم يتابع كما قال ابن حجر في مقدمة تقريبه.

قال الحافظ السيوطي عن هذا الأثر: «قلتُ هذا سياق غريب، وفي هذا الترتيب نظر، وهذا يدل على أنَّ هذا الأثر لم يتابع، لذا حكم علي هذه الرواية بالضعفِ فلا يحتج بها في هذا المقام(١)».

مما سبق يتضح لنا أنَّ هذه الآثار الواردة بالواو تارة و«ثم» تارة لا تفيد شيئًا في الترتيب النزولي للسور القرآنية، فحرفا العطفِ «الواو» و«ثم» هما لفظان مختلفان من حيث المعنى، فالواو تفيد معني لا تقتضيه «ثم» ولثم معنى لا تقتضيه الواو، وكلاهما لم يفيدا في الترتيب النزولي للسور، أمّا الروايات الواردة بحرف «الواو» فإنّهما وإن صحت لا تفيد الترتيب في قليل ولا كثير.

أمّا الروايات الواردة بالحرف «ثم» فإنها وإن أفادت الترتيب الزمني

---

(١) المرجع السابق.

المتراخي إلّا أنّها لم تصح سندًا، فسقط الاستدلال بها، وبعبارة موجزة لم تصح سندًا، وعلى كلا الحالين سقط الاستدلال بالروايتين «الواو وثم».

هذا وقد وردت الآثار والأخبار الصحيحة بإثبات عكس الترتيب السابق، من ذلك ما قاله ابن حجر العسقلاني: «لا يصحُّ أن يختلف اثنان في أنّ أول ما نزل هو سورة «اقرأ» ثم صدر سورة المدثر، ولو نزلت سورة «ن» وسورة المزمل قبل سورة المدثر لذكرَ ذلك، وبهذا يثبت لنا خطأ دعوى ترتيب النزول الزاعم بأنّ سورة «ن» والقلم نزلتا قبل المدثر[1].

وقد جزم ابن حجر العسقلاني وغيره بأن الأول هو سورة «اقرأ» ثم المدثر ومما يؤكد هذا المعنى أن الجو العام لكل من السورتين «اقرأ» و«المدثر» ملائم ومناسب، وينافره أتم منافره توسط سورتي القلم والمزمل بينهما. ولعل مراجعة أسباب النزول لهذه السور تريك الحقيقة الناصعة في خطأ هذا الترتيب المزعوم «اقرأ» أولًا «ن والقلم» ثانيًا، و«المزمل» ثالثًا، ثم «المدثر» رابعًا.

الآثار المترتبة على ترتيب النزول القرآني:

سبق وأن تحدثنا عن صعوبة هذا الترتيب وذلك لأمور منها:

١- تحقيق المعيار في اعتبار سورة سابقة لأخرى، هل يكون ذلك باعتبار نزول فاتحة السورة أو يكون باعتبار نزول واكتمال النجم الأخير منها، أو بنزول غالبها وهذا ما أحدث خلطًا صعب تحقيقه كالذي ورد عن عثمان في أولية الأنفال وآخرية سورة براءة.

ويبقى التساؤل قائمًا أن رسول ﷺ كان يأمر بوضع كل نجم قرآني فيلحقه في مكان ما من سورة ما فيقول: «ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا[2].

---

(١) فضائل القرآن لابن الضريس.

(٢) سنن الترمذي (٥/ ٢٧٢) ج٣٠٨٦ مختصرًا.

وقد تكتمل السورة سريعًا وقد تمتد سنوات طوالًا، من ذلك أنَّ سورة البقرة من أول سور القرآن نزولًا في المدينة ومع هذا فإنَّ آخر ما نزل من القرآن -ابتداءً من آية الربا وانتهاءً بآية الدين- قد نزلَ فيما بعدَ بل قبيل وفاة الرسول ﷺ بتسع ليال على وجه التقريب. لم يكن هذا النجم القرآني في آخر السورة بل كان ترتيبه من الآية ٢٧٨ و ٢٨٢ ، وبعده آيات كانت نزلت قبل ذلك ومع ذلك جاء ترتيبها الذكري بعد آخر نجم قرآني نازل. من أجل ذلك جزم من جزم أن ترتيب السور حسب النزول... يحفه كثير من الاحتمالات التي يصعب تحقيق القول فيها فدون ذلك خرط القتاد أو دون ذلك بلوغ الأسباب أسباب...

«وبالجملة فإنَّ ترتيب السور من حيث النزول هو أمر معاكس لمنطق الواقع والمعقول والمنقول جميعًا لسبب يسيرًا جدًا هو أنه غير كائن ولا يمكن أن يكون أصلًا».

«أمَّا معرفة الترتيب النزولي، فنكتفي بمعرفة نزول النجوم القرآنية المتفرقة في السور القرآنية، وهذا أمر يمكن التوصل إليه بمراجعة أسباب النزول أحيانًا أو معرفة الوقائع والأحداث والمناسبات التي نزلت بشأنها الآيات، أو بأخبار الصحابة الذين شاهدوا نزول الوحي السماوي على النبي ﷺ وجالسوا النبي ﷺ في شتى الأماكن والأزمان وقد تأتي الآيات القرآنية بتصريحات أو إشارات بأولوية نزول نجم وسبقه لنجم آخر بل وقع التصريح بنسخ آية لآية، من ذلك ما روى في نزول نجوم الآيات القرآنية المتعلقة بتحريم الخمر». روى الطيالسي في مسنده عن ابن عمر قال: «نزل في الخمر ثلاث آيات فأول شيء ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾[1].

ثم قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ

(١) البقرة: ٢١٩ .

﴿سُكَٰرَىٰ﴾[1].

قالوا يا رسول الله لا نشربها قرب الصلاة فسكت عنهم، ثم نزلت: ﴿إنما الخمرُ والميسرُ والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه..﴾ فقال رسول الله ﷺ : «حرمت الخمر».

وقد قام العلماء في تتبع الآيات القرآنية في الموضوع الواحد وراحوا يرتبونها حسب نزولها الزمني، مثاله آيات الجهاد في الإسلام، وآيات السلم ومراحله. والدراسات المضوعية قد عنيت بترتيب النجوم القرآنية حسب نزولها، إذ بدون هذا الترتيب يختل الفهم، ويزل الباحث، ويضربون لذلك مثالًا: كالآيات السابقة الذكر في موضوع الخمر.

فماذا يمكن أن يقال لو عكسنا الآيات حسب ترتيبها النزولي... لا شك أننا سنخرج بنتيجة عكسية ألا وهي حل الخمر في أوقات الصلاة.

٢- إن مراعاة ترتيب النجوم في الموضوع الواحد على جانب عظيم من الأهمية. قد عرف له الصحابة أنفسهم رضوان الله عليهم فرط أهميته وجليل خطره فنطقوا به صراحة في الاستدلال على دعوى نسخ ما في بعض السور المتأخرة نزولًا لبعض ما تقدمها نزولًا، وذلك كالذي ثبت عن عبد الله بن مسعود حين اختلفوا في عدة الحامل المتوفي عنها زوجها حين تضع حملها قبل مضي أربعة أشهر وعشر. هل تنقضي عدتها بوضع الحمل، أو لابد من انتظارها أربعة أشهر وعشرًا؟.

فما كانت حجة ابن مسعود على القول بالأول إلّا لعلمِه بترتيب السور نزولًا وأن سورة الطلاق التي جاء فيها أن عدة الحامل أي مطلقًا هي بوضع الحمل متأخرة النزول عن سورة البقرة التي جاء فيها أن المتوفي عنها زوجها تتربص بنفسها أربعة أشهر وعشرًا. وذلك حين قال رضي الله عنه: [أتجعلون عليها التغليظ ولا تجعلون عليها الرخصة نزلت سورة

---

(١) النساء: ٤٣.

النساء القصرى بعد الطولى][1].

أهم النتائج:

١- الدعوة إلى تجريد القرآن من الإباطيل الزاعمة أن سورة كذا نزلت بعد سورة كذا، وقد عمدت مطابع المصاحف في المدينة المنورة -مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف- إلى تجريد المصاحف الجديدة من هذه الزيادات.

٢- إنَّ الترتيب المصحفي في التفسير القرآني هو الأمرُ المتبع عند جميع المفسرين. قديمًا وحديثًا. ولم يعدل عنه أحد من المفسرين إلَّا ما صنعه الأستاذ محمد عزة دروزه في تفسيره الموسوم «التفسير الحديث» على أنَّه أخطأ في ترتيبه النزولي فقدم ما حقه التأخير وآخر ما حقه التقديم.

٣- إنَّ ما نسبه المؤلفون إلى أعلام الصحابة والتابعين كعلي بن أبي طالب، وابن مسعود، وابن عباس، وعكرمة، وغيرهم في دعواهم ترتيب القرآن النزولي لم يصح بحال من الأحوال، إنّها دعاوي وإذا لم يقم أصحابها عليها البينات فهم أدعياء.

٤- إن ترتيب نجوم القرآن حسب النزول أمر صعب المنال ولكنه في حيز الإمكان وهو على غاية من الأهمية في التفسير الموضوعي الذي بدأ الاهتمام به في الدراسات الإسلامية والمزلة فيه خطيرة، لها أثارها السيئة ونتائجها الوخيمة في استنباط الأحكام. كما أنَّه على جانب عظيم من الأهمية لبيان حكمة الله التشريعية في البعد عن الطفرة والمفاجَأة وأخذ الناس بالسهولة واليسر المرفق. فلم ينزل تحريم الخمر والزنا مرة واحدة بل لو وقع التحريم من أول الأمر لا تزنوا ولا تشربوا الخمر لقالت العرب لا ندع الزنا ولا شرب الخمر كما ورد في الآثار، ولأجل ذلك وردت

---

(١) صحيح البخاري. كتاب التفسير، تفسير سورة الطلاق.

النجوم القرآنية يومًا بعد يوم، شهرًا بعد شهر. فشرع الله لهم ما يبعدهم عن المحرمات رويدًا حتى إذا تمهد الجو جاء الحكم الصريح الجازم في تجريم من يفعل المحرمات.

* * *

المبحث الثاني

أول ما نزل من القرآن وآخره

ليس من غرضنا في هذا البحث بيان أول ما نزل، وآخر ما نزل في موضوعات معينة، إذ إن هذا يحتاج إلى جهد عظيم، بل إلى تكاتف الجهود في إخراج مثل هذه الدراسة الجديرة بكل عناية ورعاية، وقد حاول الشيخ محمد عزة دروزة في كتابه التفسير الحديث الذي جعل محوره العناية بالتتبع التاريخي لنزول القرآن ولكنه إذ قارب من ترتيب السور نزولًا إلّا أن متابعة الآيات حسب نزولها التاريخي مازال بينه وبين ذلك بونٌ شاسعٌ.

إن مدارَ البحث في معرفة أول ما نزل وآخر ما نزل إنما هو البحث عن الرواية والنقل، ولا مجال للعقل فيه إلّا بمقدار الجمع أو الترجيح عند اختلاف النقل.

أولاً: أو ما نزل من القرآن إطلاقًا:

١- أصح الأقوال وأقواها أن أول ما نزل هو الآيات الخمس في صدر سورة العلق، كما روى ذلك الإمام البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت[١]: أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلّا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء. فكان يأتي حراء فيتحنث[٢] فيه الليالي ذوات العدد ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة رضي الله عنها فتزوده لمثلها، حتى جاءه الحق، وهو في غار حراء، فجاءه الملك فيه، فقال: اقرأ، قال رسول الله ﷺ:

---

(١) صحيح البخاري. كتاب بدء الوحي. باب كيف كان بدء الوحي، ومسلم في كتاب الإيمان. باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (١/ ١٣٩).

(٢) يتحنث: يتعبد.

«فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني[١]. حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

بهذه الآيات الخمس استهل نزول القرآن ليعلمنا أنَّ العلمَ والتعلم والكتابة بالقلم هي الوسيلة التي لا وسيلة غيرها لتبليغ هذه الرسالة في مقتبل عمرها، وقد أصبح معلومًا بَل بدهيًا أنَّ هذه الآيات الخمس هي أول ما نزل من القرآن.

الرأي الثاني:

أنَّ أوَّل ما نزل على الإطلاق: ﴿يا أيها المدثر﴾.

ويستدل أصحاب هذا الرأي بما رواه البخاري ومسلم، عن أبي سلمة ابن عبد الرحمن بن عوف، فقد رويا عنه أنَّه قال: سألتُ جابر بن عبد الله أي القرآن أنزل قبل؟ فقال: ﴿يا أيها المدثر﴾ فقلتُ: أو اقرأ.

فقال: أحدثكم ما حدثنا به رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ: **«إنِّي جاورتُ بحراء فلمَّا قضيتُ جواري نزلت فاستبطنت الوادي، فنوديت فنظرتُ أمامي وخلفي وعن يميني وشمالي، ثم نظرتُ إلى السماء فإذا هو -يعني جبريل- على العرش في الهواء، فأخذتني رجفة، فأتيتُ خديجة، فقلتُ: [دثروني] فدثروني، فأنزل الله عز وجل: ﴿يا أيها المدثر قم فأنذر﴾[٢].**

استدراك: وتحته مطالب:

المطلب الأول:

توهم في أول ما نزل من القرآن على الإطلاق:

ما أكثر الأقوال التي ناقشت الرأي القائل إنَّ المدثر أول ما نزل من

---

(١) ضمني وعصرني.

(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر ٨/ ٦٧٦، وصحيح مسلم ١/ ١٤٤.

القرآن على الإطلاق، وقد بدأ لي الوهن في بعض هذه الردود التي ردت على الزعم بأنَّ المدثر أول ما نزل، فقال السيوطي: «إنَّ السؤال كان عن نزول سورة كاملة، فبيّن جابر ﷺ أنَّ سورة المدثر نزلت بكمالها قبل نزول تمام سورة اقرأ[1]، وهذا القولُ يبطله ما ثبت في الصحيحين أنَّ سورة المدثر لم تنزل بتمامها وكمالها، بل نزلت متفرقة حتى قوله تعالى: ﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ﴾[2].

أمَّا الكرماني فردَّ على حديث جابر السالف ذكره قائلًا: إنَّ جابرًا استخرج ذلك باجتهاده وليس من روايته، فيقدم عليه ما روته عائشة.

وهذه أقوال كما رأينا لا تستند إلى دليل.

ونحنُ إذا تأملنا الأحاديث نجد أنَّ الأمرَ لا يدعو إلى الحيرة والدهشة، ذلك أنَّ الأحاديث جاءت مطلقة أحيانًا، ومقيدة أحيانًا أخرى.

جاء في صحيح البخاري في روايات ثلاث، وكلها مطلقة: الرواية الأولى عن يحيى بن موسى البلخي، قال حدثنا وكيع، عن علي بن المبارك، عن يحيى بن أبي كثير، قال: سألتُ أبا سلمةَ بن عبد الرحمن عن أول ما نزل من القرآن؟ قال: ﴿يا أيها المدثر﴾، قلتُ: يقولون: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾، فقال أبو سلمة: سألتُ جابرَ بن عبد الله ﷺ عن ذلك، قلتُ له مثل الذي قلت، فقال جابر: قال رسول الله ﷺ: جاورتُ بحراء، فلمَّا قضيتُ جواري هبطتُ فنوديتُ، فنظرتُ عن يميني، فلم أرَ شيئًا، فرفعتُ رأسي، فرأيتُ شيئًا، فأتيتُ خديجة، قلت: [دثروني، وصبوا علي ماء بارد فدثروني، وصبوا علي ماء باردًا، فنزلت: ﴿يا أيها المدثر، قم فأنذر﴾.

والرواية الثانية: عن محمد بن بشار، قال: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي وغيره -أبي أجود الطيالسي قالا: حدثنا حرب بن شداد عن يحيى

---

(1) الإتقان (1/99).

(2) المدثر: 5.

بن أبي كثير، عن أبي سلمة، عن جاب بن عبد اللّه رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ -الحديث نفسه-.

ورواه ثالثًا -قال: باب قوله: ﴿وربك فكبر﴾ حدثنا إسحاق بن منصور، حدثنا عبد الصمد، حدثنا حرب، حدثنا يحيى، قال سألتُ أبا سلمةَ: أي القرآن أنزل أول؟ فقال: ﴿يا أيها المدثر﴾، فقلتُ أنبئتُ أنَّه: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾. فقال أبو سلمة: سألتُ جابرَ بن عبد اللّه: أي القرآن أنزلِ أول؟ فقال: ﴿يا أيها المدثر﴾، فقلت نبئتُ أنَّه: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾، قال: لا أخبرك إلَّا بما قال رسول اللّه ﷺ ، قال رسول اللّه ﷺ : **«جاورتُ في حراء فلمَّا قضيتُ جواري، هبطتُ فاستبطنتُ الوادي، فنظرتُ أمامي وخلفي، وعن يميني، وعن شمالي، فإذا هو جاس على عرش بين السماء والأرض، فأتيتُ خديجة، فقلت: «دثروني، وصبوا علي ماء باردًا». وأنزل علي: ﴿يا أيها المدثر. قم فأنذر. وربك فكبر﴾»**.

رواه رابعًا، فقال: باب ﴿وثيابك فطهر﴾ حدثنا يحيى بن كثير، حدثنا الليث عن عقيل، عن ابن شهاب، وحدثني عبد اللّه بن محمد، حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر هو الزهري، فأخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن، عن جابر بن عبد اللّه رضي الله عنهما قال: سمعتُ النبي ﷺ وهو يحدث عن فترة الوحي، فقال في حديثه: **[فبينما أنا أمشي إذ سمعتُ صوتًا من السماء، فرفعتُ رأسي فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فجئوتُ منه رعبًا، فقلت: زملوني، فدثروني، فأنزل اللّه تعالى: ﴿يا أيها المدثر. قم فأنذر﴾ إلى ﴿والرجز فاهجر﴾]**.

ورواه خامسًا: فقال باب: ﴿والرجز فاهجر﴾، وحدثنا عبد اللّه بن يوسف، حدثنا الليث، عن عقيل، قال ابن شهاب: سمعتُ أبا سلمة قال: أخبرني جابر بن عبد اللّه أنَّه سمع رسول اللّه ﷺ يحدث عن فترة

الوحي: [فبينما أنا أمشي إذ سمعتُ صوتًا من السماء، فرفعتُ بصري قبلَ السماء، فإذا الملك الذي جاءني بحراء قاعد على كرسي بين السماء والأرض، فجثوتُ منه حتى هويت إلى الأرض، فجئتُ أهلي، فقلتُ: زملوني، زملوني] فأنزل الله تعالى: ﴿يا أيها المدثر. قم فأنذر﴾ إلى ﴿والرجز فاهجر﴾. قال أبو سلمة: ثم حمي الوحي وتتابع.

وقد حسم ابن حجر العسقلاني هذه المسألة حسمًا حكيمًا وموفقًا فقال: دل قوله عن «فترة الوحي» وقوله: «الملك الذي جاءني بحراء» على تأخر نزول سورة المدثر عن اقرأ، ولمّا خلت رواية يحيى بن أبي كثير عن هاتين الجملتين أشكل الأمرُ، فجزم من جزم بأن: ﴿يا أيها المدثر﴾، أول ما نزل، ورواية الزهري هذه صحيحة ترفع الإشكال(١).

ثم قال في تفسيره سورة اقرأ، ورواية الزهري عن أبي سلمة، عن جابر تدل على أنَّ المراد بالأولية في قوله أول ما نزل سورة المدثر أولية مخصوصة بما بعد فترة الوحي(٢).

وأمّا ثالث الأقوال في المسألة فيقول السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الإتقان»: «القول الثالث: سورة الفاتحة، قال في «الكشاف»: ذهب ابن عباس ومجاهد إلى أنَّ أول سورة نزلت «اقرأ» وأكثر المفسرين إلى أنَّ أول سورة نزلت فاتحة الكتاب.

قال ابن حجر: والذي ذهب إليه أكثر الأئمة هو الأول. وأمّا الذي نسبه إلى الأكثر فلم يقل به إلّا أقلُّ القليل بالنسبة إلى من قال بالأول.

حجة هذا القول ما أخرجه البيهقي في الدلائل والواحدي من طريق يونس بن كبير، عن يونس بن عمرو، عن أبيه، عن أبس ميسرة عمرو بن شرحبيل، أنَّ رسول الله ﷺ قال لخديجة: «إني إذا خلوتُ وحدي سمعتُ

---

(١) فتح الباري. لابن حجر (١/ ٢٨).

(٢) انظر المرجع السابق.

نداء، والله خشيتُ أن يكون هذا أمرًا»، فقالت: معاذ الله، ما كان الله ليفعل بك، فوالله إنك لتؤدي الأمانة، وتصل الرحم، وتصدق الحديث. فلمّا دخل أبو بكر ذكرت خديجة حديثه له، وقالت: اذهب مع محمد إلى ورقة، فانطلقا فقصا عليه، فقال: «إذا خلوت وحدي سمعت نداء خلفي: يا محمد يا محمد. فأنطلقُ هاربًا في الأفق»، فقال: لا تفعل، إذا أتاك فاثبت حتى تسمع ما يقولُ، ثم ائتني فأخبرني، فلمّا خلا ناداه: يا محمد قل: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين﴾ حتي بلغ (ولا الضالين). الحديث، هذا مرسل رجاله ثقات.

قال البيهقي: إن كان محفوظًا فيحتمل أن يكون خبرًا عن نزولها بعد ما نزلت عليه اقرأ والمدثر[1].

أمّا الحافظ ابن كثير رحمه الله فقد ساق الحديث في كتابه «البداية والنهاية» من رواية البيهقي وأبي نعيم في دلائلهما عن عمرو بن شرحبيل ثم قال: (هذا لفظ البيهقي وهو مرسل وفيه غرابة وهو كون الفاتحة أول ما نزل)[2].

أقول: كون الحديث مرسلًا أمارة كافية على ضعفهِ وعدم صلوحِه للدلالة في أمثال هذه المطالب لو استقل ولم يعارضه غيره، فكيفَ وقد عارضه غيره من حديث الشيخين السابق لك في أوائل هذا المبحث عن عائشة رضي الله عنها والقاضي بأولية نجم العلق.

وبعد: فإنّه لا يخفي عليك سقوط محاولة الجمع بينه وبين حديث الصحيحين، والتي حاولها البيهقي إذ قال في النقل الآنف لك عنه من نص السيوطي [إن كان محفوظًا فيحتملُ أن يكونَ خبرًا عن نزولها بعد ما نزلت عليه اقرأ والمدثر].

---

(١) (١/ ٩٤) وما بعدها.

(٢) (٣/ ٩) وما بعدها.

أمّا أولًا - فلأنّه إنما تتحمل مؤونة الجمع إذا صح الخبر المعارض لما هو مثله في الصحة أو أصح منه والخبر هنا ضعيف لا وزن له.

وأمّا الثانية -فلأنّ في متن هذا الخبر شاهد ضعفه بل سقوطه بالكلية، أليس فيه الزعم بخشيته ﷺ بسبب سماعه النداء إذا خلا وحده، بل بانطلاقِهِ عند سماعِهِ النداء هاربًا، وأنّه لم يثبت له إلّا بعد أن نصح له ورقة بالثبات، فكيف يصلح هذا بأي وجه من الوجوه في عقل عاقل بعد ما قد عرف الوحي وتحقق من صدقه وحقيته، وتمت له النبوه والرسالة جميعًا بنزول نجمي العلق والمدثر معًا على ما زعمَ هذا الجامع، فمن ثم كان الصواب كل الصواب في طرح مثل هذا الخبر بالكلية وراء الظهر على مثل ما فعل الإمام النووي عليه الرحمة من إهماله وعدم المبالاة به أصلًا، فقال وصدق فيما قال في شرحِهِ لمسلم: «وأمّا قول من قال من المفسرين أول ما نزل الفاتحة فبطلانه أظهر من أن يذكر»(١).

وعلى الرغم من وضوح الأمر بالنسبة لهذا القول، فإنّ البعض من أهل هذا العصر وأعنى بهذا البعض الأستاذ محمد عبده قد أقتدى الزمخشري ولنورد لك الآن قوله بتمامه على ما نقله عنه تلميذه الأخص صاحب المنار والذي لم يرَ -على خلاف عادته- موافقة قول أستاذه للصواب أو قل قد رأى بالفعل مجانبة أستاذه للصواب، فقال رَحِمَهُ اللَّهُ في أول تفسير الفاتحة: وأمّا الأستاذ الإمام فقد رجح أنّ الفاتحة أول ما نزل على الإطلاق، ولم يستثنِ قوله تعالى: ﴿اقرأ باسم ربك﴾ ونزع في الاستدلال على ذلك منزعًا غريبًا في حكمة القرآن وفقه الدين فقال ما مثاله: ومن آية ذلك: أنّ السنة الإلهية في هذا الكون سواء كان كون إيجاد أو كون تشريع، أن يظهر سبحانه الشيء مجملًا ثم يتبعه التفصيل بعد ذلك تدريجيًا، وما مثل الهدايات الإلهية إلّا مثل البذرة والشجرة العظيمة، فهي في بدايتها مادة

---

(١) الإتقان (٢/٢٠٨).

حياة تحتوي على جميع أصولها، ثم تنمو بالتدرج حتى تبسق فروعها بعد أن تعظم دوحتها ثم تجود عليك بثمرها. والفاتحة مشتملة على مجمل ما في القرآن، وكل ما فيه تفصيل للأصول التي وضعت فيها. ولستُ أعني بهذا ما يعبرونَ عنه بالإشارة ودلالة الحروف، كقولهم إن أسرار القرآن في الفاتحة، وأسرار الفاتحة في البسملة، وأسرار البسملة في الباء، وأسرار الباء في نقطتها، فإنَّ هذا لم يثبت عن النبي ﷺ وأصحابه عليهم الرضوان ولا هو معقول في نفسه، وإنما هو من مخترعات الغلاة الذينَ ذهب بهم الغلو إلى سلب القرآن خاصته وهي البيان.

بعد هذا الكلام المبهم، أخذ الإمام يفسر سورة الفاتحة إلى أن قال: إنَّ سورة الفاتحة مشتملة على ما اشتملَ عليه القرآن، فلابُدَّ أن تكون هي الأولى في النزول بمكة[1].

المطلب الثاني: في أول ما نزل مقيدًا:

يقول بعض علماء القرآن إن قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾[2] أول آية نزلت[3].

فهذا القول محمول على أول ما نزل مقيدًا بموضوع معين، وفي هذه الآية بالذات في موضوع الخمر حصرًا، فهي ليست مطلقة بل مقيدة في موضوعها، ومثل قولهم قوله تعالى:﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟

---

(١) تفسير المنار (١/١٣، ٣٥، ٣٨).

(٢) البقرة: ٢١٩ .

(٣) انظر الإتقان للسيوطي (١/ ٧٥)، المدخل لدراسة القرآن الكريم لمحمد أبي شهبة ص١١٨

﴿بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾[1] أنها أول ما نزل في الجهاد[2].

نقول هذا مقيد في موضوع الجهاد، وليس مطلقًا.

وأخرجَ ابن جرير عن الربيع: قال: أول آية نزلت في القتال بالمدينة: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾[3].

فأنت ترى أنَّ هذا مقيد ليس بموضوع القتال فحسب، بل القتال بالمدينة، فيجبُ أن يلحظ في أول ما نزل بأنه مقيد في موضوعه، فهو ليس أو ما نزل إطلاقًا، وإلَّا تعددت الأوائل، وفي ذلك تناقض وتعارض لا يستقيم به الحال.

ثانيًا: آخر ما نزل مطلقًا:

لم يرد في آخر ما نزل حديث مرفوع عن النبي ﷺ بل وردت آثار صحيحة عن الصحابة -رضوان الله عليهم-، ونرى أنَّ الجدير من هذه الأقوال ثلاثة وما عدا ذلك فبعيد عن الاعتبار:

أمَّا القول الأول: فرواهُ البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «آخر آية نزلت الربا» والمراد بها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[4].

أمَّا القول الثاني: فما أخرجه النسائي وابن مردويه وابن جرير من طرق مختلفة عن ابن عباس: آخر آية نزلت: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[5].

---

(١) الحج: ٣٩ - ٤١.

(٢) روى الحاكم في مستدركه عن ابن عباس (٢/ ٢٤٦).

(٣) البقرة: ١٩٠، وانظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري (٢/ ١٨٩).

(٤) البقرة: ٢٧٨، وانظر صحيح البخاري كتاب تفسير القرآن، باب: ﴿واتقوا يومًا ترجعون فيه إلى الله﴾.

(٥) البقرة: ٢٨١، وانظر: النسائي في التفسير (٧٧)، وابن جرير (٣/ ٧٦)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٣٢٤): «رواه الطبري بإسنادين، رجال أحدهما ثقات».

أمّا القول الثالث: فما أخرّجه ابن جرير عن سعيد بن المسيب أنّه بلغه أنّ آخر آية نزلت آية الدّين[1]: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ﴾[2].

مواقف العلماء من هذه الأقوال:

يقولُ الشيخ عبد الوهاب غزلان: هذه الروايات الواردة في آخر ما نزل وهي متعارضة. ومن المعلوم أنّه إذا تعارضت الروايات في أمر من الأمور فإمّا أن يرجح بعضها على بعض، وإمّا أن يجمع بينهما إن أمكن الجمع بلا تكلُّف[3].

أمّا الترجيح فيقتضي القول بترجيح ما رواه البخاري في صحيحه أن آية الربا هي آخر مانزل:

ومن العلماء من قال بترجيح نزول آية: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾[4].

قد ذهب إلى ذلك الزرقاني وقال: إنَّ النفس تستريح لمثل هذا القول ما تحمله هذه الآية في طياتها من الإشارة إلى ختام الوحي والدين، بسبب ما تحثُّ عليه من الاستعداد ليوم المعاد، وما تنوه به من الرجوع إلى اللّه، واستيفاء الجزاء العادل من غير غبن ولا ظلم، وذلك كله أنسب بالختام من آيات الأحكام المذكورة في سياقها. وأيدّ ذلك أيضًا أنَّ الروايات قد نصت أنَّ النبي ﷺ عاش بعد نزولها تسع ليال فقط ولم تظفر الآيات الأخرى بهذا التنصيص[5].

أمّا الجمعُ بين هذه الروايات فهو المسلك الأسلم والأصوب ما دام الجمعُ ممكنًا وهو مقدم على الترجيح لأنَّ في الجمعِ إعمال الأدلة وفي الترجيح إهمال لبعضها. لذا فقد سلك الإمام السيوطي هذا الطريق ونقل

---

(١) جامع البيان عن تأويل القرآن ٣/ ٧٦ .

(٢) البقرة: ٢٨٢ .

(٣) البيان. ص٨٣ .

(٤) البقرة: ٢٨١ .

(٥) مناهل العرفان (١/ ٨١).

ذلك عن الحافظ ابن حجر العسقلاني.

قال السيوطي: «ولا منافاة عندي بين هذه الروايات في آية الربا، واتقوا يومًا، وآية الدَّيْن؛ لأنَّ الظاهرَ أنَّها نزلت دفعة واحدة كترتيبها في المصحف ولأنَّها في قصة واحدة، فأخبرَ كل عن بعض ما أنزل به بأنَّه آخر وذلك صحيح»[1].

هذا القولُ السديد في آخر ما نزل، وبالتأمل الدقيق في هذه الروايات نجد دلائل قوية مع من ذهبَ إلى الجمعِ بين الأقوال ونجد ضعف حجج المرجحين.

أمَّا دلائل الجمع بين الروايات فلما أسلفنا من أن إعمال جميع الأدلة خير من إهمال بعضها، وليس في هذه الروايات ما يناقض بعضه بعضًا حتى نرجح بعضها ونسقط شيئًا منها.

وكذلك فإنَّ ابن عباس الذي صحَّ عنه رواية الربا هو نفسه أيضًا روى عنه آية ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمًا...﴾، ولا يعقل أن يناقض نفسه. فالأولى أن نقول بعدم التناقض في أقوالِه.

أمَّا القول بترجيح آية: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمًا...﴾ فإنَّ هذه الرواية وإن ارتاحت النفسُ إلى أنَّها آخر ما نزل إلَّا أنَّها لا تعدل في سندها رواية آية الربا التي رويت في صحيح البخاري.

وغني عن البيان تقديم روايات البخاري على غيره، فلا نقدم رواية ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمًا...﴾ عليها لأنَّها أضعفُ سندًا، أمَّا دعوى أنَّ آية ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمًا...﴾ قد اقترنَ بها ما يفيدُ أنَّ النبي ﷺ لم يعش بعدها إلَّا تسعَ ليال فليست هذه قرينة على أنَّها متأخرة في نزولها على آيتي الربا والدَّين، لأنَّ في آية الربا رواية مساندة تقولُ بأنَّ النبي ﷺ مات ولم يبيِّن لنا آية الربا لقرب وفاتِه، وفي آية الربا دلالة على أنَّها آخر ما نزل حسبما وردت

(١) الإتقان في علوم القرآن (١/ ٧٨).

الروايات الصحيحة وهي مقدمة في صحتها على رواية نزول آية: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا...﴾.

كما أنَّ الرواية تقول أنَّ الدَّيْن أحدث آية بالعرش، وما كان كذلك يدل على أنَّها آخر القرآن نزولًا لأنَّ الأحدث نزولًا من العرش هو الآخر نزولًا إلى الأرض.

من أجل كل هذا وغيره نقول إنَّ آخر ما نزلِ هو جميع هذه الآيات ويساعد على ذلك ترتيبهما في المصحف بل رأي ابن حجر أنَّه قصة واحدة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ إلى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ...﴾[1].

إنَّها حقًا قصة واحدة ومجالها المعاملة المالية، لأنَّ الآيات تتحدث عن ربا النسيئة وهو المراد هنا وإنما يترتب على الدَّين، فهي في أمرين أحدهما متفرع على الآخر وبهذا يكونانِ في قصة واحدة.

استدراك: **ألفاظ موهمة في آخر ما نزل على الإطلاق:**

شاع وذاع بين العلماء أنَّ الآية القرآنية السابق ذكرها في سورة البقرة من قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[2].

هي آخر ما نزل من القرآن، وهذا اللفظ أوهم صاحب «مناهل العرفان»، وحذا حذوه كثير من المعاصرين بالقول إنها آخر ما نزل.

قال الزرقاني: ولكن النفس تستريح إلى آخر هذه الثلاثة نزولًا هو قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ وذلك لأمرين:

أولهما: ما تحمله هذه الآية في طياتها من الإشارة إلى ختام الوحي

---

(١) البقرة: ٢٧٨ - ٢٨٢.

(٢) البقرة: ٢٨١.

والدين، بسبب ما تحثه عليه من الاستعداد ليوم المعاد، وما تنوه به من الرجوع إلى الله، واستيفاء الجزاء العادل من غير غبن ولا ظلم، وذلك كله أنسب بالختام من آيات الأحكام المذكورة في سياقها.

ثانيهما: التنصيص في رواية ابن أبي حاتم السابقة على أنَّ النبي ﷺ عاش بعد نزولها تسع ليال فقط[1]، ولم تظفر الآيات الأخرى بنص مثله[2].

وقال الصابوني: وكانت آخر آية نزلت هي قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ وقد عاش النبي ﷺ بعد نزولها تسع ليال فقط[3].

وقد سبق لنا القول في هذه الآية مما أغنى عن الإعادة[4].

أمَّا الآية: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾[5] فإنَّ ظاهر ألفاظ الآية يشعر أنَّها آخر آيات القرآن نزولًا؛ لأنَّ كمال الدين وإتمام النعمة لا يكون إلَّا بآخر القرآن.

وقد وصفَ الشيخ محمد الخضري بك هذا اليوم بيوم الختام[6]. وهذا فهم صحيح لو أنَّ أكثر المصادر لا تؤيد ذلك.

قال الطبري: «والأولى أن نتناول آية: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ على أنَّه أكمل لهم دينهم بإقرارهم بالبلد الحرام وإجلاء المشركين عنه حتى حج المسلمون لا يخالطهم المشركون.

ثم أيدّه بما روي عن ابن عباس: «كان المشركون يحجون جميعًا، فلمَّا

(١) رواه ابن جرير في تفسيره (٣/ ١١٥).

(٢) مناهل العرفان (١/ ٨١، ٨٢).

(٣) الوجيز في تاريخ التشريع الإسلامي لعبد الرحمن الصابوني ص٢٧ .

(٤) انظر ص ١٠٨ من هذا البحث.

(٥) المائدة: ٣ .

(٦) تاريخ التشريع الإسلامي ص٩ .

نزلت «براءة» نُفِيَ المشركونَ عن البيت الحرام، وحج المسلمون لا يشاركهم في البيتِ الحرام أحد من المشركين» فمعنى الآية أنَّ المراد بإكمال الدين إكمال سلطانِه وسطوته، وإعلاء كلمته وتقوية شوكته، حيث ذل المشركون أمام المسلمين، وخضعوا لقول اللّه تعالى في السورة نفسها «براءة»: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[1].

فلم يجترئ أحد منهم على مخالفة هذا الحكم، والتأويل الذي ذهبَ إليه السدي ومن وافقه لا ينفي أن ينزل بعدها آيات في الحلال والحرام. في الوعظ والتذكير والوعد والوعيد ونحو ذلك. وأخيرًا فإنَّ الزعمَ بأنَّ هذه الآية آخر ما نزل، لم يقل به أحد من السلف فيما أعلم[2].

إذًا فالقولُ بآخر ما ورد من القرآن فيما يتصل بموضوع ما قد يكون أكثر تحقيقًا من ذلك.

* * *

(١) التوبة ٢٨

(٢) جامع البيان عن تأويل أي القرآن (٦/ ٨٠) وما بعدها.

المبحث الثالث

المكي والمدني من القرآن

المراد بالمكي والمدني:

لم يرد عن النبي ﷺ بيانٌ في ذلك، لأنَّ المسلمين آنذاك لم يكونوا في حاجة إلى هذا البيان، فهم يشهدون الوحي ومكانه وزمانه، وأسباب نزوله بل ينتظرونه أحيانًا لتوضيح مسألة أو للحكمِ في قضية.

إنما وقع الخلاف بين العلماء حين غابت هذه الظروف وامتد الزمن حول بعض الآيات وبعض السور، وأظهرُ ما يكون الخلاف في السور المكية وآياتها، لأنَّ حوادث مكة لم تعد واضحة بيّنة مثل حوادث المدينة.

هذا بالنسبة للترتيب الزمني لنزول الآيات والسور. أمَّا من ناحية أنَّ هذا القرآن مكي وهذا مدني فيمكن القطعُ فيه على وجه الإجمال إلَّا في مواضع قليلة فيها خلافات يسيرة، أمَّا القطعُ في التفصيل فأبعدُ منالًا وأصعبُ تحقيقًا.

وقد تعددت وجهات النظر حول الأسس والضوابط في تقسيم القرآن الكريم إلى مكي ومدني، فمن العلماء من اعتبرَ المكان، ومنهم من راعى توجيه الخطاب.

والأول هو المشهورُ عند أئمة التفسير بل المجمع عليه لأنَّه تقسيم ضابط وحاصر ومطرد، فما نزل من القرآن قبل الهجرة فهو مكي وإن نزل خارج مكة، وما نزل بعد الهجرة فهو مدني وإن نزل خارج المدينة، بل لو نزل في مكة ذاتها. لذا فقد جعلوا سورة النصر مدنية، وقد نزلت في مكة، واعتبروا آية المائدة ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ

وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1]. مدنية كذلك وقد نزلت على عرفات قرب مكة.

أمَّا من جعل المكان مناطًا للتقسيم فقال: ما نزل في مكة فهو مكي، وما نزل في المدينة فهو مدني، ولمَّا كان من الآياتِ ما نزل خارج مكة وخارج المدينة، فقد وسع هؤلاء الدائرة المكانية فقالوا: ما نزل بمكة وضواحيها كمِنَى وعرفات والحُدَيْبِيَة فهو مكي، وما نزل بالمدينة وضواحيها كبدر وأحد فهو مدني، وعلى الرغم من ذلك بقي هذا التقسيم غير شامل ولا حاصر لكثير من الحالات إذ من الآيات ما نزل في غير مكة والمدينة وضواحيهما، كالآيات التي نزلت في بيت المقدس وتبوك وغيرها، مما اضطر بعضهم إلى تقسمه أربعة أقسام كما قال ابن النقيب في مقدمة تفسيره: «المنزل من القرآن أربعة أقسام، مكي ومدني وما بعضه مكي وبعضه مدني، وما ليس بمكي ولا مدني»[2] أي لم ينزل في مكة ولا في المدينة.

ولا يخفى عليك لأنَّ هذا التقسيم غير حاصر ولا ضابط ولا مطرد فهو مخل بالمقصود.

أمَّا التقسيم الذي نظر فيه إلى توجيه الخطاب، فما وُجِّه فيه الخطاب لأهل مكة فهو مكي، وما وُجِّهَ فيه الخطاب لأهل المدينة فهو مدني، فهو أيضًا غير شامل ولا حاصر لجميع الآيات القرآنية، إذ من الآيات، ما لم يرد فيها خطاب لأهل مكة ولا لأهل المدينة، كالآيات التي خاطبت النبي ﷺ وحده، بل من الآيات لم يرد بها الخطاب لأحد من هؤلاء جميعًا،

---

(١) المائدة: ٣.

(٢) المقدمة ص

كآيات القصص والأخبار، فماذا يمكن أن يقال عن مثل هذه الآيات؟! بل ماذا يقال عن الآيات التي نزلت بعد أن عمّ نور الإسلام المدينة ومكة معًا وأصبح الخطاب موجهًا للجميع دون استثناء بل موجهًا لجميع الخلق بإنسها وجنّها.

ويبقى القولُ الأول الذي لا محيص عنه لضبطه وحصرِه وشمولهِ لجميع القرآن، وقد ورد النص الصريح عن الصحابة في اعتبار هذا الرأي، فقد قالوا عن سورة النصر أنّها مدنية، وقالوا عن آية المائدة السابقة الذكرِ أنّها مدنية كذلك، وهذا القولُ ينسجم والتقسيم الأول.

هذا هو الاصطلاح المعتمدُ عند جمهور المفسرين وبذلك وافقوا أقوال الصحابة أن سورة الفتح وآية المائدة ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(1) مدنية كلها لنزولهما بعد الهجرة وإن نزلتا في مكة، وقالوا: إنَّ آيات فرض الصلاة مكية وإن نزلت في السموات لنزولها قبل الهجرة.

الطريق لمعرفة المكي والمدني:

بعد تحديد المراد من المكي والمدني نود أن نعرف الطريق الموصلة لمعرفة كل منهما.

يقول الباقلاني: «إنما يرجع في معرفة المكي والمدني لحفظ الصحابة والتابعين، ولم يرد عن النبي ﷺ في ذلك قول لأنه لم يؤمر به»(2).

فالصحابة رضوان الله عليهم قد شاهدوا الوحي ونزوله، وقد بلَغهم

---

(1) المائدة: ٣ .

(2) الإتقان (١/ ٢٣).

النبي ﷺ ما نزل عليه من الآيات، وقد أخبرونا بما أخبرهم به، بل أخبرونا بالمكان والزمان الذي نزلت فيه الآيات، بل بلغت بهم الدقة أن أخبرونا بما نزل منه ليلًا أو نهارًا. وما نزل منه في سفر أو في حضر، في سهل أو في جبل، بالصيفِ أو بالشتاء، ما نزل ببيت المقدس والجُحْفَة والطائف والحُدَيْبِيَة، فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «والله الذي لا إله غيره ما نزلت آية في كتاب الله إلّا وأنا أعلمُ فيمن نزلت وأين نزلت»[1].

وروي مثل ذلك عن وهب بن عبد الله بن أبي الطفيل، قال: شهدتُ عليًا رضي الله عنه يخطبُ ويقول:

«سلوني فوالله لا تسألوني عن شيء إلّا أخبرتكم، وسلوني عن كتاب الله، فوالله ما من آية إلّا وأنا أعلمُ أبِلَيْلٍ نَزَلَتْ أَمْ بِنَهَارٍ، في سهل أم في جبل».

فأمر معرفة المكي والمدني سماعي عن الصحابة رضوان الله عليهم لأنّهم شاهدوا الوحي ونزوله، وعروفا مكانه وزمانه، وقولهم في ذلك له حكم المرفوع عن النبي ﷺ لأنَّ ذلك مما لا مجال للرأي فيه، فإذا صحَّ القولُ عن الصحابي قُبِلَ ولا يُعْدَلُ عنه إلّا بدليل أقوى يقتضي هذا العدول.

وقد ألحقَ الباقلاني قول التابعي فَجَعَلَهُ كقول الصحابي لأنَّ كبار التابعين قد شاهدوا من شاهد نزول الوحي، ونقلوا إلينا أقوالهم، فإذا ما أخبرونا بأنَّ هذه الآية مكية قُبِلَ قولهم، وقد قَبِلَ الإمامُ الشافعي مراسيل كبار التابعين في الحديث، أفلا يقبلُ إخبارهم بمكان نزول الآيات.

سأل رجل عكرمة عن آية من القرآن فقال: «نزلت في سفح ذلك الجبل» وأشارَ إلى سلع، فإخبارُ عكرمة بذلك لا يكونُ إلّا إذا سَمِعَهُ من الصحابة الذين عرفوا هذا المكان فأخبروهُ بما رأوا وسمعوا، ولا أدّل على

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب فضائل القرآن. باب القراء من أصحاب النبي ﷺ

ذلكَ من أن ابن مسعود ﷺ على الرغم من القولِ الذي نقل عنه في معرفة زمان ومكن النزول إلَّا أنَّ ما روي عن نزر يسير، وهو إذ لم يكتم علمًا في معرفتِه نفع للأمة، فإنّه يكون قد عَلّمَهُ إلى من سمع منه من التابعين رضوان اللّه عليهم.

يبقَى القولُ في بعض الآيات التي اختلف في زمن نزولها وموطنه، هذه الآيات قلائل قد أمكنَ معرفتها وفق معايير دقيقة كالنظر في طابعِ الآياتِ المكية والمدنية، ومميزات كل منهما ومدى انطباق الآيات عليها، أو بالتتبع التاريخي لسير الدعوة الإسلامية ومقتضيات كل مرحلة، أو قرائن أخرى يعرفها المتمرس في القرآن وعلومه، واللّه أعلم.

مميزات المكي والمدني:

تحدثنا عن الطريق الموصلة لمعرفة المكي والمدني، وعرفنا أنَّ السبيل إلى ذلك هو السماع عن الصحابة -رضوانُ اللّه عليهم- أو عن كبار التابعين، بيد أنَّ هناك بعض الآيات التي اختلفَ في مكيتها ومدنيتها مما أضطر العلماء إلى القول فيها بالاجتهاد والقياس وذلك وفق ضوابط أو قرائن يمكن بواسطتها الحكم عليها، ولدى استقراء الآيات القرآنية وجد أنَّ للمكي ضوابط ومميزات معينة تختلفُ نوعًا ما عن الطابع المدني أبرزها:

١- أنَّ السور المكية يغلب على آياتها القصرُ، فسورة المدثر على سبيل المثال عدد آياتها ست وخمسون آية، وَجُلُّ آياتها كلمتان أو ثلاث أو بضع كلمات على الأكثر ولا يستثنى من ذلك إلَّا آية واحدة رقم [٣١]: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَـٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَـٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَـٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾(١).

---

(١) المدثر: ٣١.

أمَّا الآيات المدنية فنحنُ نلحظ طول آياتها[1]، وإذا قارنا حزبًا من الأحزاب القرآنية المكية كالحزبِ الذي فيه سورة الشعراء، وحزبًا مدنيًا كالذي فيه سورة الأنفال، نجد فارقًا عظيمًا في عدد آيات الحزب المكي والحزب المدني.

فعدد آيات سورة الشعراء المكية [٢٢٧] آية، بينما سورة الأنفال [٧٥] آية، وبالاستقراء فإنَّ مجموع الآيات المدنية في القرآن لا يزيد عن ربع مجموع الآيات المكية ومع ذلك فإننا نجد مساحتها في المصحفِ تزيدُ عن الآيات المكية زيادة واضحة.

٢- يغلبُ على السور المكية معالجة قضايا العقيدة، وإقامة الدليل، والدعوة إلى نبذ عبادة الأصنام وخلع المعتقدات الفاسدة. نلحظ ذلك بوضوح في سورة الأنعام، ويونس، والفرقان، والشعراء، والقصص.

٣- كل سورة ذكرت فيها سجدة فهي مكية، وكذلك القصص إلَّا قصَّة آدم وإبليس المذكورة في البقرة فهي مدنية.

٤- كل سورة ورد فيها لفظ (كَلَّا) مكية وقد ذكر هذا اللفظ ثلاثًا وثلاثينَ مرة في خمس عشر سورة وكلها في السور الأخيرة في القرآن كسورة اقرأ والمطففين وغيرهما.

٥- يغلبُ افتتاح النداء في الآيات المكية بـ: يا أيُّها الناس ويا بني آدم.

٦- كل سورة مبدوءة بأحرف التهجي مكية إلَّا البقرة وآل عمران فهما مدنيتان وسورة الرعد فيها خلاف.

أمَّا السور المدنية فأهم مميزاتها:

١- من المعلوم أنَّ المجتمعَ الإسلامي قد ظهرَ في المدينة لأول مرة وقد تعرضت الآيات القرآنية لبناء المجتمع وتأسيسه على أساس الأخوة،

(١) اقرأ إن شئت أطول آية في القرآن على الإطلاق، وهي آية الدَّين في سورة البقرة والتي تبلغ حوالي صفحة من القرآن.

لذا نجد أنّ كل سورة تتحدث عن المهاجرين والأنصار فهي مدنية، كما عنيت الآيات بالمدينة بفضح المنافقين ومكائدهم وكشف اليهودِ وتعريتهم على حقيقتهم، فكل سورة ذكرَ فيها النفاق فهي مدنية إلّا سورة العنكبوت فإنّها مكية عدا الآيات الإحدى عشرة الأولى منها فإنها مدنية وهي تتحدثُ عن المنافقين، وهكذا فإنّ كل سورة يذكرُ فيها أهل الكتاب من يهود ونصارى فهي مدنية أيضًا.

٢- ولمّا كانت مرحلة ما بعد الهجرة قد تميزت بقيام الدولة الإسلامية والمكلفة بنشر الإسلام، لذا فكل سورة فيها حكم يعالج قضايا التشريع والأحكام من عبادات ومعاملات ونظام للأسرة فهي مدنية، وكل سورة فيها ذكرٌ للجهاد وما يترتب عليه من أحكام دولية كحكم الأسرى والغنائم والسلم والمعاهدة فهي مدنية وقد جاء النفس في هذه الآيات طويلًا ليوائم الموضوع الذي تعالجه.

٣- ولمَا تكوّن المجتمع المؤمن المتميز عن المجتمعات الكافرة فناسب أن يكون النداء الموجه من اللّه عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ وقل أن نجد نداء موجهًا لأهل المدينة مصدرًا بيا أيها الناس إلّا إذا كان في موضوع عام يتناول الناس جميعًا وقد جاء ذلك في سبعة مواضع منها:

(أ) ما جاء في سورة البقرة قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ﴾(٢).

(ب) ما جاء في سورة النساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ

---

(١) البقرة: ٢١.
(٢) البقرة: ١٦٨.

﴿وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[1].

وقوله: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾[2].

(ج) ما جاء في سوة الحجرات قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[3].

(د) وأضافَ العلماء إلى ذلك قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾[4].

فإنّها نزلت ليلًا عند السفرِ لغزوة بني المصطلق وقد كان ذلك في السنة السادسة للهجرة.

وبعدُ:

فإنَّ هذا القول منسوب لابن مسعود: «إنَّ ما ورد فيه النداء القرآني بـ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ أنّه مكي، وما ورد النداء في السورة بـ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أنّه مدني.

وقد وقع معه بعض من لا خبرة له في هذا الشأن في التناقض وعدم الفهم لحقيقة مراد الصحابي الجليل عبد اللّه بن مسعود، فرَدَّ على هذا القولَ بأنَّ متنَهُ مجانب للصواب، وأنَّ سندَه أشدُّ ضعفًا[5].

والواقع أنّه ﷺ يريدُ ما هو من سور القرآن مشتمل على النداء بـ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ مع خلو تلك السورة من النداء بـ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فهو مكي.

---

(١) النساء: ١.
(٢) النساء: ١٣٣.
(٣) الحجرات: ١٣.
(٤) الحج: ١.
(٥) قال الزركشي في البرهان في علوم القرآن (١/ ٩٧).

وما هو مشتمل على النداء بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ مع خلو السورة من النداء بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ فهو مدني.

وحينئذ يكون قد سكتَ ﷺ عمّا يكون مشتملاً على النداءين مجتمعين كسورة البقرة وسورة النساء وسورة الحج مثلًا.

وما تكلَّمَ عنه هذا الحبر عبد الله بن مسعود مضطرد لا كلام في متنه ولا سندِه وما سكتَ عنه يحتاجُ إلى بحث في جعل السورة مكية أو مدنية وذلك بالدليل والقرينة.

* * *

المبحث الرابع

نزول القرآن على سبعة أحرف

طالما شغل هذا الموضوع العلماء -قديمًا وحديثًا- قال الطبري: إنَّ الأقوال فيه فاقت الثلاثين قولًا، وأوصلها بعضهم إلى أربعينَ ونيف، وكلها لم يخل من مقال، وقد أشبع العلماء الأوائل هذه الأقوال نقدًا وتفنيدًا، أذكر على سبيل المثال لا الحصر الإمام الطبري في تفسيره «جامع البيان»، وابن عطية في تفسيره «المحرر الوجيز»، والثعالبي في كتابهِ «الجواهر»، وابن كثير، والنيسابوري، والقرطبي، وخلائق لا يحصون، كما عني به علماء القراءات كابن الجزري في كتابهِ «النشر في القراءات العشر» وقد قال إنَّ هذا الموضوع قد شغله ما يزيدُ على ثلاثينَ عامًا ونيف، ثم قال إنَّ اللّه هداه إلى ما يمكن أن يكون صوابًا، ومع هذا التواضع العلمي لم يصب الصواب.

وفي عصرنا انساق كثير من العلماء وراء أقوال لا تخلو من ضعف ووهن وإن تابع بعضهم بعضًا، وهم -على جلالة قدرهم- مقلدونَ لمن سبقهم، فقد استحسن الشيخُ عبد العظيم الزرقاني رأي ابن قتيبة، وابن الطيب الرازي، ودافعَ عنه كثيرًا، وجاء من بعدِه متأثرًا بهذا الرأي.

ولكي نعطي هذا المبحث حقه من البيان يجدر بنا أن نسوق أولًا الأحاديث الواردة في هذا الموضوع:

١- عن عمر بن الخطاب، يقول: سمعتُ هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة الرسول ﷺ فاستمعتُ لقراءته فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول اللّه ﷺ فكِدْتُ أساورهُ في الصلاة، فتصبرتُ حتى سلَّمَ، فَلببّته بردائه، فقلتُ: من أقرأك هذه السورة التي سمعتُكَ تقرأها؟ قال: أقرأنيها رسول اللّه ﷺ ، فقلتُ: كذبت، فإنَّ رسول اللّه ﷺ قد

أقرأنيها على غير ما قرأت، وذهبتُ للنبي ﷺ فقلتُ: إني سمعتُ هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها، فقال رسول الله ﷺ: **«أرسله، اقرأ يا هشام»** فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرأ، فقال رسول الله ﷺ: **«هكذا أنزلت»**، ثم قال: **«اقرأ يا عمر»** فقرأتُ القراءة التي أقرأني، فقال رسول الله ﷺ: **«هكذا أنزلت، إنَّ هذا القرآن أنزلَ على سبعة أحرف فاقرءوا ما تيسّر منه»**[1].

٢- عن أبيّ بن كعب قال: كنت في المسجد فدخل رجل يصلي فقرأ قراءة أنكرتها عليه، ثم دخلَ رجل آخر فقرأ قراءة سوى قراءة صاحبه، فلمَّا قضيت الصلاة دخلنا جميعًا على رسول الله ﷺ، فقلت: إنَّ هذا قرأ قراءة أنكرتها عليه، ودخل آخر فقرأ سوى قراءة صاحبه، فأمرهما رسول الله ﷺ فقرآ فحسَّن النبي ﷺ شأنهما، فسقط في نفسي من التكذيب ولا إذْ كنت في الجاهلية، فلمَّا رأى رسول الله ما قد غشيني ضرب على صدري، ففضتُ عرقًا وكأنَّما أنظرُ إلى الله عز وجل فرقًا، فقال لي: **«إنَّ ربِّي أرسلَ إليَّ أن أقرأ القرآن على حرف، فرَدَدْتُ إليه أنْ هَوِّن على أمتي، فردَّ إليَّ الثالثة اقرأه على سبعة أحرف فلك بكل ردَّة رددتكها مسألة تسألنيها، فقلتُ اللهم اغفر لأمتي، اللهم اغفر لأمتي»**[2].

٣- عن أُبَيّ بن كعب أنَّ النبي ﷺ كان عند أضاة بني غفار قال: «فأتاه جبريل عليه السلام، فقال: إنَّ الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على حرف، فقال: اسأل الله معافاتِه ومغفرتِه وإنَّ أمتي لا تُطيقُ ذلك، ثم أتاهُ الثانية، فقال: إنَّ الله يأمرُكَ أن تقرئ أمتك القرآن على حرفين، فقال: اسأل الله معافاته ومغفرته وإنَّ أمتي لا تطيق ذلك، ثم جاءه الثالثة فقال: إنَّ الله يأمرُك أن تقرئ أمتك القرآن على ثلاثة أحرف، فقال: اسأل الله معافاته

---

(١) رواه البخاري (٦/ ١٠٠، ٣/ ٩٠، ٨/ ٥٣)، والإمام مسلم (١/ ٥٦٠) وغيرهما.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (١/ ٥٦٢).

ومغفرتِه إنَّ أمتي لا تطيق ذلك، ثم جاءه الرابعة، فقال: إنَّ اللَّه يأمرُك أن تقرئ أمتك القرآن على سبعة أحرف فأيما حرف قرءوا عليه فقد أصابوا[(١)]».

٤- عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إنَّ رسول اللَّه قال: **«أقرأني جبريل على حرف فراجعتهُ فلم أزل أستزيده، ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف»**.[(٢)]

عن حذيفة قال: سمعتُ رسول اللَّه ﷺ يقول: **«أنزل القرآن على سبعة أحرف»**.[(٣)]

٦- عن أُبيِّ بن كعب قال: لقي رسول اللَّه ﷺ جبريل فقال: «يا جبريل إني بعثتُ إلى أمَّة أميين منهم العجوزُ والشيخ الكبير والغلامُ والجارية والرجلُ الذي لم يقرأ كتابًا قط، قال: يا محمد إنَّ القرآن أنزل على سبعة أحرف»[(٤)].

ما يستفاد من هذه الأحاديث:

١- إنَّ الخلاف الذي وقع بين عمر بين الخطاب وهشام بن حكيم إنماهو ناجم عن نطق في هيئات الكلمة القرآنية، كما نزلت على رسول اللَّه ﷺ وكما عَلَّمَها لأصحابه رضوانُ اللَّه عليهم، تأمل قول عمر وهشام في رواية الحديث: قال عمر: إنِّي سمعتُ هذا -يعني هشامًا- يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها، وأنتَ أقرأتني سورة الفرقان، فالخلافُ هو في قراءة الكلمات، ومصدره النبي ﷺ فهو الذي أقر عُمَرَ، وهو الذي أقرأ هشامًا، وهذه التي علمهم إيَّاها رسول اللَّه ﷺ مصدرها الوحي، فقد

---

(١) صحيح مسلم (١/ ٢٦٠).

(٢) صحيح البخاري ص٨٠، وصحيح مسلم (١/ ٥٦١).

(٣) أخرجه الترمذي في سننه (٥/ ١٩٤)، وقال: حديث حسن صحيح.

(٤) رواه أحمد في مسنده (٥/ ٣٩١)، والبزار والطبراني وفيه عاصم بن بهدلة، قال الهيثمي وفيه كلام لا يضرُ و الحديث صحيح.

قال رسول الله ﷺ مصوبًا لكلّ واحد منهما ومخبرًا أنَّ قراءة الآيات من قبلهما هكذا نزلت وحكم بالصواب لكل قراءة بقوله: «أصبت».

فالأحرف في نطق اللفظ وليس في قراءة القرآن فيما معناهُ كما يقالُ، ولا تغيير اللفظ بمرادف.

قال ابن الجزري: «وأمّا من يقولُ إنَّ بعض الصحابة كابن مسعود كان يجيز القراءة بالمعنى فقد كذب عليه إنما قال: نظرتُ القرّاء فوجدتهم متقاربين فاقرءوا كماعلمتم»[١].

فلو كانت الأحرف هي القراءة بما معناهُ أو تبديل الكلمة بمرادف لما صحَّ قوله ﷺ : «هكذا نزلت».

٢- تدلنا هذه الأحاديث بصراحة ووضوح أنَّ المرادَ بالعدد سبعة هو حقيقة العدد المحصور بين الثمانية والستة وليس المراد به الكثرة.

وقد تاهت أقلام بعض الأقدمين والمحدثين في حقيقة هذا العدد، وقالوا إنَّ المرادَ به الكثرة لا تحديد العدد سبعة، وقد ذهبَ إلى ذلك الأستاذ سعيد الأفغاني عميد كلية الآداب في جامعة دمشق وقرر ذلك في مقدمته لكتاب «حجة القراءات لأبي زرعة» وهو رأى قد سبق إليه من الأقدمين كالقاضي عياض ومن تبعه[٢].

والذي نراه صوابًا هو ما ذكرته الأحاديث السالفة الذكر وهو أنَّ المراد بالسبعة هو حقيقة العدد وليس المراد به الكثرة وهذا ما ذهبَ إليه أكثر الأقدمين والمحدثين.

قال ابن الجوزي بعد أن ساقَ كلام الذينَ يرون أنَّ العدد سبعة يفيد الكثرة، قال: وهذا جيد لولا أنَّ الحديث يأباه[٣]، فالروايات واضحة

---

(١) النشر في القراءات العشر.

(٢) حجة القراءات، لأبي زرعة ص٨، ٩ .

(٣) القراءات عند المفسرين ص ٥ .

وصريحة أنَّ النبي ﷺ قد راجعَ جبريلَ وطلبَ المزيد حتي بلغ سبعًا، نعم إنَّ الروايات لا تشير بمجموعها إلى أنَّ المراجعة بلغت ستًا بصريح العبارة ولكن لفظ الحديث يدل على أنَّ النهاية قد انتهت وثبتت ووصلت إلى العدد سبعة، ومما يفيدُ هذا ما رواهُ أبو بكر أنَّ رسول اللَّه ﷺ قال: «فنظرتُ فسكت -أي جبريل- فعلمتُ أنَّ العدة قد انتهت»[1].

وهل هناك ما هو أوضح من القول فلم أزل أستزيده ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف.

وهذا الرأي الذي رجحه الأستاذ محي الدين خليل في بحث مستفيض «كلمتان بين المفسرين والمحدثين وأهل اللغة «سبعة» و«سبعين»، فقد قرر بعد استعراض شامل وخلص إلى القول:

«إننا نجد أنَّ المعاجم اللغوية على كلمة سواء فيما يختصُّ بالسبعينَ والسبعمائة وهو أنهما تكررتا في القرآن الكريم والحديث الشريف، والعرب تضعهما موضع التضعيف ولا تريد معناهما اللغوي في كثير من الأحيان، ولكن هذه المعاجم لا تلتقي على كلمة سواء فيما يختصُّ بالسبعة «والسبع» رغم تكرارهما في القرآن والحديث ولغة العرب»[2].

ونحنُ إذا تمعنا في الأحاديث ونصوصها فإننا نجد أنَّ المرادَ بالسبعة هو العدد المحصور بين الستة والثمانية، وليس المراد فيه الكثرة في الآحاد.

٣- نلمس من هذه الأحاديث أن نزول القرآن على سبعة أحرف فيه تسهيل وتيسير على الأمة ويدلنا على ذلك مراجعة النبي ﷺ جبريل بأن يسأل ربه التخفيف والمعافاة حتى بلغ ما بلغ من الأحرف السبعة.

٤- هذه الأحاديث هي عمدة الكلام حول الأحرف السبعة وقد اخترنا الصحيح منها بل المتواتر، وقد ضربنا صفحًا عن ذكرِ الأحاديث التي لم

---

(١) سنن النسائي في جامع ما جاء في القرآن (٣/ ١٥٤).

(٢) البحث مطبوع ونشره مركز البحوث في جامعة الملك سعود.

تصح سندًا فالحديث عنها لا طائل تحته.

هذا ما أردنا التنويه إليه مما يستفاد من الأحاديث حتى يكون عونًا لنا في تحديد المراد فيما بعد.

معنى الأحرف السبعة

المعنى اللغوي:

الأحرف جمع حرف وقد ورد بمعان كثيرة: حرف الشيء طرفه. والحرفُ هو أحد حروف التهجي كالألف حرف والباء حرف، والحرف يطلق على الوجه ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾[1] يعني أنهم عبدوه على وجه الشك لا على اليقين والتسليم لأمرِه، قال مجاهد: على شك وهذا علامة على القلق وعدم الثبات كضعفِ القائم علي حرف مضطرب فيه.

وقال الحافظ أبو عمرو الداني إن من معاني الأحرف: اللغات يعني أن القرآن أنزل على سبعة أوجه من اللغات وقيل اللغات يعني اللهجات. وعلى هذا فالحرفُ لغة: **[يعني الطرف، واحد حروف التهجي، والوجه واللغة واللهجة]**.

أمّا كلمة السبعة فكما سبق أن قلنا إنَّ المرادَ منها حقيقة العدد المحصور بين الستة والثمانية وليس المراد منها المعنى المجازي.

المعنى الاصطلاحي للأحرف السبعة:

على الرغم من كثرة الأقوال التي تحدد المعنى الاصطلاحي للأحرف السبعة إلَّا أنَّه يمكن رد كثير منها وفق قاعدة متفق عليها: «أن كل قول لا يستند إلى أثر ثابت هو مردود أيضًا» مثل قول ابن مسعود المنسوب إلى

---

(١) الحج: ١١.

النبي ﷺ والقائل: «كان الكتاب الأول ينزل من باب واحد، وعلى حرف واحد، ونزل القرآن من سبعة أبواب على سبعة أحرف، زجر، وأمر، وحلال، وحرام، محكم، ومتشابه، وأمثال»[1].

فهذا القول لم يصح فقد أخرجه الحاكم والبيهقي، وليس سنده يصح، ولو صحَّ السند لكان حاسمًا للنزاعِ على أنَّه قد روي عن ابن مسعود قول خلاف ذلك كما قال الطبري.

أو مثل القول: «محكم ومتشابه وناسخ ومنسوخ وخصوص وعموم وقصص». كل هذه الأقوال وأمثالها قد ضربنا عنها صفحًا ولم نتكلف الرد عليها لعدمِ استنادها إلى الدليل.

وبعدُ: فنبدأ برأي الطبري الذي استهل به تفسيره الشهير، وقد أطالَ كثيرًا في تحديد المعنى لها وقد وافقه الطحاوي، واستفتحَ به القرطبي سائر الأقوال -وإن لم يوافقه-.

وقد تأثرَ بعض المحدثين بقول الطبري كما ظهرَ في كتاب مباحث في علوم القرآن.

لقد فسَّر الطبري الأحرف السبعة بأنَّها سبعة أوجه، ولكنها ليست كالأوجه السبعة التي سيأتيك ذكرها .بل **أوجه سبعة من المعاني المتفقة والألفاظ المختلفة في الكلمة الواحدة** نحو هَلُمَّ وأقبل وأسرع وتعال وعجل وقصدي ونحوي وقربي[2].

فلك أن تختار أي لفظ من هذه الألفاظ وهذا معنى التسهيل والتيسير على الأمة، وقد أورد الطبري الحديث أنَّ رسول اللّه ﷺ قال لأبي بكر: «اقرأ فكلٌّ شاف كاف»، إلَّا أن تخلط آية رحمة بآية عذاب، أو آية عذاب بآية رحمة، على نحو هلم وتعال وأسرع وأقبل. . . إلخ.

---

(١) جامع البيان (١/ ٢٣) قال السيوطي: حديث ابن مسعود أخرجه الحاكم والبيهقي، الإتقان (١/ ٤٨).

(٢) انظر مباحث علوم القرآن، للشيخ مناع القطان وكذلك الطبري (١/ ٢٠).

أو كما روي في حديث أُبيّ بن كعب: «قلت غفورًا رحيمًا أو قلت سميعًا حكيمًا أو قلت عليمًا حكيمًا أو قلت عزيزًا حكيمًا، أي ذلك قلت فإنَّه كذلك».

واستدلوا على هذا القول بقراءات مروية عن أعيان الصحابة مثل أبي بن كعب وهو أقرأ الصحابة كما ورد، «اقرؤكم أبي» فقد روي أنَّه قرأ قوله تعالى: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَـٰرَهُمْ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[1] أبدلها بقوله: «مروا فيه، سعوا فيه». وقرأ قوله تعالى في سورة الحديد: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَـٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾[2]، قال امهلونا، أخرونا، ارقبونا».

أمَّا أنس بن مالك فقرأ قوله تعالى في المزمل: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾[3] قال: «وأصوبُ قيلًا فقيل له أقومُ فقال وأصوب وأهيأ واحد»[4].

أمَّا ابن مسعود فقد أقرأ رجلًا قرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ﴾[5] حين قال طعام الأثيم فقال: «قل طعام الفاجر» هذا قول الطبري وهو فاسد من وجوه كثيرة:

١- أنَّ الآثار التي استندَ إليها في الأحرف السبعة لم يصح منها إلَّا ما أوردناهُ سابقًا أو ما هو قريب من لفظه ومعناه، أمَّا هذه الروايات فلم تَثْبت عن النبي ﷺ.

---

(١) البقرة: ٢٠.

(٢) الحديد: ١٣.

(٣) المزمل: ٦.

(٤) جامع البيان (١٨/١)، والحديث رواه أبو يعلى والبزار والآية ٦ من المزمل.

(٥) سورة الدخان: آية ٤٣، انظر تفسير الآية للطبري والقرطبي.

٢- أنَّ الآثار المروية عن الصحابة رضوان اللّه عليهم على فرض صحتها هي قراءات شاذة لا يعتدُّ بها في الاستشهاد.

٣- لم يعتبر أحد أن هذه القراءات قرآنية لأنها لم تتواتر وهي قراءات إن صحت على أبعد احتمال فلا تعدو أن تكون قراءة آحاد مخالفة للسواد فلا يعتد بها كما قال أبو حيان.

٤- على أنَّ العلماء مع اتفاقهم جميعًا دون استثناء على أنَّها ليست قرآنًا قد اختلفوا في اعتبارها حديثًا وهي على أحسن تقدير تفسير صحابي.

٥- أن القراءة بالمرادف يفتح باب التغيير والتبديل فليس للنبيّ ولا لصحابي أن يبدل اللفظة من بعض هذه الألفاظ من تلقاء نفسه، فإنَّ هذا القرآن المعجز لو حذفت أو أبدلت كلمة منه ثم أُدْرَت لسان العرب كله على أن تأتي بدلها ما استطعت.

إنَّ كلمة هلم أو أقبل أو نحوي لا يمكن أن تسد مسد كلمة تعال لا في اللفظ وتناسقه سياقه ولا في أداء المعنى الدقيق لهذه الكلمة.

فهل كلمة هلم وأقبل ونحوي وأسرع. . . تسد مسد كلمة تعال؟ أو كلمة أقوم مثل: أهيأ وأصوب، أو كلمة «طعام الفاجر» مثل طعام الأثيم. . .

لقد خاض العلماء في ذلك وكتبوا في ذلك تشابه القرآن وآياتِه بزيادة حرف أو نقص أو إبدال كلمة مكان كلمة، وقالوا في ذلك عجبًا وبينوا الإعجاز الرباني في الإبدال والنقص والزيادة، فكيف يكون قوله عزيزًا حكيمًا، مثل عليمًا حكيمًا ما لم نخلط آية عذاب برحمة أو العكس كما زعموا.

قال أبو بكر الباقلاني: «فلا يجوزُ للناس أن يبدلوا أسماء اللّه تعالى في موضع بغيرِه مما يوافق معناهُ أو يخالف». إنَّ هذا القول رغم إجلالنا لقائله وهو ابن جرير الطبري إلَّا إنَّا نقول كما قال علماؤنا: هذا الرجل كبير ولكن الحق أكبر منه، لذا فقد خالفه جماهير العلماء فيما ذهبَ إليه. ولو

أمعنَ بعضُ المحدثين فيما اعترض به على ابن جرير لما ذهبوا مذهبه، بل أوقعتهم ثقتهم بهذا المفسر العظيم حين افتتح كتابه بالحديث عن علوم القرآن، وبحث الأحرف السبعة، وأطال الاستدلال فتوهم هؤلاء بأن رأيه الحق الذي لا بديل له.

أمّا القول الثاني فهو رأي ابن قتيبة وابن الجزري والقاضي ابن الطيب والرازي وابن كثير، وقد قال به كثير من المحدثين كالزرقاني الذي تابعه كثيرون.

لقد قال هؤلاء جميعًا إن المراد بالأحرف السبعة أوجه سبعة، وهي لا تخرج عن سبعة أوجه في الاختلاف[1]

الأول: اختلاف الأسماء من إفراد وتثنية وجمع، وتذكير وتأنيث مثاله قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾[2] لأمانتهم بالإفراد، ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾[3] لأماناتهم بالجمع.

الثاني: اختلاف تصريف الأفعالَ من ماض، ومضارع، وأمر مثاله قوله تعالى: ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾[4] «ربنا بَعْدَ بين أسفارنا».

الثالث: اختلاف في وجوه الإعراب، مثاله: ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[5] ورسولُهُ بالضم، ورسولَه بالفتح.

الرابع: الاختلاف بالنقص والزيادة، مثاله: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾[6]،

---

(١) النشر في القراءات العشر (١/ ٢٧).
(٢) المؤمنون: ٨ .
(٣) المعارج: ٣٢ .
(٤) سبأ: ١٩ .
(٥) التوبة: ٣ .
(٦) الليل: ٣

والذكر والأنثى بنقص لفظ وما خلق، ونحو «أوصى» «ووصى» بنقص حرف الهمزة.

الخامس: الاختلاف في التقديم والتأخير، مثاله: ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾[1] قاتل ومقتول، أو ﴿فيُقتلون ويقتلون﴾ معنى مقتول وقاتل، وكلاهما موعود بالحسنى وبالجنة، ومثاله: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾[2] «وجاءت سكرة الحق بالموت».

السادس: الاختلاف بالإبدال وهو قسمان: إبدال حرف قريب المخرج بحرف قريب مثله: ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾[3] «وطلع منضود». والثاني: إبدال كلمة بكلمة: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾[4] كالصوف المنفوش بدل العهن.

السابع: اختلاف اللهجات كالفتحِ والإمالةِ والترقيق والتفخيم، وغير ذلك.

وإذا تأملتَ هذه الأوجه فإنَّها لا تخلو من نقد، وهي أوجه فيها نظر من نواحٍ كثيرة. فالأمثلة القرآنية هي روايات آحادية لا تثبت قرآنيتها كما يقول أبو حيان: «رواية آحاد مخالفة للسواد فلا يعتد بها»[5] فقوله: «وجاءت سكرة الحق بالموت» وقوله: «والذكر والأنثى» بدل «وما خلق الذكر والأنثى» وقوله: «كالصوف المنفوش» بدل «العهن المنفوش» كل ذلك لم يثبت رواية ولم يصح سندًا.

ثم إنَّ المتأمل لهذه الأوجه لا يلمس وجه الحكمة والتسهيل على أمة محمد ﷺ في مثل هذه الأوجه.

---

(١) التوبة: ١١١ .

(٢) ق: ١٩ .

(٣) الواقعة: ٢٩ .

(٤) القارعة: ٥ .

(٥) تفسير البحر المحيط (٨/ ٤٨٣).

المعنى الثالث:

الأحرف السبعة هي لغات سبع[1] متفرقة في القرآن وهي لغات أحياء من قبائل العرب مختلفة نزل بها القرآن الكريم على النبي ﷺ وكان يأمر كتبة الوحي وهم من قبائل شتى من قريش وغيرها بكتابته، وقام عثمان بن عفان وأمرَ الكتبة حين كتابة القرآن إذا اختلفوا في شيء أنْ يكتبوه بلغة قريش، ومعنى ذلك أن القرآن منه ما قرئ بلغة قريش، ومنه ما قرئ بغيرها كما ثبتت عن النبي ﷺ، وهذا ما سبّب اختلاف الصحابة في قراءة القرآن، ومن سمعَ النبي ﷺ يقرأ القرآن على وجه آخرَ فإنّه يقرأ على الوجه الذي سمعه كذلك، وربما سمع أحدهم ما لا يسمعه الآخر فينكر عليه، فحين قرأ هشام الفرقان أنكرَ عليه عمرَ ذلك لأنّه لم يسمعها من النبي ﷺ.

فالأحرف السبعة كلها مسموعة عن النبي ﷺ وقد نزلَ بها الوحي.

أمّا إنّها لغات سبع فلما روي عن عثمان أنّه أمرَ كتبة الوحي إن اختلفوا مع زيد بن ثابت في كتابة شيء من القرآن أن يكتبوه بلغة قريش، لأنّها اللغة الشائعة فهي أحق من غيرها إذا وقع الاختلاف. فلغة قريش إذن معها لغات أخرى.

إن تفسير الأحرف السبعة باللغات السبع يلمس فيه وجه التخفيف والتسهيل، فالقبيلة قد تعتاد لهجة معينة يسهل عليها النطق بها ويصعب عليها النطق بغيرها، وفي نزول القرآن بهذه اللغات يسهل على أصحاب كل لهجة القراءة القرآنية على نحو ما اعتاد عليه نطقه، ورفع الحرج عن من لم يعتد عليه نطقًا، وعلى الأخص الشيوخ والنساء والأطفال وهذا ما يبين وجه الحكمة في قوله ﷺ: **«إنَّ أمتي فيها الشيخ الفاني والعجوز**

---

(١) القرطبي (١/٣٨، ٣٩).

الكبير والغلام». ثم قوله ﷺ : «إني بعثتُ إلى أمة أميين فيهم الشيخ. . .».

وقد يعترض على هذا القول فأي اللغات السبع تريد والعرب قبائل شتى؟ هل هي قريش وثقيف وهذيل وهوازن وكنانة وتميم أو غيرها.

وما هو الدليل على تعيين هذه اللغات أو اللهجات السبع التي نزل بها القرآن علمًا بأنَّ القبائل العربية كثيرة ولهجاتها لا تعد.

أقول: إنَّ الأحرف السبعة هي لغات سبع اشتهرت شهرة بين العرب ولم يعينوا من هم، ولكنها سبعة على أية حال قد عرفنا لغة قريش على وجه التأكيد بل منهم من يرى أنها سبع لغات من لغات قريش. أورده النيسابوري في تفسيره قائلًا: «أكثر العلماء على أنَّها سبع لغات من لغات قريش لا تختلف ولا تتضاد بل هي متفقة المعنى ثم يقول: وغيرُ جائز عندهم أن يكونَ في القرآن لغة لا تعرفها قريش. ذلك أنَّ قريشًا تجاور البيت وكانت العرب تأتي إليهم للحج ويستمعونَ لغاتهم ويختارونَ من كل لغة أحسنها كلامًا واجتمعَ لهم ذلك العلم بلغة غيرهم[1]».

أمّا الألسن فلا حاجة بنا إلى معرفتها، وقد قيل: إنَّ خمسة منها لعجز هوازن واثنين منها لقريش وخزاعة، وروي ذلك عن ابن عباس وليست الرواية عنه من رواية من يجوزُ الاحتجاج بنقله وذلك أنَّ الذي روى عنه أن خمسة منها من لسان العجز من هوازن هو الكلبي عن أبي صالح، وأمّا الذي روى عنه أنَّ اللسانين الآخرين لسان قريش وخزاعة فهو قتادة، وقتادة لم يلقه ولم يسمع منه[2]، فهذه روايات لم يصح سندها فلا يعول عليها أمّا رواية الكلبي فهي من أوهي الطرق عن ابن عباس وهي كما يقول

---

(١) في مقدمة الغرائب للنيسابوري.

(٢) المزهر، للسيوطي (١/ ٢١٠).

علماء الحديث سلسلة الكذب.

أمّا الرواية عن قتادة فلا تقبلُ لأنّها عنعنة المدلس، قال الطبري: إنَّ قتادة لم يلق ابن عباس ولم يسمع منه(١).

وعلي كل حال فاللغات السبع لم ترد على سبيل التحديد ولكن لغة قريش واحدة على وجه التأكيد.

وقد يعترض على ذلك أيضًا أنَّ عمر بن الخطاب قد اختلفَ مع هشام ابن حكيم في قراءة القرآن وهما قرشيان ولغتهما واحدة ولهجتهما واحدة فالخلاف وقع بينهما وهما من قبيلة واحدة، فلو كان الأمرُ كما زعمت أن الأحرف هي اللغات لم تصح دعواك.

ويجابُ علي ذلك أنَّ قراءة القرآن على لغة قريش لا يعني الاقتصارُ عليها، فقد يكون هشام بن حكيم القرشي قد سمعَ القرآن بلغة أو بلهجة أخرى فلما قرأها باللغة الأخرى استنكرها عمر لأنّه لم يسمعها كما سمعها هشام بل الأمر كذلك حسب الرواية أنَّ هشام كان يقرأها على حروف كثيرة كما وردت، على أنَّ هشاما لم ينكر على عمرَ بل الذي وقع منه الإنكار عمر، لأنّه لم يسمع القراءة التي قرأها هشام، والتي ربما كانت قراءة إضافية عمّا قرأها عمر.

خامسًا: بين الأحرف السبعة والقراءات السبع:

الخلط في هذا الموضوع قائم على قدم وساق، فالبعضُ قد جعل الأحرف هي القراءات، والقراءات هي الأحرف، ومن لم يجعلهما كذلك فقد جعل السبعة في الأحرف هي السبع في القراءات السبع، أي أنَّ العدد هو العدد.

ولئن استنكر جعل الحرف قراءة، والقراءة حرفًا؛ فإنَّ جعل الرقم سبعة

---

(١) جامع البيان (١/ ٦٦).

في كليهما بمعنى واحد هو أشد نكارةً؛ لأنَّ الأحرف السبعة في عددها ربانية المصدر، والثانية وضعية بشرية المصدر[١]، ولذا تمنى بعض العلماء لو أنَّ ابن مجاهد[٢]، جعل القراءة أكثر من سبعة، إذ هو أول من سبع السبعة[٣]، فأضافَ أشكالًا في جعل الأحرف هي القراءات، والقراءات هي الأحرف في عددها.

قال أبو شامة: «ظن قوم أنَّ القراءات السبع الموجودة الآن هي التي أريدت في الحديث[٤]. وهو خلاف إجماع أهل العلم قاطبة وإنما يظن بعض الجهال[٥]».

ولخطورة هذا الخلط والغبط في العدد فقد تناوله الدكتور محي الدين خليل الريح بالبحثِ المشبع الذي لا مزيد عليه، فقال في بحث كامل بعنوان: «كلمتان بين المفسرين والمحدثين وأهل اللغة (سبعة) و(سبعين)، فقد قرر بعد استعراض شامل، وخلص إلى القول: «إننا نجد أنَّ المعاجم اللغوية على كلمة سواء فيما يختص بالسبعين والسبعمائة وهو أنهما تكررتا في القرآن الكريم والحديث الشريف، والعرب تضعهما موضع التضعيف ولا تريد معناهما اللغوي في كثير من الأحيان، ولكن هذه المعاجم لا تلتقي على كلمة سواء فيما يختص بالسبعة «والسبع» رغم تكرارهما في القرآن والحديث ولغة العرب[٦].

---

(١) انتبه أنَّ الرقم سبع هو المعني بوضع بشري، أمَّا القراءات فهي ربانية المصدر.

(٢) هو أحمد بن موسى بن العباس التميمي أبو بكر بن مجاهد، من أشهر علماء القراءات في عصره، من أهل بغداد، وكان حسن الأدب، توفي عام ٣٢٤ هـ. الأعلام للزركلي (١/ ٢٤٦)

(٣) انظر النشر في القراءات العشر لابن الجزري (١/ ٩٢).

(٤) روي البخاري في صحيحه ص٨٠ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال إنَّ رسول الله ﷺ قال «أقرأني جبريل على حرف فراجعته فلم أزل أستزيده، ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف»

(٥) كتاب المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز لأبي شامة المقدسي ص١٤٦

(٦) انظر ص١٦

مدى اشتمال المصاحف العثمانية على الأحرف السبعة:

اختلفت الأقوال في إثبات عثمان بن عفان رضي الله عنه للأحرف السبعة، فمنهم من أثبتها، ومنهم من نفاها[1]، وقبل الخوض في هذا الموضوع نبادر إلى القول أن كلا الفريقين يسلم بحقيقتين لا مجال للشك فيهما:

أولهما: أنَّ القرآن الذي بين أيدينا سالم من الزيادة والنقصان سواء قلنا بوجود الأحرف فيها أم بإحراق عثمان لها.

ثانيهما: أنَّ كلا الفريقين مسلم بنزول القرآن في عهد النبي ﷺ على سبعة أحرف. بيد أنَّ الخلاف بقي محتدمًا في مدى شمول القرآن الكريم الذي كتبه عثمان للأحرف أو عدم شموله ذلك؟.

أقولُ: إنَّ مرد هذا الخلاف راجع إلى تحديد المراد بالأحرف السبعة. فالقائلونَ بأنّها أوجه سبعة يقعُ بها التغاير، والقائلونَ بأنّها سبع لغات من لغات أو لهجات القبائل العربية، هؤلاء جميعًا قالوا بوجود الأحرف السبعة في القرآن الكريم فالأوجه السبعة المذكورة بأمثلتها موجود منها ما هو متواتر في المصاحف المتعددة التي نسخها عثمان وبعث بها إلى الأمصار.

وقد احتج هؤلاء بالإجماع من قبل الصحابة على ما فعله عثمان.الذي نسخ القرآن من المصحف عينه الذي كان موجودًا عند حفصة، وهو المصحف عينه الذي كان موجودًا عند أبي بكر، وهو عين المصحف الذي كتب أمام رسول الله ﷺ على الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن والتي عرضها النبي ﷺ مرتين في رمضان على جبريل عليه السلام.

وأمّا القائلون بأنّها سبع لغات بمثل ما فسرها ابن جرير بأنّها مترادفات سبع -اختلاف الألفاظ واتحاد المعنى- فإن هذا الفريق يرى أنَّ الأحرف السبعة غير موجودة في القرآن، وانقل إليكَ كلمة ابن جرير الطبري في

---

(١) النشر في القراءات العشر لابن الجزري (١/ ٨٥).

مقدمة تفسيره معبرًا عن وجهة نظره ونظرهم أوضح تعبير.

يقولُ ابن جرير: «والآثار الدالة على أنَّ إمام المسلمين وأمير المؤمنين عثمان بن عفان رحمة اللّه عليه جمعَ المسلمين نظرًا منه لهم وإشفاقًا منه عليهم ورأفة منه بهم، حذار الردة من بعضهم بعد الإسلام والدخول في الكفرِ بعد الإيمان، إذ ظهرَ ممن بعضهم بمحضره، وفي عصرِه التكذيب ببعض الأحرف السبعة التي نزل عليها القرآن مع سماع أصحاب رسول اللّه ﷺ النهي عن التكذيب بشيء منها وإخبارِه إياهم أنَّ المراء فيها كفر، فحملهم رحمة اللّه عليه إذ رأي ذلك ظاهرًا بينهم في عصرِه وبحداثة عهدهم بنزول القرآن على حرف واحد، وجمعهم على مصحف واحد أو حرف واحد، وحرق ما عدا المصحف الذي جمعهم عليه، عزم علي كل من كان عنده مصحف مخالف المصحف الذي جمعهم عليه، أن يحرقه فاستوثقت له الأمة على ذلك بالطاعة، ورأت أنَّ فيما فعل من ذلك الرشد والهداية، فتركت القراءة بالأحرف الستة التي عزم عليها إمامها العادل في تركها طاعة منها له، ونظرًا منها لأنفسها ولمن بعدها من سائر أهل ملتها حتى درست من الأمة معرفتها، وتعفت آثارها فلا سبيل لأحد اليوم إلى القراءة بها[1]».

ثم يقول: «فلا قراءة اليوم للمسلمين إلّا بالحرف الواحد الذي اختاره لهم إمامهم الشفيق الناصح دون ما عداه من الأحرف الستة الباقية»، وابن جرير بعد هذا الكلام يرد على اعتراض مفترض فيقول: «وكيف جاز لهم ترك قراءة اقرأهموها رسول اللّه ﷺ وأمرهم بقراءتها؟». يجيبُ على ذلك: «قيل إنَّ أمره إيّاهم بذلك لم يكن أمر إيجاب وفرض وإنما كان أمر إباحة ورخصة، لأنَّ القراءة بها لو كانت فرضًا عليهم لوجبَ أن يكون العلم بكل حرف من تلك الأحرف فرضًا وليس الأمرُ كذلك»[2].

---

(١) جامع البيان في تأويل آي القرآن (١/ ٢١).

(٢) مرجع سابق (١/ ٢٢).

وقد لاقى رأي الإمام الطبري معارضة قوية عند الأقدمين والمحدثين وقد تكلم الرزقاني كلامًا طويلًا في الرد على من قالوا إنَّ الباقي الآن حرف من السبعة التي نزل بها القرآن، أمَّا الستة الأخرى فقد ذهبت ولم يعد لها وجود ألبتة، ونسوا أو تناسوا تلك الوجوه المتنوعة القائمة في القرآن على جبهة الدهر إلى اليوم، ثم حاولوا أن يؤيدوا ذلك فلم يستطيعوا أن يثبتوا للأحرف الستة التي يقولون بضياعها نسخًا ولا رقمًا، وأسلمهم هذا العجز إلى ورطة أخرى. هي دعوى إجماعَ الأمة على أنَّ تثبت حرف واحد، وأن ترفض القراءة بجميع ما عداه من الأحرف الستة، وأنَّى يكون لهم هذا الإجماع ولا دليل عليه؟ هنالك احتالوا على إثباته بورطة ثالثة، وهي القول بإنَّ استنساخ المصاحف في زمن عثمان ﷺ كان إجماعًا من الأمة على ترك الحروف الستة، والاقتصار على حرف واحد هو الذي نسخ عثمان المصاحف عليه، وقصارى ما استطاعوا أن يسوغوا به مذهبهم وتورطاتهم هذه، أنَّ الأمة على عهد عثمان ﷺ قد اختلفت في قراءات القرآن إلى حد جعلهم يتنازعونَ ويترامونَ بتكفيرِ بعضهم بعضًا، حتى خيفت الفتنة، فرأى الصحابة بقيادة خليفتهم الحكيم عثمان ﷺ أن يعالجوا المشكلة ويطفئوا الفتنة، وبهذه الطريقة جمع الناس على حرف واحد، ونسخ المصاحف على حرف واحد وإهمال كل ما عداه من الحروف والمصاحف المنسوخة عليها.

وهذا -لعمرك- استناد مائل، واحتجاج باطل. فقد تنازعَ الناس على عهد الرسول ﷺ أيضًا في قراءات القرآن على حروف مختلفة، ومع ذلك أقرهم الرسول على هذه الحروف المختلفة، وقررها فيهم، وحملهم على التسليم بها في أساليب متنوعة. وجعل ذلك هو الحل الوحيد لمشكلتهم، والعلاج الناجح لنزاعهم وأفهمهم أن تعدد وجوه القراءة إنما هو رحمة من الله بهم، وقرر في صراحة وهو يسأل مولاه المزيد من عدد الحروف أن

الأمة لا تطيق حصرها في مضيق حرف واحد، وقال: «**إن أمتي لا تطيق**» إلى آخر ما عرفت، وأنت خبير بأن أمة محمد ﷺ باقية إلى يوم القيامة. وهي لا تطيقُ ذلك كما قرر رسولها المعصوم الرحيم صلوات اللّه وسلامه عليه. كما نشاهد نحنُ الآن من أنَّ بعض الألسنة في بعض الشعوب الإسلامية، لا يتيسرُ لها أن تحسنَ النطق ببعض الحروف ولا ببعض اللهجات دون بعض فكيف يسوغ للصحابة وهم خير القرون، أن يغلقوا باب الرحمة والتخفيف الذي فتحه اللّه لأمَّة الإسلام مخالفينَ في ذلك هدي الرسول عليه الصلاة والسلام في عمله للتخفيف بطلبِ تعدد الحروف، وعلاجه للنزاع بين المختلفينَ بتقرير هذا التعدد للحروف؟.

إلَّا أنَّ هذه ثغرة لا يمكن سدها، وثلمة يصعب جبرها، وإلَّا فكيفَ يوافق أصحاب رسول اللّه ﷺ على ضياعِ ستة أحرف نزل عليها القرآن دون أن يبقوا عليها مع أنَّها لم تنسخ ولم ترفع؟ وعلى حين أنَّ الرسول ﷺ قرر بقوله وفعله، أنَّه لا يجوزُ لأحد أيًا كان أن يمنعَ أحدًا أيًا كان من القراءة بحرف من السبعة أيًا كان. فقد صوب قراءة كل من المختلفين وقال لكل: «هكذا نزلت» وضربَ في صدرِ أبيّ بن كعب حين استصعبَ عليه التسليم بهذا الاختلاف في القراءة[1].

وقصارى القول، أننا نربأ بأصحاب الرسول ﷺ أن يكونوا قد وافقوا أو فكروا، فضلًا عن أن يتآمروا على ضياعِ أحرف القرآن الستة دون نسخ لها.

وحاش لعثمان رضي الله عنه أن يكون قد أقدم على ذلك وتزعمه، وكيف ينسب إليه هذا؟.

والمعروف أنَّه نسخَ المصاحفَ التي جمعت على عهد أبي بكر رضي الله عنه قبل أن يدب النزاعُ في أقطار الإسلام بسبب اختلاف حروف القراءة في

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١/ ٥٦٢).

القرآن. فكانت تلك الصحف محتملة للأحرف السبعة جميعًا، ضرورة أنَّه لم يحدث وقتئذ من النزاع والشقاق ما يدعو إلى الاقتصار على حرف واحد في رأيهم، ولم يثبت أنَّ الصحابة تركوا من الصحف المجموعة على عهدِ أبي بكر حرفًا واحدًا فضلًا عن ستة أحرف ولو كان ذلك لنقل إلينا متواترًا، لأنَّه مما تتوافرُ الدواعي على نقله.

ثم كيفَ يفعل عثمان ﷺ ذلك وهو الذي عرفَ أنَّ علاج الرسول لمثل هذا النوعُ الذي رب في زمانه، كان بجمع الناس وتقريرهم على الحروف السبعة لا بمنعهم عنها كلًا ولابعضًا.

ثم كيفَ يفعلُ عثمان ذلك، وتوافقة الأمة، ويتم الإجماع؟ ثم يكون خلاف في معنى الأحرف السبعة مع قيام هذا الإجماع؟.

أي كيفَ تجمعُ الأمة على ترك ستة أحرف وإبقاء حرف واحد ثم يختلف العلماء في معنى الأحرف السبعة على أربعين قولًا. ويكادونَ يتفقون -رغمَ خلافهم هذا- علىَ أنَّ الأحرف السبعة باقية، مع أنَّ الإجماع حجة عند المسلمين، وبه ينجلي ظلام الشك عن وجه اليقين.

ولنفرض جدلًا أنَّ نزاع المسلمين في أقطار الأرض أيام خلافة عثمان ﷺ، قضى عليه أن يجمعَ المسلمين على حرف واحد في القراءة، فلماذا لم تسمح نفسه الكريمة بإبقاء الستة الأحرف الباقية للتاريخ لا للقراءة، مع أنَّ الضرور تقدر بقدرها، وهذه الستة أحرف لم تنسخ لا تلاوة ولا حكمًا حتى تذهب بجرة قلم كذلك، ثم يبخل عليها بالبقاء للتاريخ وحده في أعظم مرجع، وأقدس كتاب، وهو القرآن الكريم[1].

* * *

(١) مناهل العرفان للزرقاني (١/١٤٢ - ١٥٠).

المبحث الخامس

القراءات القرآنية

أولاً: تعريف القراءات:

معناها اللغوي: القراءات جمع قراءة، وهي مصدر من قرأ يقرأ قراءة وقرآنًا، واسم الفاعل منه قارئ وجمعه قراء.

ويطلق لفظ قرأ ويراد منه عدة معان: فإذا قلت: قرأتُ القرآن معناه لفظتُ به مجموعًا أي ألقيته، وأقرأتُ حاجتك إذا دنت، وقرأتُ الشيء قرآنًا إذا جمعته وضممت بعضه إلى بعض.

معناها الاصطلاحي: قال الزركشي: القراءات اختلاف ألفاظ الوحي المذكور في الحروف وكيفيتها من تخفيف وتشديد وغيرها[1].

أمّا ابن الجزري فعرفها: «بإنّها علم بكيفية أداء كلمات القرآن واختلافها بعزو الناقلة[2]».

وهذا التعريف اعتمده كثير من المؤلفين في علم القراءات.

وهناك من عرف القراءات: «بأنّها مذهب يذهب إليه المقرئ»، وهو وإن كان مقصوده ما ذهب إليه العلماء أنَّ مبنى ما ذهب إليه القارئ هو الوحي والسماع إلّا أنَّ المستشرقينَ قد جعلوا من مثل هذا التعريف مأربًا خبيثًا للصيدِ في الماء العكر، إذ رأوا أن اختلاف القراءات مبناه اختلاف القراء وفق هواهم ومعتقداتهم وراحوا يقيسونَ اختلاف الأناجيل على اختلاف الروايات في القراءات[3].

ومع كل الأسف فقد وجدنا ممن شايعهم من ذهبَ إلى مثل أقوالهم،

---

(١) البرهان في علوم القرآن (٣١٨/١).

(٢) ابن الجزري هو الحافظ أبو الخير الدمشقي توفي سنة ٨٣٣ هـ.

(٣) انظر المذاهب الإسلامية لجولد زيهر ص٥٣ .

ولعل في تعريف الزركشي ما أجلى هذه الحقيقة وما يبعد هذه الشبهة إذ قال عن القراءات واختلافها: إنها اختلاف ألفاظ الوحي... فهذا التعريف يلقي الضوء على أنَّ مبنى القراءات الوحي النازل من السماء، وقد تبعه علماء القراءات -قديمًا وحديثًا في تجلية هذه الحقيقة، فجاءوا بتعريفات واضحة وناصعة، فعرفوا القراءات: «بأنَّها النطق بألفاظ القرآن كما نطقها النبي ﷺ».

ومثل هذا التعريف: «تلاوة ألفاظ القرآن الكريم كما تلاها المصطفى ﷺ أو كما علمَّها أو سمعها منه أصحابه وأقرهم عليها»(١). وكلها تعريفات قريبة مما ذكره الزركشي، فاختلاف ألفاظ الوحي هي مثل النطق بألفاظ القرآن كما نطقها النبي ﷺ ومثل تلاوة القرآن كما تلاها النبي ﷺ وصدق اللّه العظيم: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾(٢).

نشأة القراءات:

هذا العنوان الذي يستعمله كثير من المؤلفين عن حسن قصد، ويؤكده المستشرقونَ لغرض في نفوسهم، فيه نظر: ذلك أنَّ القراءات المتواترة قرآن لا شك فيه، فقوله: ﴿مالك يوم الدين﴾ و ﴿ملك يوم الدين﴾ بالألف وبدونها، و﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ و﴿اهدنا السراط المستقيم﴾، بسينها وصادها، وكل قراءة قرآنية متواترة، كل ذلك قرآن وهو قديم فلا يقالُ لقراءة منه نشأت لأنَّ ذلك يشعر بالحداثة لبعضها في وقت من الأوقات.

لذا أرى في استعمالِ المؤلفينَ المخلصينَ هذا العنوان تجاوزًا -إن صحَّ التعبير- وأرى في استعمال المستشرقينَ له مقصدًا خبيثًا، ونحنُ قد رأينا فيما أومأنا إليه سابقًا من تعريف القراءات بإنَّها اختلاف ألفاظ الوحي، مما

---

(١) إتحاف الفضلاء ص٥ .
(٢) النجم: ٣ .

يشيرُ إلى أنَّ القراءة قرآن لا تنفكُ قرآنيتها عنه ما دامت قد تواترت، فلا يقالُ لها ناشئة إلّا إذا قيل للقرآن ناشئًا، وليس الأمرُ كذلك فقد نزل الوحي بالقراءة فيما ورد في بعض ألفاظه أكثر من قراءة، بل حين بدأ نزول الوحي بدأها بأول كلمة في أول سورة نزلت هي (اقرأ) ففيها قراءتان متواترتان:

الأولى: هي قراءة الجمهور بهمزة ساكنة.

والثانية: قراءة عاصم بحذف الهمزة (اقرا يقرا كسعى يسعى)، وإنه لأمر يسترعي الانتباه أن تكون أول كلمة في أول سورة نزلت كلمة اقرأ وأن يكون القرآن والقراءات مشتقًا من مشتقاتها.

بعد هذا التمهيد أرى أن الحديث عن مصدر القراءات هو الحاسم لكثير من الشبه والأضاليل التي يتمسك بها المستشرقونَ والتي كان لأقوال بعض المفسرين وبعض العلماء قدر غير يسير في الإسهام في مد أولئكَ الملحدينَ بشيء من أسباب الضلالة من غير قصد منهم -رحمهم اللَّه- لما لم يلزموا جانب الحيطة والحذر وأقصى غايات الحذر في هذا الأمر الجلل، فقد أمدوا -من حيث لا يشعرون- من في قلبه مرض واستعداد طبيعي لاتخاذ كل شاردة وواردة من القول صيدًا ثمينًا، وفرصة ذهبية للنيل من مقدسات هذه الأمة وقرآنها.

أقولُ: إنَّ المصدر الوحيد للقراءات، إنما هو الوحي النازل من السماء إلى النبي عليه الصلاة والسلام الذي بلّغه بكل دقة وبكل حركةَ إلى أصحابه الكرام، فكان يقرئهم إيّاه كما أنزلَ كما روي ابن مسعود أنَّ النبي ﷺ كان يقرئهم العشر فلا يجاوزونها إلى عشر أخرى حتي يتعلموا ما فيها من العلم والعملِ، فإذا ما علمهم القرآن، فأتقنوا تلاوته، أحب أن يسمعه منهم توثيقًا لما سمعوه عنه.

روي البخاري ومسلم عن ابن مسعود ﵁ قال: قال لي رسول اللَّه ﷺ: **«اقرأ علي القرآن»**، فقلتُ: يا رسول اللّه أقرأ عليك وعليك أنزل،

قال: «إني أحبُ أن أسمعه من غيري»، فقرأتُ عليه سورة النساء... حتى إذا جئت إلى هذه الآية:

﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا﴾[1].

قال: «حسبك الآن» فالتفتُ إليه فإذا عيناهُ تذرفان. فالنبي ﷺ كان يتعهد أصحابه بتعليم القرآن وحفظهِ حتى أصبحت صدورهم سجلًا لما نزل من الحق، وربما علم النبي عليه الصلاة والسلام -بعض أصحابه قراءة لم يسمعها بعض أصحابه، فيقرأ بعضهم القرآن على القراءة التي سمعها، ويقرأ آخر على قراءة غيرها سمعها من النبي ﷺ، فيسمعُ أحدهما الآخر فينكرُ عليه عدمَ سماعه لها من الرسول ﷺ.

ففي البخاري، ومسلم أنَّ عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعتُ هشامَ بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة النبي ﷺ فاستمعتُ لقراءته فإذا هو يقرأها على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله ﷺ، فكدتُ أساوره في الصلاة، فانتظرتُه حتي سلّم، لم لَبَبْتُهُ بردائه أو بردائي، فقلتُ من أقرأك هذه السورة؟ قال: أقرأنيها رسول الله ﷺ، قلتُ له: كذبت، فوالله إنَّ رسول الله ﷺ أقرأني هذه السورة التي سمعتك تقرؤها، فانطلقتُ أقوده إلى رسول الله ﷺ فقلتُ يا رسول الله: إني سمعتُ هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها، وأنتَ أقرأتني سورة الفرقان فقال رسول الله ﷺ: «أرسله يا عمر، اقرأ يا هشام» فقرأ هذه القراءة التي سمعته يقرؤها، قال رسول الله ﷺ: «هكذا نزلت» ثم قال: «إنَّ هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرءوا ما تيسر منه»[2].

---

(١) النساء: ٤١ . والحديث في صحيح البخاري. كتاب تفسير القرآن. باب «فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد» الآية، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها. باب فضل استماع القرآن، وطلب القراءة من حافظ للاستماع، والبكاء عند القراءة والتدبر (١/ ٥٥١).

(٢) صحيح البخاري. كتاب فضائل القرآن. باب أنزل القرآن على سبعة أحرف، ومسلم في صحيحه. كتاب صالة المسافرين وقصرها. باب بيان أنَّ القراءة على سبعة أحرف، وبيان معناه (١/ ٥٦٠).

وروى مسلم عن أبي بن كعب قال: «كنتُ في المسجد فدخل رجل يصلي فقرأ قراءة أنكرتها عليه، ثم دخل آخر فقرأ قراءة سوى قراءة صاحبه فلمّا قضيا الصلاة دخلنا جميعًا على رسول الله ﷺ فقلتُ: إنَّ هذا قرأ قراءة أنكرتها عليه، ودخل آخر فقرأ قراءة سوى قراءة صاحبه، فأمرهما رسول الله ﷺ فقرآ، فحسّن النبي ﷺ شأنهما...»[1] الحديث.

فمن حديث عمر وهشام رضي الله عنهما يتبين لنا أنَّ تعدد القراءات سببه واحد هو أنَّ رسول الله ﷺ أقرأ كلا منهما علي قراءة، وكلتا القراءتين أنزلت من عند الله تعالى.

ومن حديث أبي بن كعب رضي الله عنه أنَّ عدد القراءات ثلاث وكلها حسنها رسول الله ﷺ لأنَّها متلوة من الوحي، جعلها الله من باب التهوين والتسهيل على أمته.

يقول الشيخ الزرقاني رحمه الله: «ثم إنَّ الصحابة رضوان الله عليهم قد اختلف أخذهم عن رسول الله ﷺ فمنهم من أخذ القرآن عنه بحرف واحد، ومنهم من أخذه عنه بحرفين، ومنهم من زاد، ثم تفرقوا في البلاد وهم على هذه الحال، فاختلف سبب ذلك أخذ التابعين عنهم وأخذ تابعي التابعين وهلم جرا، حتى وصلَ الأمرُ على هذا النحو إلى الأئمة القراء المشهورين الذين تخصصوا وانقطعوا للقراءات يضبطونها ويعنون بها وينشرونها[2]».

إذن فالأمرُ في تعدد القراءات أمر أخذ ونقل من الوحي فلا يجوزُ لمسلم أن يعزو أية قراءة لغير ذلك، كما صنعَ المستشرق (جولد زيهر) وغيره من المستشرقين الذين عزوا القراءات إلى القارئين الذين مارس كل

---

(١) صحيح مسلم. كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب بيان أنَّ القرآن على سبعة أحرف (١/ ٥٦١).

(٢) مناهل العرفان (١/ ٤٠٦).

واحد منهم القراءة القرآنية ليصحح القرآن، وأنَّ القارئ يقرأ وفق ما يحتمله الرسم القرآني الخالي من النقط والشكل.

يقول جولد زيهر: «وترجعُ نشأة قسم كبير من هذه الاختلافات أي في القراءات إلى خصوصية الخط العربي الذي يقدم هيكله مقادير صوتية مختلفة، تبعًا لاختلاف النقط الموضوعة فوق هذا الهيكل أو تحته، وعدد تلك النقاط، بل كذلك في حالة تساوي المقادير الصوتية يدعو اختلاف الحركات الذي لا يوجد في الكتابة العربية الأصلية ما يحدده، إلى اختلاف مواقع الإعراب للكلمة، وبالتالي إلى اختلاف دلالتها، وإذًا فاختلاف تحلية هيكل الرسم بالنقط، واختلاف الحركات في المحصول الموّحد القالب من الحروف لم يكن منقوطًا أصلًا، أو لم تتحر الدقة في نقطة أو تحريكه[1]».

وقد أرجعَ الدكتور عبد العال سالم أساس هذا الزعم إلى الزمخشري وقال: «إن مصدر الوحي لهذا المستشرق جولد زيهر إنما هو الزمخشري الذي قال بخطأ ابن عامر في قراءته للآية القرآنية[2]».

فقد زعم الزمخشري أنَّ الذي حمل ابن عامر على قراءته أنَّه رأى في بعض المصاحف (شركائهم) مكتوبًا بالياء، والسبب هو الرسم. اهـ.

أقول: ونحنُ إذ نضعُ في الاحتمال أن يكون الزمخشري أثر في قول زيهر إلَّا أننا نجزم أن مراد كل منهم يختلف عن الآخر إذ يهدف زيهر للوصول إلى قياس تعدد القراءات على تعدد الأناجيل وهذه خطيئة ما نظنُّ أنَّ الزمخشري يقعُ في مثلها.

وفي ضوء دراسة هذه الردود يمكن إيجازها في الأمور التالية:

أولاً: إنَّ الاعتماد في نقل القرآن على حفظ القلوب والصدور لا على

---

(١) مذاهب التفسير ص٨.

(٢) أثر القراءات القرآنية في الدراسات النحوية ص٢٥.

خط المصاحف والكتب، فإنَّ القراءات وجدت قبل مرحلة تدوين المصاحف وكتابتها، وبعد تدوينها كانت في البداية غير منقوطة ولا مضبوطة الشكل ومع ذلك كانت القراءات معروفة ومنتشرة وكانوا يقرءونَ الآيات حسب السماع والرواية لا حسب الرسم والكتابة.

ثانيًا: لو كانت القراءة تابعة للرسم لصحت كل قراءة يحتملها رسم المصحف، ولكن الأمرَ على غير ذلك، فإنَّ بعضَ ما يحتملُ الرسم صحيح مثل (فتثبتوا) في قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ...﴾[1] الآية.

وبعضه مردود مثل قراءة حماد الراوية (أباه) في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ...﴾[2] الآية.

وكذلك قراءة: «يستكثرون» في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾[3].

وهذه وتلك قراءة منكرة بالاتفاق فليست من السبع ولا الأربع عشرة ولو كان مجرد الخط والرسم كافيًا لاعتمدت.

وعلى مثل هذه القراءات المنكرة اعتمد جولد زيهر في الاستدلال على قضيته الباطلة ودعواهُ الخبيثة ضد القرآن الكريم.

ثالثًا: لقد ثبتَ بالتاريخ الصحيح أننا لا نزالُ نرى الكثير من المقرئين حتى يومنا هذا يعطونَ تلاميذهم بعد أن يتموا حفظ القرآن على أيديهم إجازة تتضمنُ سند التلقي المتصل عنهم إلى النبي ﷺ وأن كثيرًا من الأسانيد الصحيحة المتصلة مدونة محفوظة في كتب القراءات فما ينكر هذا إلَّا جاهل أو مكابر.

---

(١) النساء: ٩٤.

(٢) التوبة: ١١٤.

(٣) الأعراف: ٤٨.

كذلك إذا نظرنا إلى الأمصار الإسلامية وجدنا أنَّ كل مصر التزمَ قراءة قارئ بعينه مع احتمال رسم المصحف لهذه القراءة، وأنَّ القراء انتشروا في هذه الأمصار ليعلموا الناس قراءة القرآن إيمانًا منهم بأنَّ المصحف وحده لا يغني شيئًا في مجال القراءة وبخاصة أنَّه مجرد من النقط والشكل.

يقول الشيخ الزرقاني: «لذلك اختارَ عثمان حفاظًا يثق بهم وأنفذهم إلى الأقطار الإسلامية، واعتبرَ هذه المصاحف أصولًا ثواني مبالغة في الأمر وتوثيقًا في القرآن ولجمع كلمة المسلمين، فكان يرسل إلى كل إقليم مصحف مع من يوافق قراءته في الأكثر الأغلب، روي أنَّ عثمان ﷺ أمر زيد بن ثابت أن يقرأ بالمدني، وبعث عبد الله بن السائب مع المكي، والمغيرة بن شهاب مع الشامي، وأبا عبد الرحمن السلمي مع الكوفي، وعامر بن عبد القيس مع البصري[(١)].

فلو كان الاعتمادُ على المصحف لما كلف أمير المؤمنين نفسه بإرسال أولئكَ القراء إلى تلك الأمصار، وملاحظة أن اختيار القارئ كان موافقًا لرسم المصحف المرسل إلى ذلك البلد، وهذا يؤكد أنَّ دعامة قراءة القرآن هي التلقي والرواية.

وإذا كان للمستشرقينَ عذرهم في تعصبهم للباطل وحقدهم الدفين ضد الإسلام ومبادئه، فما عذر من جاراهم من المسلمين وقال: بأنَّ القراءات القرآنية منشؤها الخط العربي حسب رسمها في المصحف العثماني ومن هؤلاء الدكتور على عبد الواحد وافي[(٢)]، وتبعه في ذلك الدكتور طه حسين في صورة أكثر بشاعة وأشد خطرًا إذ هو ينكر على المعتقد بشرعية القراءات وأنَّها ليست من الوحي وإنما مصدرها اللهجات واللغات.

---

(١) المناهل (١/٩٦).

(٢) فقه اللغة ص١١٩ .

يقول طه حسين: «والحق أنَّه ليست هذه القراءات السبع من الوحي في قليل ولا كثير وليس منكرها كافرًا ولا فاسقًا ولا مغتمزًا في دينه، وإنما هي قراءات مصدرها اللهجات واختلافها[1]».

وقد نهج الدكتور محمد عبد السلام كفافي نهج طه حسين فقال: «وهناك سبب قوي لظهور القراءات لأنَّ مصحف عثمان كتب بغير نقط ولا شكل[2]».

والحق الذي لا يمارى فيه أنَّ القراءات سنة متبعة نقلت بالرواية والمشافهة من في رسول الله ﷺ وهي قرآن لا تنفك عنه، وهي ليست مغايرة له بل هي ألفاظ مختلفة نزل بها الروح الأمين بعرضات متعددة، ولم تكن القراءات وليدة خط أو رسم أو عدم شكل وضبط لكتاب الله تعالى ومن يقول بهذا فهو ضال مضل لسوء نيته وخبث قصده سواء كان (جولد زيهر) أو من سار على دربه، والذي يمعن النظر في كلام زيهر مثلًا يجد له أبعادًا وأهدافًا، وقد استوفيناه في بحث خاص بالقراءات، نشر في مجلة البحوث الإسلامية بالرياض، العدد[٣٥]، ويحول منهج الدراسة عن الكلام بأكثر مما قلناه.

أركان القراءات:

يجدرُ التنويه لأمر، وهو أنَّ ركن القراءة الوحيدة هو صحة السند لا غير وأن إضافة الركنين الأخيرين لم يأت إلَّا في وقت متأخر كما ذكره الأستاذ سعيد الأفغاني في تحقيقه لكتاب حجة القراءات لأبي زرعة وقد وصفَ السفاقسي اشتراط غير صحة السند بإنَّه قول محدث لا يعول عليه.

بعد هذا التنويه والتنبيه نقول: «إن كان الحديث عن القراءات ومعناها قد كثر فيه الخلاف والاختلاف بين أئمة هذا العلم، فإنَّ الحديث عن

---

(١) الأدب الجاهلي ص٩٦ .

(٢) في علوم القرآن ص١٠٧ .

أركانها أكثر اختلافًا، فبعضهم يشترطُ لقبول القراءة أركانًا ثلاثة، ومنهم من يكتفي بركنين، ومنهم من يقتصر على ركن واحد، والقائلونَ بالأركان الثلاثة يتفاوتون في الأخذِ بكل ركن منها، وسأضعُ بين يديكَ هذه الأركان الثلاثة كما نظمها أحد أئمة هذا الشأن شعرًا فقال:

فكل ما وافق وجه نحو وكان للرسم احتمالًا يحوي
وصح إسنادًا هو القرآن فهذه الثلاثةُ الأركان
وحيثما يختلُ ركن أثبتا شذوذه ولو أنّه في السبعة[1].

فهذه الأركان الثلاثة وسأبدأ بأهمها بل المجمع على اشتراطه ألا وهو:

١- صحة السند:

هذا أول الأركان المعتبرة بل هو الذي يستهل به العلماء حديثهم عن أركان أو شروط القراءات.

فابن مجاهد شيخ هذه الصنعة إذ هو أول من سبع السبعة قد قال: «والقراءة التي عليها الناس بالمدينة ومكة والكوفة والبصرة والشام هي القراءة التي تلقوها عن أوليهم تلقينًا، وقام بها في كل مصر من هذه الأمصار رجل ممن أخذ عن التابعين أجمعت الخاصة والعامة على قراءته، وسلكوا فيها طريقه وتمسكوا بمذهبه[2]». فلا يمكن اعتبار القراءة القرآنية إلّا إذا كانت قد أخذت بطريق التلقي والمشافهة، وهذا ما يؤكده في موضع آخر إذ يقول: «فهؤلاء سبعة نفر من أهل الحجاز والعراق والشام خلفوا في القراءة التابعين وأجمعت على قراءتهم العوام من أهل كل مصر من هذه الأمصار».

فابن مجاهد يشترط لقبول القراءة صحة السند وإلى ذلك ذهب جمهور العلماء المحققين كابن شبنوذ والإمام أبو الحسن البغدادي وابن خالويه

(١) من منظومة ابن الجزري في كتابه النشر.
(٢) كتاب السبعة ص٤٩ .

ومكي بن أبي طالب والإمام الكواشي والإمام أبو شامة[1]».

ولم يشذ عن إجماع هؤلاء العلماء إلّا محمد بن يعقوب المتوفى سنة ٣٥٤ هـ، فإنّه لم يشترط السند واكتفى بقبول القراءة بشرطين: موافقة الرسم وموافقة اللغة العربية، وأسقط صحة السند، وفي ذلك يقول ابن الجزري: «وله» أي «المذكور» اختيار في القراءة ورويناهُ في الكامل وغيره رواه عنه أبو الفرج الشنبوذي ويذكرُ عنه أنّه كان يقول: إنَّ كل قراءة وافقت المصحف ووجها في العربية فالقراءة بها جائزة وإن لم يكن لها سند[2]».

والحق أنَّ هذه هفوة من الهفوات التي لا يرتضيها شرع ولا عقل وهي من أفسد الأقوال، فالقراءات قد تزداد وتنقص وفق احتمال موافقتها للغة وللرسم القرآني، وبالتالي فهي وفق هوى واجتهاد لأئمة اللغة وليس الأمرُ كذلك.

٢- موفقة القراءة للرسم العثماني:

ذهب كثير من العلماء المتأخرين إلى اعتبار هذا الشرط وقد ذكره أبو الفرج الشنبوذي أول الشروط المعتبرة إذ يقول: «إنَّ كل قراءة وافقت رسم المصحف ووجهًا في العربية فالقراءة بها جائزة».

ويفهم مما وردَ في كتاب «السبعة في القراءات» عدم اشتراطه إذ يقول: «فمن حملة القرآن المعرب العالم بوجوه الإعراب والقراءات، العارف باللغات ومعاني الكلمات، البصير بعلم القراءات المنتقد للآثار، فذلك الإمام الذي يفزع إليه حفاظ القرآن في كل مصر من أمصار المسلمين[3]».

فهذا الكلام يدلنا على شرطين لا ثالث لهما: «وهما صحة السند

---

(١) المرشد الوجيز ص١٨٠ .
(٢) غاية النهاية، لابن الجزري (٢/ ١٢٤).
(٣) كتاب السبعة ص٤٥ .

وموافقة العربية وأسقطَ موافقة الرسم وذهبَ إلى ذلك الإمام أبو الحسن البغدادي شيخ القراء بالعراق فأسقطَ موافقة القراءة للرسم العثماني».

وقد توسع بعض العلماء في موافقة القراءة للرسم العثماني، فرأى احتمال الموافقة كافيًا، بل توسع بعضهم فرأى موافقة القراءة للرسم وحده وإن لم تتواتر.

ونحنُ إذ نرد القراءة التي لم توافق الرسم إلّا أننا لا نقبلها لمجرد موافقتها الرسم.

٣- موافقة القراءة للغة:

ابتدأ بذكره صاحب النشر فجعله أول الشروط، وثنى بذكرِه مكيّ بن أبي طالب والإمام الكواشي وجعله ثاني الشروط بعد صحة السند، وقد قيد كل منهم هذا الشرط بقيد يختلف عن الآخر، فبينما يكتفي الكواشي بشرط موافقة القراءة للغة لأي وجه من الوجوه، نرى مكي بن أبي طالب يشترطُ أن يكون وجهه في العربية التي نزل بها القرآن شائعًا.

وذهب أبو الفرج الشنبوذي إلى تأييد رأي الكواشي في التساهل والاكتفاء بموافقة القراءة لأي وجه من الوجوه اللغوية سواء أكان الوجه فصيحًا مجمعًا عليه أم كان مختلفًا فيه اختلافًا لا يضيرُ مثله كما يقولون.

نظرة إلى الأركان:

لو تأملنا هذه الأركان لوجدناها أركانًا تخضعُ لاستقراء العلماء واستنباطهم فمنهم من جعلها ركنًا واحدًا، ومنهم من جعها ركنين مع اختلاف في تحديد الركنين، ومنهم من جعلها ثلاثة أركان وأضافَ الموافقة للغة، وفي كل شرط خلاف، ففي السند: من العلماء من ذهب إلى اشتراط التواتر ومنهم من اشترط الشهرة، ومنهم من اكتفى بصحة السند ولو نقل آحادًا.

وفي موافقة الرسم: منهم من اشترط الموافقة تحقيقًا، ومنهم من قبلها

ولو تقديرًا أو احتمالًا، وفي موافقة اللغة كلام استوفيناهُ في موضعه.

والذي لا شك فيه بل المجمع عليه هو صحة السند بل أرى أنّه الركن الوحيد الذي ينبغي أن يقتصر عليه، والذي أعنيه بصحة السند ليس مجرد الصحة بل التواتر، ذلك لأنَّ القرآن كله متواتر لا يشك في ذلك مسلم من المسلمين، وقراءته يتعبد بتلاوتها المؤمنون، وقراءته المختلفة لاضيرَ بالاكتفاء ببعضها لأنّها كلها قرآن فأرجلكم من قوله تعالى: ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ...﴾[1] قرآن.

وأرجلكم بالكسرِ في الموضع نفسه قرآن، و﴿مالك يوم الدين﴾ إن قرأت بهذه القراءة قرآن، و﴿مالك يوم الدين﴾ قرآن، إن شئت قرأت بهذه أو بتلك. فالقراءة قرآن يتعبد بتلاوتها فلابد من تواترها لإثبات قرآنيتها.

أمّا القراءة التي لم تتواتر سندًا فلا تعتبرُ قراءة مهما أضفتَ إليها من معايير وشروط، وقد أخطأ من حكم بقرآنيتها إذا وافقت الرسم ووافقت اللغة، وأنزلها منزلة التواتر في السند.

إنَّ التواتر لا يكونُ إلّا بالسند الذي يرويه جمع عن جمع... إلخ إذا وضح عندنا صحة اعتبار تواتر السند فلا ضيرَ علينا في الركنين الأخيرين، لأنّه لم يثبت لدينا أنَّ قراءة من القراءات المتواترة قد خالفت الرسم القرآني، أو خالفت العربية، ودع عنك ما يقال إن بعض القراءات القرآنية المتواترة قد خالفت العربية كما زعموا في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ﴾[2].

بالكسر أو قراءة: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ﴾[3] بالتسكين فإنَّ كلام النحاة الذين خالفوا كلام القراء لا يستند إلى دليل.

---

(١) المائدة: ٦

(٢) النساء ١

(٣) البقرة: ٥٤

أعود لأقول إن شرط القراءة أو ركنها الوحيد هو صحة السند وتواتره، ولا ثاني له والله أعلم.

يقولُ الأستاذ سعيد الأفغاني: «والشرطُ الأساسي كما يظهرُ للمتأمل هو الأول أي صحة السند، أمّا الثاني والثالث فالغالب أنهما أضيفا ليتكون من الثلاثة ما ينطبقُ تمام المطابقة على القراءات العشر المعروفة، ثم أضافَ أن أول وأشهر من عرف عنه اشتراط الشروط الثلاثة هو «مكي بن أبي طالب» الذي عاش في المائة الخامسة للهجرة منذ قال: «والقراءات الصحيحة ما صح سندها إلى رسول الله ﷺ وماصح وجهها في العربية، ووافقت خط المصحف، وشاع هذا القولُ بعده حتى تبعه في ذلك بعض المتأخرين، ومشى عليه ابن الجزري في نشره وطيبه واستنكرَ الجمهرةُ ذلك. حتى قال السفاقسي: وهذا قول محدث لا يعول عليه».

أشهر القراء من الصحابة:

المشهورون من الصحابة بإقراء القرآن هم: عثمان، وعلي، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وابن مسعود، وأبو الدرداء، وأبو موسى الأشعري، وسائر أولئك الذين أرسلهم عثمان بالمصاحف إلى الآفاق الإسلامية.

أشهر القراء من التابعين:

بالمدينة المنورة: ابن المسيب، وعروة، وسالم، وعمر بن عبد العزيز، وسليمان بن يسار، وأخوه عطاء، وزيد بن أسلم، ومسلم بن جندب، وابن شهاب الزهري، وعبد الرحمن بن هرمز، ومعاذ بن الحارث المشهور بمعاذ القارئ.

بمكة المكرمة: عطاء، ومجاهد، وطاووس، وعكرمة، وابن أبي مليكة، وعبيد بن عمير، وغيرهم.

بالبصرة: عامر بن عبد القيس، وأبو العالية، وأبو رجاء، ونصر بن

عاصم، ويحيى بن يعمر، وجابر بن زيد، والحسن، وابن سيرين، وقتادة وغيرهم.

بالكوفة: علقمة، والأسود، ومسروق، وعبيدة، والربيع بن خيثم، والحارث بن قيس، وعمر بن شرحبيل، وعمرو بن ميمون، وأبو عبد الرحمن السلمي، وزر بن حبيش، وعبيد بن فضله، وأبو زرعة بن عمرو، وسعيد بن جبير، والنخعي، والشعبي.

بالشام: المغيرة بن أبي شهاب المخزومي صاحب مصحف عثمان، وخليد بن سعيد صاحب أبي الدرداء وغيرهما.

ثم تفرغ قوم للقراءات يضبطونها ويعنون بها، فكان بالمدينة أبو جعفر يزيد بن القعقاع ثم شيبة بن نصاح ثم ناصح بن أبي نعيم.

وكان بمكة: عبد الله بن كثير، وحميد بن قيس الأعرج، ومحمد بن محيصن.

وكان بالكوفة: يحيى بن وثاب، وعاصم بن أبي النجود، وسليمان الأعمش، ثم حمزة ثم الكسائي.

وكان بالبصرة: عبد الله بن إسحاق، وعيسى بن عمرو، وأبو عمرو بن العلاء، وعاصم الجحدري، ثم يعقوب الحضرمي.

وكان بالشام: عبد الله بن عامر، وعطية بن قيس الكلالي، وإسماعيل بن عبد الله بن مهاجر، ثم يحيى بن الحارث الذماري، ثم شريح بن يزيد الحضرمي، وقد لمعَ في سماء هؤلاء القراء نجوم عدة، مهروا في القراءة والضبط حتى صاروا في هذا الباب أئمة يرحل إليهم ويؤخذ عنهم.

القراء السبعة وغيرهم:

لا يفوتنا أن نذكرَ إليك القراء السبعة الذين عناهم ابن مجاهد الذي هو أول من سبعهم. كما نذكرُ القراء العشرة الذين عناهم ابن الجزري في كتابة «النشر في القراءات العشر» ثم نذكرُ الأربعة المتممين للأربعة عشر.

القراء السبعة:

١- نافع: هو أبو رويم نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم المدني. أخذ القراءة عن أبي جعفر القارئ وعن سبعين من التابعين الذين أخذوا عن عبد الله بن عباس وأبي هريرة. وعن أبي بن كعب عن رسول الله ﷺ، وانتهت إليه رياسة الإقراء بالمدينة المنورة، توفي سنة ١٦٩ هـ.

وأشهر تلاميذه قالون وورش.

٢- ابن كثير: هو أبو محمد أو أبو معبد عبد الله بن كثير الداري، كان إمام الناس في القراءة بمكة. لقي من الصحابة عبد الله بن الزبير وأبي أيوب الأنصاري، وأنس بن مالك، وروى عن مجاهد، عن ابن عباس، عن أبي بن كعب، عن رسول الله ﷺ وقرأ على عبد الله بن السائب المخزومي، وقرأ عبد الله هذا على أبي بن كعب وعمر بن الخطاب، وكلاهما قرأ على رسول الله ﷺ وتوفي سنة ١٢٠ هـ.

وأشهر تلاميذه البزي وقنبل.

٣- أبو عمرو البصري: هو أبو عمرو زبان بن العلاء بن عمار البصري. روى عن مجاهد بن جبر، وسعيد بن جبير، وابن عباس، عن أبي بن كعب، عن رسول الله ﷺ، قرأ على جماعة منهم أبو جعفر وزيد بن القعقاع، والحسن البصري، وقرأ الحسن على حطان وأبي العالية، وقرأ أبو العالية على عمر بن الخطاب، توفي أبو عمرو سنة ١٥٤ هـ.

وأشهر تلاميذه إسماعيل بن جعفر ومالك بن أنس.

٤- ابن عامر الشامي: هو عبد الله اليحصبي يكنى أبا نعيم وأبا عمران، وهو تابعي لقي واثلة بن الأسقع، والنعمان بن بشير. وقد أخذَ القراءة عن المغيرة بن أبي شهاب المخزومي عن عثمان بن عفان، عن رسول الله، وقيل إنَّه قرأ على عثمان نفسه. توفي بدمشق سنة ١١٨ هـ.

٥- عاصم الكوفي:

هو أبو بكر عاصم بن أبي النجود الأسدي، قرأ على زر بن حبيش وعبد الله بن مسعود على رسول الله ﷺ وقرأ أيضًا على أبي عبد الرحمن عبد الله بن حبيب السلمي معلم الحسن والحسين، وقرأ عبد الرحمن على الإمام علي وأخذَ الإمام علي قراءته عن رسول الله ﷺ ، توفي عاصم بالكوفة سنة ١٢٧ هـ.

٦- حمزة الكوفي: هو أبو عمارة حمزة بن حبيب الزيات الكوفي مولى عكرمة بن ربيع التميمي، قرأ علي أبي محمد سليمان بن مهران الأعمش على يحيى بن وثاب على زر بن حبيش على عثمان وعلي وابن مسعود على النبي ﷺ ، توفي بخلوان سنة ١٥٦ هـ.

٧- الكسائي الكوفي: هو أبو الحسن علي بن حمزة الكسائي النحوي لقب بالكسائي لأنه كان على الدوام لابسًا «كساء»، قال أبو بكر الأنباري: اجتمعت في الكسائي أمور، كان أعلم الناس بالقرآن، فكانوا يكثرونَ عليه حتى يضطر أن يجلس على الكرسي، ويتلو القرآن من أوله إلى آخره، وهم يسمعونَ منه ويضبطونَ عنه، توفي سنة ١٨٩ هـ.

تمام القراء العشرة:

٨- أبو جعفر المدني: يزيد بن القعقاع القاري نسبة إلى موضع بالمدينة يسمّى «قارا». أخذَ عن عبد الله بن عباس وأبي هريرة، وعن أبي بن كعب، عن رسول الله ﷺ ، توفي سنة ١٣٠ هـ.

٩- يعقوب البصري: هو أبو محمد يعقوب بن إسحاق الحضرمي قرأ على أبي المنذر سلام بن سليمان الطويل، وقرأ سلام على عاصم وعلى أبي عمرو، توفي بالبصرة سنة ٢٠٥ هـ.

١٠- خلف البزار: أبو محمد خلف بن هشام بن ثعلب البزار البغدادي، قرأ على سليم عن حمزة، وعلى يعقوب بن خليفة الأعشى

وعلى أبي زيد سعيد بن أوس الأنصاري صاحب للمفضل الضبي، وعلى أبان العطار، وهم عن عاصم، توفي سنة ٢٢٩ هـ ببغداد.

تمام القراء الأربعة عشر:

١١- الحسن البصري: هو السيد الإمام الحسن يسار أبو سعيد البصري الغني بشهرته عن تعريفه توفي سنة ١١٠ هـ.

١٢- ابن محيصن: هو محمد بن عبد الرحمن السهمي المكي مقرئ أهل مكة مع ابن كثير توفي سنة ١٢٣ هـ.

١٣- يحيى اليزيدي: هو يحيى بن المبارك بن المغيرة، الإمام أبو محمد العدوي البصري المعروف باليزيدي توفي سنة ٢٠٢ هـ.

١٤- الشنبوذي: محمد بن أحمد بن إبراهيم بن يوسف بن العباس بن ميمون أبو الفرج الشنبوذي البغدادي توفي سنة ٣٨٨ هـ.

هؤلاء الأئمة العظام هم الذين خدموا الأمة والملة، وحافظوا على الكتاب ونسأل اللّه تعالى أن يغمرَ الجميع بواسع رحمته وأن يجزيهم أحسن الجزاء على خدماتهم لدين اللّه وكتابه.

حكم ما وراء العشرة:

وقع الخلاف في القراءات الأربع بعد العشر، فقيل إن المسألة ليست مسألة أشخاص ولا أعداد، بل هي قواعد ومبادئ فأيما قراءة تواترت سندًا فهي مقبولة وإلَّا فهي مردودة لا فرق بين قراءات القراء السبعة والقراء العشرة والقراء الأربعة عشرًا، وغيرهم[١].

* * *

(١) انظر ترجمة القراء في المهذب والنشر وغيرهما

المبحث السادس

أسباب النزول

لمحة تاريخية سريعة عن هذا العلم

يعتبرُ شيخ البخاري على بن المديني[1] ﷺ أول من دون كتابًا في هذا العلم، وتلاه علماء[2] آخرون لم يصلنا شيء من كتبهم إلَّا ما ذكره الواحدي والسيوطي عنهم، وبقي هذا العلم غير مدون ولا مجموع حتى طالعنا أبو الحسن علي بن أحمد بن الواحدي[3] المتوفى سنة ٤٦٨ هـ بكتابه المشهور أسباب النزول، وهو خير الكتب المصنفة في هذا الفن رغم ما فيه من أعواز وأخطاء تاريخية، وروايات ضعيفة ورد أغلبها عن طريق الكلبي التي هي من أوهى الطرق عن ابن عباس ﷺ ، وهي طريق سلسلة الكذب كما يطلق عليها علماء الحديث، كما اشتملَ كتابه على روايات لا تمت إلى أسباب نزول الآية بصلة. وكان المأمول من العلماء من بعده أن يجردوا كتابه من تلك الأخطاء وأن يسدوا ما فيه من أعواز، بيد أنَّ الذين أتوا من بعده لم يفعلوا شيئًا من ذلك، فإبراهيم الجعبري[4] لمْ يفعل شيئًا إلَّا تجريد كتابه من الأسانيد التي ذكرها الواحدي، ولم يضف إلى ذلك شيئًا يذكر وقد تحدث في مقدمته قائلًا:

«نزول القرآن على قسمين: قسم نزل ابتداء، وقسم نزل عقب واقعة أو سؤال، ثم أخذَ يسرد كتاب الواحدي سردًا لم نحظ منه بتعليق يسير عليه».

---

(١) علي بن المديني شيخ البخاري المتوفى سنة ٢٣٤ هـ.

(٢) وممن ألف في ذلك أبو المطرف عبد الرحمن بن محمد القرطبي المتوفى سنة ٤٠٢ هـ

(٣) هو أبو الحسن علي بن أحمد النحوي المفسر، توفي سنة ٤٢٧ هـ.

(٤) هو برهان الدين إبراهيم بن عمر المتوفى سنة ٧٣٢ هـ، وقد ألف في علوم القرآن «روضة الطرائف في رسم المصاحف»، وشرح الشاطبية في القراءات في كتابه كنز المعاني

وممن ألف في هذا العلم أبو الفرج -ابن الجوزي- المتوفى سنة ٥٩٧ هـ. وكتابه «أسباب نزول القرآن»، ثم جاء ابن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢ هـ وكتب كتابه «العجاب في بيان الأسباب»(١).

ذكر السيوطي أنه مات عنه مسودة وكان يذكرها كثير من العلماء في عداد المفقودات ولكنها ظهرت أخيرًا إلَّا أنَّ هذه المسودة ليست كاملة فقد كتبَ ما يزيد عن أربعمائة صفحة من القطع الكبير ووصل في ذكر أسباب النزول إلى الآية الثامنة والسبعين من سورة النساء أي حتى قوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾(٢).

ومن خلال اطلاعي على المسودة وجدتها ليست مثل كتابه فتح الباري، بل سود صفحات كثيرة في أشياء لا تمت إلى سبب النزول بصلة، مثل ذكره عن كوكب الزهرة بأنَّ الزهرة هي امرأة جميلة ثم حدث ما حدث إلى أن رفعت إلى السماء... وقد أطال في هجومِهِ على من ضعفوا وردوا هذه الرواية، والكلامُ في ذلك يطول ولا مجال لذكره.

ثم جاء السيوطي واعدًا بأن يكونَ كتابه «لباب النقول في أسباب النزول» من خير الكتب المصنفة في هذا الشأن، وقال مادحًا كتابه: «إنّني ألفتُ فيه أي -في أسباب النزول- كتابًا حافلًا موجزًا محررًا لم يؤلف مثله في هذا النوع، سميته «لباب النقول»، لقد أثنى على نفسه بشيء من المبالغة، في حين أن كتاب الواحدي بقي خيرًا منه، وكان الأولى به أن يجمع مزاياه، ويكمل ما رآه ناقصًا، ويسد ما فيه من أعواز كما قال، وهذا ما جعل محقق الكتاب -الأستاذ سيد صقر- يقول: «اللباب مصنوع من الأسباب».

وأخيرًا فإنَّ آخر كتب المتقدمين كتاب إرشاد الرحمن في أسباب النزول

---

(١) مخطوط بالمدينة المنورة، جامعة الإمام محمد بن سعود، والنسخة مصورة عن نسخة مراكش.

(٢) النساء: ٧٨.

والمتشابه والتجويد[1] لمؤلفهِ عطية الله بن برهان الأجهوري المتوفى سنة ١١٧٠ وهو كتاب مازال مخطوطًا وقد صنعَ مثلما صنع السيوطي ووعد بإخراج كتاب فذّ في هذا المجال ولكنه لم يصنع شيئًا إلّا أنّه جمع بين كتابي الواحدي والسيوطي وجرّد أسانيدهما.

أولاً: تعريف أسباب النزول:

من المسلمات والبديهيات أنَّ من القرآن ما نزل ابتداء، ومنه ما نزل عقب حادثة أو جوابًا عن سؤال، وأكثر القرآن نزل ابتداء ليعالجَ الأوضاعَ الفاسدة القائمة آنذاك، فليست كل آية لها سبب، وليس كل ما ذكرْ من الأسباب سببًا في الحقيقة، فسبب النزول هو الحادثة التي وقعت في عهد الرسول ﷺ ونزل بشأنها قرآن أو الأسئلة والاستفسارات الموجهة للنبي ﷺ وجاءت الآيات مجيبة عنها، وأحسن تعريف لذلك ما ذكرهُ السيوطي قائلًا:

«والذي يتحرر في أسباب النزول أنّه ما نزلت الآية أو الآيات مبينة لحكمه أيام وقوعه» ليخرج ما ذكره الواحدي في تفسيره سورة الفيل من أن سببها قصة قدوم الحبشة، فإن ذلك ليس من أسباب النزول في شيء، بل هو من باب الإخبار عن الوقائع الماضية كذكرِ قصة نوح وعاد وثمود وبناء البيت الحرام، ونحو ذلك وكذلك ذكره في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾[2].

سبب اتخاذه خليلًا فليس ذلك من أسباب نزول القرآن كما لا يخفى[3].

فعند النظر في الرواية التي ذكرتَ أنها سبب النزول يجب أن يتحقق من

(١) المخطوطة موجودة في المكتبة الأزهرية وهي بحالة متوسطة.

(٢) النساء: ١٢٥ .

(٣) الإتقان في علوم القرآن (١/ ٤٢). و«لباب النقول في أسباب النزول» ص٤ .

مزامنة نزول الآية مع حدوث القصة أو الحادثة أو السؤال فإن تزامنت جاز أن تكون سبب نزول وإلّا فلا.

ثانيًا: الألفاظ الدالة على سبب النزول:

جدير بالذكرِ أنَّ الصحابة رضوان اللّه عليهم هم الطريق الوحيد لمعرفة أسباب النزول لأنهم هم الذين عاينوا نزول القرآن، فلا خلافَ أنّه إذا قال الصحابي سبب نزول الآية كذا فإنَّ هذا يدل بصراحة على السبب دونَ حاجة إلى بيان، ومثل ذلك إذا أخبر الصحابي عن حادثة أو سؤال وجه إلى النبي ﷺ ثم ذكرَ بعدَ ذلك الآيات عقيب الحادثة، أو إجابة للسؤال فإنَّه كذلكَ يعتبر نصًا في سبب النزول.

مثاله ما رواه البخاري عن أنس بن مالك قال: قال أبو جهل: «اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم» فنزل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝٣٣ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾[1].

وهناك ألفاظ وقرائن تدل على سبيل الرجحان على سبب النزول كأن ترد الفاء التعقيبية داخلة على مادة نزول الآية بعد سرد حادثة ما أو بذكرِ سؤال طرح على رسول اللّه ﷺ كأن يقول سئل رسول اللّه ﷺ عن كذا فنزلت...

فهذا يدل على الرجحان لا على سبيل الجزم كما رأي ذلك بعض الباحثين لأنني وجدتُ آثارًا كذلك ولم تدل على السبب، ويستوي في ذلك أن يكون السؤال الذي نزلت الآيات بسببه متصلًا بأمر مضى كقوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾[2].

---

(١) الأنفال: ٣٣، ٣٤.

(٢) الكهف: ٨٣.

أو بأمر حاضر كقوله: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾[1].

فنزلت في اليهود قالوا للنبي ﷺ إن كنت نبيًا فأتنا بكتاب جملة من السماء كما أتى موسى.

أو بأمر مستقبل نحو قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾[2].

كما لا ينبغي أن يفهم أن كل سؤال ورد في القرآن وأجيبَ عنه، يدل على سبب النزول، فقد ورد لفظ يسألونك في اثنى عشر موضعًا ولم يثبت لأكثرها سبب للنزول، وإن حاول بعض المفسرين أن يتحمل لها سببًا وأتى بما لا طائل تحته.

ثالثًا: طريق معرفة أسباب النزول:

يقول الواحدي في مقدمة كتابه: «كل آية لها سبب مقول مروي منقول»[3]. وعلى هذا فلا يحل القول في أسباب النزول إلّا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل، ووقفوا على الأسباب وبحثوا عن علمها وجدوا في الطلاب، وقد وردَ الشرعُ بالوعيد للجاهل ذي العثار في هذا العلم بالنار لما رواهُ ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: **«اتقوا الحديث إلاّ ما علمتم فإنّه من كذب عليّ فليتبوأ مقعده من النار ومن كذب على القرآن من غير علم فليتبوأ مقعده من النار»**[4].

والسلف رحمهم الله كانوا أبعد الغاية احترازًا عن القول في نزول الآية، فلا يقبلونَ إلّا ممن شاهدوا التنزيل كالصحابة رضوان الله عليهم، فإن قولهم في سبب النزول هو مما لا مجال للرأي فيه فهو بمثابة المرفوع

---

(١) النساء: ١٥٣ .

(٢) الأعراف: ١٨٧ .

(٣) أسباب النزول ص١٧ .

(٤) أسباب النزول ص١٧ .

فإن صح النقلُ عنه وجبَ الأخذُ به، وهو كالحديث المسند، أمّا إذا لم يجزم الصحابي كأن قال أحسبُ هذه الآية نزلت في كذا فلا يعدُ هذا سببًا.

أمّا قول التابعي في سبب النزول إذا نقل أو سمعَ الصحابي فيجري فيه من المذاهب ما يجري في الأحاديث المرسلة عند علماء مصطلح الحديث والأصول، أمّا قولهم بالاجتهاد فلا يصحُ قال ابن سيرين: «سألتُ أبا عبيدة عن آية من القرآن، فقال: اتق الله وقل سدادًا ذهب الذين يعلمون فيما أنزل القرآن»[1].

وليس لأحد بعد عصر التابعين أن يخترعَ سببًا للنزول.

قال الواحدي[2]: أمّا اليوم، فالواحد يخترع شيئًا ويختلق إفكًا وكذبًا ملقيًا زمامه إلى الجهالة غير مفكر في الوعيد للجاهل سبب الآية.

فوائد أسباب النزول:

لا شك أنَّ لمعرفة أسباب النزول فوائد لا يستغني عنها أي مفسر لكتاب الله كما قال الواحدي: ولا يمكنُ معرفة تفسير الآية دونَ الوقوف على قصتها وبيان سبب نزولها، أو كما قال ابن دقيق العيد: بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني القرآن[3].

من هذه الفوائد:

١- تخصيص الحكم بالسبب عند من يرى أنَّ العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ.

٢- ومن الفوائد دفع توهم الحصر عمّا يفيد بظاهره الحصر وقد مثلوا على ذلك بمثال وهو قول الشافعي كما أورده الزركشي في معنى قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن

(١) أسباب النزول ص١٧ .
(٢) أسباب النزول ص١٧، والإتقان (١/ ٣١).
(٣) مقدمة في أصول التفسير، لابن تيمية ص٤٨ .

يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾[1].

قال: «إنَّ الحصر في الآية ليس مرادًا، ذلك أنَّ الكفار لمَّا حرموا ما أحل اللّه وأحلوا ما حرَّم اللّه، وكانوا على المضادة والمحادة، جاءت الآية بهذا الحصر الصوري مشادة لهم ومحادة من اللّه ورسوله، لا قصدًا إلى حقيقة الحصر، نازلة منزلة من يقول: لا تأكل اليوم حلاوة، فتقول: لا آكل اليومَ إلَّا حلاوة، والغرض المضادة لا النفي والإثبات على الحقيقة[2].

٣- معرفة سبب النزول غير خارج عن حكم الآية إلَّا إذا ورد نص مخصص لها.

وهي من القضايا الأصولية التي ذكرها الآمدي والشاطبي وغيرهم ودللوا عليها كقاعدة أصولية تتعلق بأسباب النزول، وهذه الفائدة من الأمور المجمع عليها عند من يعتد بقولهم في علم الأصول وهي صحيحة، ولا كلام بل بدهية أن سبب النزول غير خارج عن حكم الآية.

٤- أن السبب يفيد وجه الحكمة الباعثة على تشريع الحكم.

٥- ومجمل القول أنَّ فوائد معرفة أسباب النزول كثيرة ولا غني عنها، فهي تفيد في فهم النص القرآني بكل أبعاده فتنزيل المشكل وتوضيح المبهم، وتدفع الغموض وتطرد الشبه، وترفع الخلاف، فهي أوضح سبيل وأقصره لفهم معاني الآيات التي ورد لها سبب.

وإضافة إلى ما ذكر تفيد الزمان والمكان الذي نزلت فيه الآية فتميز المكي من المدني وتفصل الدعوى في الناسخ والمنسوخ حين يعرف المتقدم من المتأخر، وإلى جانب هذا كله فإنَّها تعطي صورة واضحة عن

---

(١) الأنعام: ١٤٥ .

(٢) البرهان في علوم القرآن (١/ ٣١، ٣٢).

مراحل الدعوة الإسلامية في سيرها ومعالجتها للأحداث بوسائل مكافئة في كل حالة من الحالات، وهذه فائدة لا تعدلها فائدة لمن تأمل فيها في رسم السياسة الداخلية والخارجية للدولة الإسلامية عبر مراحلها الزمنية في عهد النبي ﷺ .

نعم إنَّ علم الأسباب في النزول يبين الفهم الصحيح للآية ولا يزول الإشكال بذكره، وقد توافقت كتب علوم القرآن قديمًا وحديثًا على ذكر هذه الأمثلة لتبين أن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب ويضبطنا من الوقوع في الزلل.

من ذلك ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾(١).

فإننا لو تركنا لظاهر الآية لاقتضى أن المصلي لا يجب عليه استقبال القبلة لا سفرًا ولا حضرًا، وهو خلاف الإجماع، ولكن بمعرفة سبب نزولها يتبين لنا أن هذا المفهوم خاطئ، فقد روي في سبب نزولها أنَّ القبلة عميت على قوم فصلوا إلى أنحاء مختلفة، فلمّا أصبحوا تبين خطؤهم، فعذرهم الله بها، فالآية ترفع الحرج عمّن صلّى باجتهادِه إلى جهة ما يظنها القبلة، فبان له الخطأ بعد ذلك وكأنَّ الله سبحانه يقول لا حرج فالجهات كلها لله، وحيثما توجهتم فثم وجه الله(٢).

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾(٣).

فقد فهم عروة بن الزبير رضي الله عنه أن الآية نزلت لبيان عدم فرضية السعي

---

(١) البقرة: ١١٥ .

(٢) الترمذي (٤/ ٢٧٣)، ونيل الأوطار (٢/ ٧٥).

(٣) البقرة: ١٥٨ .

بين الصفا والمروة فإنَّ عبارة «لا جناج في كذا» فلا يستعمل في الدلالة على وجوب الصلاة والزكاة مثلًا: «لا جناح في أداء الصلوات الخمس أو في إخراج الزكاة، وإنما تصلح هذه العبارة للتعبير عن الإباحة لأنَّ هذا المعنى هو مدلولها اللغوي».

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾(١).

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾(٢)، ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾(٣).

ومن هنا فهم عروة أن السعي بين الصفا والمروة ليس بفرض، لأنَّ عبارة الآية تدل بمقتضى الاستعمال اللغوي على الإباحة، والإباحة تنافي الوجوب لأنَّ الإباحة لا إلزام فيها، بخلاف الوجوب، ولولا قوله تعالى: ﴿مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾(٤) لما فهم من الآية أنَّ السعي عمل مرغب فيه شرعًا، فتدل الآية بمجموعها على الترغيب فيه وامتناع وجوبه، ولكن من يقف على سبب نزول الآية يعرف أنها لا تنافي وجوب السعي بين الصفا والمروة، فقد روى أن فريقًا من الصحابة تحرجوا من الطواف بهما لأنَّ أهل الجاهلية كانوا يفعلونه، وكانوا في ترددهم بين الصفا والمروة يتمسحون بصنمين كانا عليهما، فتأثموا من عمل هو من أعمال الجاهلية وكان يقترن به عمل من أعمال الوثنية فنزلت(٥).

ويجمع بين هذه الروايات كلها بأنها نزلت عقب تأثم الجميع، والمعقول أن هذا التأثيم إنما وقع منهم قبل أن يسمعوا من رسول الله ﷺ شيئًا في طلبِ السعي، وإلَّا فحينئذ لا يعقل أن يتأثموا، فجاءت عبارة الآية

---

(١) البقرة: ١٩٨ .

(٢) البقرة: ٢٢٩ .

(٣) البقرة: ٢٣٠ .

(٤) البقرة: ١٥٨ .

(٥) انظر هذه الروايات في فتح الباري (٣/ ٣١٥).

على ما كان في نفوسهم من التأثم تبين لهم أنّ هذا الأمر لا إثم فيه ولا جناح، فالمقصود منه إزالة ما كان في نفوسهم من التأثم لا نفي الوجوب، ولكن عروة لم يعرف سبب النزول ففهم أنّ الآية تنافي الوجوب.

وقد دلت السنة على وجوبه. وقد عرف عروة من خالتِه عائشة سبب نزولها ولمّا عرف اهتدى إلى المقصود منها.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾[1].

فقد أشكل على بعض الأئمة معنى هذا الشرط حتى قال الظاهرية: إنَّ اليائسة لا عدة عليها إذا لم تَرْتَبْ، وقد بيّن سبب النزول المراد من هذا الشرط، فقد أخرجَ الحاكم عن أبي بن كعب من أنه لمّا نزلت الآية التي في سورة البقرة في عدد النساء، قالوا قد بقيت عدد لم تذكرها، وهي عِدَدُ الصغار والكبار فنزلت[2]. فبين سبب النزول أن المعنى إن ارتبتم في حكمهن فعدتهن ثلاثة أشهر، والذينَ لم يقفوا على سبب نزول الآية فهموا أنَّ المعنى إن ارتبتم في حيضهن، فأشكل عليهم معناها، حتى قال بعضهم بأنّ اليائسة لا عدة عليها.

والأمثلة التي تبين فائدة أسباب النزول كثيرة اكتفينا بالمذكور واقتصرنا على الصحيح منها.

وتجدر الإشارة إلى أنَّ معرفة بعض أسباب النزول قد لا يقدم ولا يُؤخر في قليل أو كثير كأن تنزل آية في زيد أو عمرو من الناس، فالأمرُ سواء.

---

(١) الطلاق: ٤ .

(٢) نقل ذلك السيوطي عن الحاكم.

استدراك: وفيه مطالب

المطلب الأول

تحقيق قول الصحابي: نزلت الآية في كذا، وهل يدل ذلك على سبب أو لا؟.

نقل السيوطي عن ابن تيمية قال: «قولهم نزلت هذه الآية في كذا يرادُ بها تارة سبب النزول، ويرادُ بها تارةً أنَّ ذلك داخل في الآية وإن لم يكن السبب، كما نقول عني بهذه الآية كذا[١]، فهي تحملُ على التفسير إن ذكر فيها معنى تدل عليه الآية، وتحمل على بيان سبب النزول إن ذكر فيها ما دعا إلى نزولها.

مثال ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾[٢].

فإنَّه إذا قيل نزلت هذه الآية في نفر من أصحاب النبي ﷺ مر بهم رجل من سليم، وهو يسرق غنمًا له، فسلم عليهم، فقالوا ما سلم علينا إلَّا ليتعوذ منا، فعمدوا إليه فقتلوه وأتوا بغنمه إلى النبي ﷺ -الحديث[٣]. كان ذلك بيانًا لسبب نزولها، وإذا قيل نزلت في معاملة الناس بمقتضى ظواهرهم كان تفسيرًا لها وبيانًا لمضمونها، ولغلبة استعمال هذه العبارة في التفسير قال الزركشي في البرهان: «قد عرف من عادة الصحابة والتابعين أنَّ أحدهم إذا قال نزلت هذه الآية في كذا فإنَّه يريدُ بذلك أنَّ هذه

---

(١) مقدمة في أصول التفسير، ص٨، الإتقان (١/ ٨٩).

(٢) النساء: ٩٤ .

(٣) ذكره السيوطي في اللباب، انظر: لباب الفضول ص ٦٦ .

الآية تتضمنُ هذا الحكم، لا أن هذا كان لسبب في نزولها[1].

المطلب الثاني: في حالة تساوي روايات أسباب النزول في الصحة، والنازل واحد:

يذكرُ العلماء حالة تساوي روايات النزول في الصحة، ولست أرى لهذا النوع وجودًا ولا دليلًا، ووجدتُ في حديثهم اضطرابًا إذ يلجئونَ في هذه الحالة إلى تداخل هذه الروايات، ويجعلونها سببًا واحدًا إذا كان زمانها متقاربًا، أو يقولونَ بتعدد نزول الآية مرات متعددة إذا كان الزمان متباعدًا حتى زعموا أنَّ بعض الآيات قد نزلت ثلاث مرات.

أمَّا حالة تداخل الروايتين وجعلهما سببًا واحدًا، فيمثلونَ لهذه الحالة بما روي في سبب نزول آيات اللعان، فقد أخرج البخاري من طريق عكرمة، عن ابن عباس أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي ﷺ بشريك بن سمحاء، فقال النبي: **«البيّنة أو حَدٌّ فقي ظهرك»** فقال يا رسول اللّه: «إذا رأى أحدنا رجلًا ينطلقُ يلتمسُ البينة؟ فأنزل اللّه عليه: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ حتى قوله: إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾[2].

وأخرجَ الشيخان عن سهل بن سعد قال: جاء عويمر إلى عاصم بن عدي فقال: اسأل رسول اللّه ﷺ أرأيتَ رجلًا وجدَ مع امرأته رجلًا يقتله، أيقتل به؟ أم كيف يصنع؟ فسأل عاصم رسول اللّه ﷺ فعاب المسائل، فأخبر عاصم عويمرًا فقال: واللّه لآتيَن رسول اللّه ﷺ فلأسألنَهُ فأتاهُ فقال: **«إنّه قد أنزل فيك وفي صاحبتك قرآنا» الحديث**[3].

جمع بينهما بأنَّ أول مَنْ وقعَ له ذلك هلال، وصادف مجيء عويمر أيضًا، فنزلت في شأنهما معًا[4].

---

(١) البرهان (١/ ٣١).
(٢) النور: من ٦ - ٩ .
(٣) صحيح البخاري في الطلاق، ومسلم في اللعان.
(٤) الإتقان (١/ ٩٥)، ومناهل العرفان.

هذا الرأي فيه نظر، إذ المتأمل لنصوص الحديثين يجد القول الحق في أن سبب النزول هو ما روي بشأن هلال بن أمية لوجود قرائن في متن الحديث، فهذان الحديثان وإن تساويا صحة في السند إلَّا أنَّ متن كل منهما يختلف عن الآخر مما جعل بعض العلماء يعتمدُ أن سبب النزول الوحيد للآية هو ما روي بشأن هلال لوجود قرائن تدل على ذلك.

ومن هذه القرائن أن النبي ﷺ حين أتاه هلال بن أمية -بنفسه- قاذفًا زوجته، قال له: «البينة أو حد في ظهرك» لأنَّ الوحي لم ينزل بعد في حكم اللعان، لذا لم يبق إلَّا أنَّ يطبق عليه النبي ﷺ حد القذف كما ورد في الآية السابقة نزولًا لهذه الآية[1]، وهذا يلزمه بتطبيق حد القذف عليه، ولم يعفه من ذلك إلَّا نزول آيات اللعان في حقه.

وعلى أية حال فهذا الخلاف لا يترتب عليه أثر مفيد فسواء أتداخلت الروايتان وكانتا سببًا للنزول أم كانت قصة هلال بن أمية هي السبب الوحيد.

* * *

(١) والآية السابقة وهي قوله تعالى: ﴿والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء، فاجلدوهم ثمانين جلدة﴾. النور: ٤ .

الفصل الرابع
جمع القرآن

المبحث الأول: في عهد النبي ﷺ.

المبحث الثاني: في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

المبحث الثالث: في عهد عثمان رضي الله عنه.

المبحث الرابع: ترتيب الآيات والسور القرآنية.

المبحث الخامس: رسم المصحف «الرسم القرآني أو العثماني».

جمع القرآن الكريم

تمهيد:

المراد بجمع القرآن الكريم حفظه في الصدور وكتابته في السطور، وقد تحقق جمع القرآن بنوعيه حفظًا وكتابة في جميع العهود.

ففي عهد النبي ﷺ تواترَ حفظه في الصدور، كما تمت كتابته كلمَّا نزلت آية من الآيات دعا من يَكتب.

وفي عهد أبي بكر جمع أوراق القرآن وما كتب في مكان واحد.

وقد تجوز العلماء في إطلاق جمع القرآن في عهد عثمان الذي أمرَ بكتابته ونسخه.

وما زال جمع القرآن -حفظًا وكتابة- محققًا وسيبقى كذلك إلى قيام الساعة وصدق الله العظيم: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[1].

* * *

---

(١) الحجر: ٩ .

المبحث الأول

الجمع في عهد النبي ﷺ

لقد جمع القرآن في عهد النبي ﷺ حفظًا وكتابة، أمّا حفظه في الصدور فقد تجلى في حفظ النبي ﷺ لهذا القرآن، فقد كان يتشوق ويتلهف لنزول الوحي، فما إن يتزل بالآيات إلّا ويعجل النبي ﷺ بحفظها لذا طمأنه الله سبحانه وأرشده إلى عدم الإسراع والتعجيل بالقرآن قال تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه﴾(٢).

ومن هنا كان ﷺ جامع القرآن في قلبه الشريف، وسيد الحفاظ في عصرِه المنيف، ومرجع المسلمين في كل ما يعينهم من أمر القرآن وعلوم القرآن، وكان ﷺ يقرؤه على الناس على مكث، كما أمره مولاه، وكان جبريل يعارضه إياه في كل عام مرة، وعارضه إيّاه في العام الأخير مرتين.

قالت عائشة وفاطمة رضي الله عنهما سمعنا رسول الله ﷺ يقول: **«إنَّ جبريل كان يعارضني القرآن في كل سنة مرة وإنَّه عارضنا العام مرتين ولا أراهُ إلاَّ حضر أجلي»**(٣).

أمّا الصحابة رضوان الله عليهم فقد أخذ القرآن قلوبهم فأخذوا يتسابقونَ في حفظِه -أحيوا به ليلهم وسمع لبيوتهم في غسق الدجى كدوي النحل بالقرآن- بل عرفت منازلهم من سماع تلاوتهم للقرآن، قال رسول الله ﷺ : **«إنّي لأعرفُ أصواتَ رفقة الأشعريين بالقرآن حين يدخلونَ بالليل، وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن بالليل، وإن لم أرَ**

---

(١) سورة القيامة من ١٦ - ١٩ .

(٢) طه: ١١٤ .

(٣) مناهل العرفان (١/ ٢٣٤).

منازلهم حين نزولوا بالنهار» هذا ليلهم، أمّا نهار الصحابة في المسجد، فكان يسمع لهم ضجة بتلاوة القرآن حتى أمرهم الرسول ﷺ بأن يخفضوا أصواتهم لئلا يتغالطوا، ومن هنا كان عدد الحفاظ من الصحابة رضوان الله عليهم كثيرًا، أشهرهم الخلفاء الأربعة والعبادلة وعمرو بن العاص وابن الزبير ومعاوية وأمهات المؤمنين عائشة وحفصة وأم سلمة، وغيرهم من المهاجرين، ويكفي أن نعلم من كثرتهم أنه قتل منهم في يوم بئر معونة سبعونَ، ويوم اليمامة ضعفهم أي أربعون ومائة[1].

أمّا الحفظة من الأنصار فهم كثيرونَ، أشهرهم: أبي بن كعب، وزيد بن ثابت، ومعاذ بن جبل، وعبادة بن الصامت، وأبو الدرداء، وأبو أيوب الأنصاري، وأبو زيد (وهو قيس بن السكن).

يتضح لنا أنَّ الحفاظ كثيرونَ، وقد زادوا عن حد التواتر، ومع ذلك فقد أثارَ أعداء الإسلام -قديمًا وحديثًا- شبه مفادها أنَّ الحفظة من الصحابة لا يتجاوز عددهم أصابع اليد الواحدةَ. وتمسكوا بأثر رواه البخاري وغيره، وظنوا أنَّ هذا مستمسك لهم وما هو بذلك، وقد ردَّ علماؤنا كيدهم في نحورهم.

أمّا الأثر فما ورد في صحيح البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «مات النبي ﷺ ولم يجمع القرآن غير أربعة: أبو الدرداء، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد»[2]. فقد زعموا أنَّ هؤلاء الأربعة هم الحفظة ولا أحد غيرهم ظنًا منهم أنَّ الحصرَ في هذا الأثر حصر حقيقي.

والواقع أنَّ هذا الحصر نسبي لا حقيقي، ويدلنا على ذلك ما رواهُ أنس بن مالك نفسه وقد سأله قتادة عن جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ فقال: «أربعة كلهم من الأنصار: أبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن

(١) هذه الأسماء قد وردت في أحاديث صحيحة.
(٢) صحيح البخاري. كتاب فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب النبي ﷺ.

ثابت، وأبو زيد».

فقد ذكرَ في هذه الرواية أربعة، غير أنَّه ذكرَ أبي بن كعب بدلًا من أبي الدرداء في الرواية الأولى، وهو صادق في كلتا الروايتين لأنَّه لا يعقل أن يكذب نفسه، فتعين أنَّه يريد من الحصر الذي أورده الحصر الإضافي، فمرة ذكر أبا الدرداء، ومرة ذكرَ أبي بن كعب، وهذا التوجيه وإن كان بعيدًا، إلَّا أنَّه يتعين المصيرُ إليه جمعًا بين هاتين الروايتين، وبينهما وبين روايات ذكرت غير هؤلاء، ومن هنا قال الماوردي: لا يلزمُ من قول أنس ﷺ: «لم يجمعه غيرهم». أنَّ الواقع كذلك في الأمر نفسه، لأنَّه لا يمكن الإحاطة بذلك مع كثرة الصحابة وتفرقهم في الأمصار، ولم يتم له ذلك إلَّا إذا كان قد لقي كل واحد منهم، وأخبرَ عن نفسه أنَّه لم يكمل له جمع القرآن في عهد النبي ﷺ، وهذا في غاية البعد في العادة، وكيف يكون الواقع ما ذكر وقد جاء في صحيح البخاري أنَّ النبي ﷺ قال: **«خذوا القرآن عن أربعة: عن عبد اللّه بن مسعود، وسالم، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب»** والأربعة المذكورون منهم اثنان من المهاجرين وهما الأولان، واثنان من الأنصار وهما الأخيران. اهـ.

ولعلَّ مراد الماوردي بهذا نفي الحصر الحقيقي وتوجيه الحصر الإضافي، ويؤكد ذلك حديث آخر رواهُ أبو داودَ عن محمد بن كعب القرظي قال: «جمع القرآن على عهد رسول اللّه ﷺ خمسة من الأنصار: معاذ بن جبل، وعبادة بن الصامت، وأبي بن كعب، وأبو الدرداء وأبو أيوب الأنصاري».

وهناك أجوبة كثيرة عن هذه الشبهة وقد أجابَ الإمام أبو بكر الباقلاني بأجوبة ثمانية ولكن ابن حجر ضعفها وغيره فندها.

ونكتفي في النهاية بكلمة للمازري حيث يقول: «وقد تمسك بقول أنس عن جماعة من الملاحدة، ولا متمسك لهم فيه، فإنَّا لا نسلم حمله على

ظاهره، ولكنَ من أين لهم أن واقع الأمرَ نفسه كذلك؟ لكن لا يلزم كون كل من الجم الغفير لم يحفظه كله، إلّا أن يكون حفظه مجموعة من الجم الغفير، وليس من شرط التواتر أن يحفظ كل فرد جميعه، بل إذا حفظ الكل الكل ولو على التوزيع كفى».

ثم قال: قال القرطبي: قد قتل يوم اليمامة سبعون وقتل في عهد النبي ﷺ في بئر معونة مثل هذا العدد، قال: وإنما خصّ أنس الأربعة بالذكرِ لشدة تعلقه بهم(١).

هذا عن جمع القرآن حفظًا وتلاوة، أمّا الجمع بمعنى كتابة القرآن وتدوينه فلم تكن عناية النبي ﷺ وأصحابه بحفظ القرآن واستظهاره لتمنعهم من توثيق القران بكتابته وتدوينه، فقد اتخذَ الرسول ﷺ من أصحابه كتبة للوحي، منهم زيد بن ثابت وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي، وأبي بن كعب وثابت بن قيس وخالد بن الوليد، إذ كان النبي ﷺ يأمرُ من حضرَ منهم بالكتابة لما ينزل عليه من القرآن، فيكتب الكاتب: إمّا على العسب أو اللخاف أو الرقاع أو قطع الأديم، أو عظام الأكتاف والأضلاع(٢). ثم يوضع المكتوب في بيت رسول الله وكان مجموعًا في صحفِ قال تعالى: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾(٣).

أي يقرأ قراطيس مطهرة من الباطل، فيها مكتوبات مستقيمة قاطعة بالحق والعدل.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١/ ٥٧).

(٢) العسب بضم العين والسين، جمع عسيب. وهو جريد النخل كانوا يكشفون الخوص ويكتبون في الطرف العريض. اللخاف: بكسر اللام جمع لخفة بفتح اللام وسكون الخاء: وهي الحجارة الرقيقة، قال الخطابي: صفائح الحجارة، والرقاع: جمع رقعة، وقد تكون من جلد أو ورق أو كاغد. والأديم: الجلد. والأكتاف: جمع كتف، وهو عظم عريض يكون في أصل كتف الحيوان كانوا يكتبون فيه لقلة القراطيس عندهم. (انظر القرطبي (١/ ٥٠) ١١١ .

(٣) البينة: ٢ .

وقال أيضا: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾(١).

أي أن هذه تذكرة مثبتة في صحف مكرمة عند الله، مرفوعة المقدار منزهة عن أيدي الشياطين. قد كتبت بأيدي كتبة أتقياء، وما كتب بالصحف كان مؤلفًا.

روي عن ابن عباس أنه قال: «كان رسول الله ﷺ إذا أنزلت عليه سورة دعا بعض من يكتب، فقال: **«ضعوا هذه السورة في الموضع الذي ذكرُ فيه كذا وكذا»**.

وعن زيد بن ثابت قال: كنا عند رسول الله ﷺ نؤلف القرآن من الرقاع.

وخلاصة ما تقدم أنَّ القرآن الكريم قد حفظ في صدور الكثير من الصحابة. وقد كتب القرآن كله، فتحقق جمع القرآن في عهد النبي ﷺ حفظًا وكتابة في الصدور وفي السطور، سئل محمد بن الحنفية ما ترك النبي ﷺ فقال: «ما ترك إلَّا ما بين الدفتين. أي القرآن».

يتضح مما تقدَّم أنَّ تواترَ القرآن وقطعيته في الحفظ والرواية دونَ الكتابة التي لم تتواتر كما هو معرف من أمر كتبة الوحي، فكان النبي ﷺ يدعو بعض من يكتب عنده، وربما كتب الواحد والاثنان أو دونَ العدد الذي يتحقق به التواترَ.

* * *

(١) عبس: ١١ - ١٦.

المبحث الثاني

جمع القرآن في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه

لم يشعر الصحابة رضوان الله عليهم بعد وفاة النبي ﷺ أنهم في حاجة إلى جمع القرآن في كتاب واحد، حتى كثر القتل في الحفاظ في حروب الردة، فقد استشهد فيها خلق كثير من القراء والحفظة، قيل إنه قتل سبعونَ وقيل خمسمائة، وأيًا كان فإنَّ عدد القتلى قد هال المسلمين، فخشيَ عمر بن الخطاب من ذلك على ضياع بعض الصحف، ففكر في عرض الأمرِ على أبي بكر ليقوم بجمع القرآن.

روى البخاري أنَّ زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: «أرسل إليَّ أبو بكر بعد مقتل أهل اليمامة فإذا عمر بن الخطاب عنده، قال أبو بكر رضي الله عنه: إنَّ عمرَ أتاني فقال: إنَّ القتل قد استحرَّ «اشتدَّ» يوم اليمامةِ بقراء القرآن. وإني أخشى أن يستمرَ القتل بالقراء بالمَواطن، فيذهب كثير من القرآن، وإنِّي أرى أن تأمرَ بجمع القرآن. قلت لعمر: كيف نفعلُ ما لم يفعله رسول الله ﷺ؟.

قال عمرَ: هذا والله خيرٌ، فلم يزل عمرَ يراجعني حتى شرحَ الله صدري لذلك، ورأيتُ في ذلك الذي رأي عمر.

قال زيدٌ: قال أبو بكر: إنَّك رجلٌ شابٌ عاقلٌ لا نتهمك، وقد كنتَ تكتب الوحي لرسول الله ﷺ، فتتبع القرآن فاجمعه، فوالله لو كلفوني نقل جبل[1] من الجبال، ما كان أثقلُ علي مما أمرني به من جمع القرآن،

---

(١) وقد عينت بعض الروايات الجبل بأنه جبل أحد، فكان رضي الله عنه يرى نقل جبل أحد من مكان إلى مكان أهون عليه من نقل الكتابة من العسب واللخاف والأكتاف والأضلاع والرقاع المختلفة الأجناس والأشكال والألوان إلى كتابتها على شيء متجانس متماثل يسهل جمعه وربطه وحفظه في مكان مناسب، وقد تطلب هذه منه جهدًا عظيمًا في مقارنة المحفوظ بالصدور مع المكتوب في السطور مع طلب الشهادة على كل رقعة أنها كتبت بين يدي =

قلت: كيف تفعلونَ شيئًا لم يفعله رسول الله ﷺ؟ قال: هو والله خيرٌ، فلم يزل أبو بكر يراجعني، حتى شرح صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر. فتتبعتُ القرآن أجمعه من العسبِ واللخافِ وصدور الرجال حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع أحد غيره:

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾(١).

فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاهُ الله، ثم عند عمرَ في حياتِه، ثم عند حفصةَ بنت عمرَ(٢).

كيفية جمع زيد للقرآن «في عهد أبي بكر»:

يقول زيد نفسه فيما رواهُ البخاري: «فتتبعتُ القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف والعسب وصدور الرجال» وهذا يفيدُ أنَّ طريقة الجمع تعتمد على أمرين:

١- ما كان محفوظًا في صدور الصحابة.

٢- ما كان مكتوبًا بين يدي رسول الله ﷺ ولا يقبلُ المكتوب إلَّا بشهادة عدلين.

روى ابن أبي داود -في كتاب المصاحف- من طريق يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب قال: «قدم عمر، فقال من كان تلقى من رسول الله ﷺ شيئًا من القرآن فليأتِ به(٣)، فأقبلَ الناس بما كان معهم وعندهم حتى

= رسول الله ﷺ حتى يحافظ على الرسم القرآني كما هو، جزى الله زيدًا أحسن الجزاء وأجزل له الثواب.

(١) التوبة: ١٢٨، ١٢٩.

(٢) صحيح البخاري. كتاب فضائل القرآن. باب جمع القرآن.

(٣) رجاله ثقات مع انقطاعه والحديثان في فتح الباري (٩/ ١١).

جمع على عهد أبي بكر في الورق[1]، فكان أبو بكر أول من جمع القرآن في المصحف».

وكان زيد رضي الله عنه لا يقبل شيئًا مكتوبًا حتى يشهد عدلان على أنَّ المكتوب كتب بين يدي رسول الله ﷺ، ذكرَ ذلك صاحب الفتح حيث قال: «وعند ابن أبي داود من طريق هشام بن عروة عن أبيه، أنَّ أبا بكرَ قال لعمرَ ولزيد: «اقعدا على باب المسجد، فمن جاءكما بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتباه».

ونقل السيوطي عن السخاوي[2] أنَّه قال: «المراد أنَّهما يشهدان على أنَّ ذلك المكتوب من الوجه التي نزل بها القرآن، أو المراد أنهما يشهدان على أنَّ ذلك المكتوب كتب بين يدي رسول الله ﷺ» قال أبو شامة: «كان غرضهم ألا يكتب إلَّا من عين ما كتب بين يدي النبي ﷺ».

يتضح للمتأمل أنَّ الجديرَ بالقبول هو أنَّ المرادَ بالشهادة فيهما، الشهادة على الكتابة بين يدي النبي ﷺ لا الشهادة على القرآنية، لأنَّ القرآنية لم تكن موضع شك حتى تحتاج إلى شهادة، لكثرة الحفاظ في ذلك الوقت، بخلاف الكتابة بين يدي النبي ﷺ فإنَّ كثيرًا من الصحابة كانوا يكتبونَ القرآن لأنفسهم على حسبِ ما يتيسر لهم، ولو في غير مجلس النبي ﷺ ويلاحظ أنَّ ما قاله ابن حجر من أنَّه لا يجوز أن يكون قد أريد بالشاهدين الحفظ والكتابة، لا عدلان من الناس يشهدان، هو احتمال في غاية البعد، لأنَّ اللفظ متبادر جدًا في هذا المعنى دون ما قصه ابن حجر، والله أعلم.

وبعد فلا يفوتنا أن ندفع الشبهة التي تعلق بها المغرضونَ في الرواية التي أثبتَ بها زيد كتابة آية لم يثبتها إلَّا شاهدانِ اثنان، وهذا كاف لإثبات عدم التواتر لهذه الآية المفقودة.

---

(١) في المصباح يعني بالورق في الأزمان المتقدمة الجلود الرقاق التي يكتب عليها.
(٢) الإتقان (١/٢٣٨)، والبيان ص١٧٩ .

نقولُ: إنَّ هذه الرواية وأمثالها لم تثبتها كتب الصحاح، وبعضُ هذه الروايات منقطع كما يقول علماء الحديث، ولو سلمنا أنَّ هذه الروايات صحيحة، لما ثبتت الدعوى. بل على فرض أنَّ زيدًا قد أثبتها منفردًا لم يكن ذلك قادحًا في تواتر القرآن، لأنَّ التعويل في توثيق القرآن إنما هو على الرواية، والتلقي طبقة عن طبقة إلى رسول اللّه ﷺ، مع تحقيق للتواتر في الرواية دون الكتابة، بل لو لم يكتبْ أصلًا ما قدح في تواتره، حيث نقل سماعًا ومشافهةً على سبيل التواتر في كل طبقة من طبقات رواته[١].

وبعد: هذا معنى جمع القرآن في عهد أبي بكر الذي كان أول من جمع القرآن بعد وفاة النبي ﷺ.

قال عليّ ﷺ: أعظم الناس في المصاحف أجرًا أبو بكر، رحمة اللّه على أبي بكر هو أول من جمعَ كتاب اللّه، ذكرَ ذلكَ ابن كثير وقال: إنَّ أبا بكر وضع الصحف التي جمع فيها القرآن بين لوحين[٢]، ومن الواضح البين أنَّه لا يمكن أن يجمع القرآن كله مع ترتيب آياته وسوره إذا كانت الأشياء التي كتب عليها مختلفة حجمًا ونوعًا، طولًا وعرضًا، كما أنَّ عددها لا يحصى، لأنَّ الآيات قد نزلت في مدى ثلاثة وعشرين عامًا وفي كل مرة ينزلُ فيها الوحي يكتب النازل من القرآن علي شيء من الأسماء المذكورة سابقًا.

لذا فقد تمت الكتابة على شيء واحد صالح للبقاء متماثل في طوله وعرضه، حتى يتأتى جمعه بين اللوحين وربطه بخيط كما في بعض الروايات، هذا الدور الذي قام به زيد بن ثابت، فكان له سبق التنفيذ، ولعمرَ بن الخطاب سبق الاقتراح، ولأبي بكر الصديق الأمر بذلك، ﷺ أجمعين.

* * *

---

(١) البيان ص١٨٢ .

(٢) فضائل القرآن ص٢٣ .

المبحث الثالث

الجمع في عهد عثمان رضي الله عنه

لئن كان جمع أبي بكر للقرآن خوفًا من ضياع المكتوب بموت حفظة القرآن، فإنَّ جمع عثمان بن عفان كان خوفًا من اختلاف الأمصار في وجوه القراءة، حين قرأه كل مصر بقراءة تختلف عن قراءة مصر آخر، وأدى ذلك إلى تخطئة بعضهم بعضًا، وفي قصة حذيفة بن اليمان خير بيان لأسباب الجمع والنسخ بتعبير أصح.

روى الإمام البخاري بسنده عن ابن شهاب، أنَّ أنس بن مالك حدَّثه أنَّ حذيفة بن اليمان قدم على عثمان، وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة، فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا اختلاف اليهود والنصارى، فأرسلَ عثمانَ إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف.

قال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن، فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم ففعلوا[1]، حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف ردَّ عثمان الصحف إلى حفصة، فأرسلَ إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمرَ بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق.

١- يتضح مما تقدم أنَّ سبب الجمع والداعي إلى نسخ المصحف، هو

---

(١) أخرجه البخاري في باب نزل القرآن بلغة قريش، وأذربيجان التي فتحت قبل أربعة عشر قرنًا كانت سببا في جمع القرآن.

منع التماري والاختلاف في القراءات بسبب تفرق الصحابة في الأمصار، فقد كان كل فريق يقرأ بما روي له عن الصحابة في بلده، فيختلف الشامي مع العراقي، والمكي مع المدني، وأظهرَ بعضهم تكفير بعض، والبراءة منه، وتلاعنوا، فأشفقَ حذيفة مما رأى منهم، فلمّا قدمَ المدينةَ فيما ذكرَ البخاري والترمذي دخل حذيفةَ على عثمان قبل أن يدخل إلى بيته فقال: «أدرك هذه الأمة قبل أن تهلك[1]» وفي هذا خير بيان للباعث على الجمع أو النسخ بتعبير أدق.

ما يستفاد من هذه الرواية:

٢- أنَّ عثمان بن عفان قد جعل على رأس القائمين على الجمع زيد بن ثابت، وهو من كتبة الوحي للرسول ﷺ، وهو الذي قام بالجمعِ في عهد أبي بكر، وبخبرته وعدالته وعقله كما وصفه أبو بكر «إنَّك شاب عاقل لا نتهمك» بكل هذا أصبح موضعًا للثقة، فولّاه عثمان الأمر، ولكنه أمرَ الكتبة إذا اختلفوا في كتابة كلمة أن يكتبوها بلغة قريش كما في كلمة «التابوت والتابوه»[2].

٣- أنَّ هذه الرواية مطلقة لم تحدد عدد المصاحف، وهناك رواية حددتها بسبعة، وقيل أربعة، قال القرطبي وهو الأكثر[3]، ولكن هذا القول يعوزه الدليل وإن ذهب إليه الأكثر، والحديث الذي سقناهُ سابقًا هو أصحُ ما في هذا الباب وقد جاء فيه النص هكذا: «فأرسل إلى كل أفق بمصحف» ولا شك أنَّه أرسلَ هذه المصاحف لرفع الخلاف في كل أفق. والآفاق المعروفة آنذاك: المدينة التي استبقى فيها نسخة، ومكة والكوفة والبصرة والشام واليمن والبحرين، فهذه آفاق لا شك أنَّه نال كل أفق منها

(١) تفسير القرطبي (١/ ٥١).
(٢) المرجع السابق (١/ ٥٤).
(٣) المرجع السابق (١/ ٥٤).

بنسخة، لذا نميلُ إلى هذا الرأي الصحيح في سنده والذي يتفق مع المنطق السليم لأنَّ القضاء على الاختلاف لا يتم إلَّا بإرسال المصاحف إلى كل مصر من الأمصار.

ولا شك أنَّ المصاحف التي أرسلها نسخة عن الأصل فهي نقل لعين ما نقل عن رسول الله ﷺ كما هو.

٤- في هذه الرواية أخبار عن حرق عثمان للمصاحف، سواء أكانت صحفًا أم مصاحف، وفي عمله جمع للمسلمين على المصحف الموحد الثابت عن رسول الله ﷺ وترك ما سواه لما حوته من قراءات شاذة أو تفسيرات زائدة.

ولقد غالى بعض الشيعة في قضية حرق المصاحف وزعمت ما زعمت، وكان الأحرى بهم أن يقفوا عن هذه المغالاة، وأن يستمعوا إلى قول الإمام علي كرَّمَ الله وجهه، فيما ذكَرَهُ أبو بكر الأنباري عن سويد بن غفلة قال: «سمعتُ علي بن أبي طالب يقول: «يا معشرَ الناس، اتقوا الله، وإياكم والغلو في عثمان، وقولكم: حرَّاق المصاحف، فوالله ما حرقها إلَّا على ملأ منَّا أصحابَ رسول الله ﷺ».

وعن عمير بن سعيد قال: قال علي بن أبي طالب: «لو كنتُ الوالي وقتَ عثمان لفعلتُ في المصاحف مثل الذي فعل عثمان»[1].

هذا كلام علي رضي الله عنه الذي يتشيعونَ له ويفضلونه على جميع الصحابة قد ارتضى فعل عثمان وحسنه، وحث الناس على الثناء عليه من أجله، فطعنهم فيه بأمر ارتضاهُ علي يعتبرُ طعنًا منهم في علي نفسه.

لم يكتف بعض الشيعة بالطعن في عثمان، بل زعموا أنَّ عثمانَ رضي الله عنه قد أسقطَ شيئًا من القرآن وحرف بعض آياتِه، والمنصف منهم يرفض هذا الزعم كما ورد في كتاب أبي جعفر «الأم»: «إنَّ اعتقادنا في جملة القرآن

---

(١) القرطبي (١/ ٥٤).

الذي أوحى به الله تعالى إلى نبيّه محمد ﷺ هو كل ما تحتويه دفتا المصحف المتداول بين الناس، وعدد السور المتعارف عليه هو [١١٤] سورة، أمّا عندنا فسورتا الضحى والشرح تكونان سورة واحدة، كذلك سورتا الفيل وقريش، وأيضًا سورتا الأنفال والتوبة. أمّا ما نسبَ إلينا الاعتقاد في أنَّ القرآن أكثرَ من هذا فهو كذب».

ولقد شهدَ المستشرقونَ على قطعية القرآن وثبوته دون تغيير ولا تبديل.

يقول جوير: «إنَّ المصحف الذي جمعه -نسخه- عثمان قد تواترَ إلينا بدون تحريف، ولقد حفظ بعناية شديدة، بحيث لم يطرأ عليه أي تغيير على الإطلاق في النسخ التي لا حصرَ لها، والمتداولة في البلاد الإسلامية، فلم يوجد إلّا قرآن واحد لجميع الفرق الإسلامية المتنازعة، وهذا الاستعمال الجماعي لنفس النص المقبول من الجميع حتى اليوم. يعد أكبر حجة ودليل على صحة النص المنزل الموجود معنا».

ويقول لوبلوا: «إنَّ القرآن هو اليوم الكتاب الرباني الوحيد الذي ليس فيه أي تغيير يذكر»(١).

أقول: والفضلُ ما شهدت به الأعداء.

* * *

(١) مدخل إلى القرآن الكريم. للدكتور دراز ص٢٩، والقرآن ونصوصه ص٨٧، ٨٨ .

المبحث الرابع

ترتيب الآيات والسور القرآنية

أولاً: ترتيب الآيات:

معنى الآية لغة: ١- العلامة: ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾[١].

٢- العبرة: ومنه قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا﴾[٢].

٣- المعجزة: ومنه قوله تعالى: ﴿سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ﴾[٣].

٤- الدليل والبرهان: ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾[٤].

والمناسبة بين كل هذه المعاني اللغوية للآية وبين الآية القرآنية واضحة، فهي من القرآن المعجز، وهي علامة على صدق من جاء بها، وفيها عبرة لمن أرادَ أن يعتبر بها، وهي من الأمور العجيبة لسمو أسلوبها ومعناها، وفيها معنى الدليل لأنها برهان على ما تضمنته من هداية وعلم[٥].

أمّا تعريف الآية القرآنية اصطلاحًا: «فهي طائفة من القرآن منقطعة عمّا قبلها وما بعدها».

هذا التعريف كما أورده السيوطي ينطبق على الآية كما ينطبق على تعريف السورة، لذا لابد من إضافة قيد لينحصر التعريف بالآية، فيقال: «هي طائفة من القرآن منقطعة عمّا قبلها وما بعدها معروفة بالسماع،

---

(١) البقرة: ٢٤٨.
(٢) آل عمران: ١٣.
(٣) البقرة: ٢١١.
(٤) الروم: ٢٢.
(٥) البيان: ٢١٠.

مندرجة في السورة».

وليس معنى انقطاع الآية عمّا قبلها وما بعدها، ألّا يكون لها تعلق في المعنى بسابقتها أو لاحقتها، وإنما المراد أنَّ ما يعدَ آية هو الذي لا يكون جزءًا من آية قبله أو آية بعده.

حكم ترتيب الآيات:

الإجماع معقود على أنَّ ترتيب الآيات توقيفي نقله السيوطي وقال: «ولا شبهة في ذلك». وقال الزركشي: «من غير خلاف بين المسلمين».

قال كاتب الوحي زيد بن ثابت: «كنا عند النبي ﷺ نؤلف القرآن في الرقاع».

قال البيهقي: «والمرادُ تأليفَ ما نزل من الآيات المفرقة في سورها وجمعها فيها بإشارة النبي ﷺ».

وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه: «كان رسول اللّه ﷺ إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من يكتب، فيقول ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا»(١).

ويكفي ثبوت الترتيب قراءته ﷺ لسور كثيرة بمشهد من الصحابة رضوان الله عليهم ثم نقله للتابعين على مثل ذلك، حتى وصل إلى جيلنا كذلك من غيرِ خلاف على مر العصور.

وربما يتوهم متوهم أنَّ الخلاف في عدد الآيات يعني الخلاف في ترتيبها، فقد روي أنَّ عدد الآيات ستة آلاف آية فقط ومنهم من زادها مائتي آية وأربع آيات، وقيل وأربع عشرة، وقيل وتسع عشرة، فهذا الخلاف في العدد لا يعني أبدًا الخلاف في الترتيب، ذلك أنَّ سبب اختلاف السلف في عدد الآي ناجم عن وقوف النبي ﷺ على رؤوس الآي، فإذا علم محلها

---

(١) سنن الترمذي (٥/ ٢٧٢)، ح٣٠٨٦ مختصرًا.

وصل للتمام فيحسب السامع حينئذ أنّها ليست فاصلة[1].

كما أنَّ بعض السلف يعد البسملة آية من كل سورة وبعضهم لا يعدها، فيكونُ الفارق في عدد الآيات بمقدار عدد السور.

ثانيًا: السور القرآنية:

معناها: لفظ السورة مفرد يجمع على سور، كغرفة وغرف، وتطلق لغة على المنزلة من البناء أي الصف من صفوفه التي يوضع بعضها فوق بعض، كما تطلق ويراد بها المنزلة الرفيعة، وسميت السورة من القرآن بهذا الاسم تشبيهًا لها بسورة البناء، فإنها قطعة من كتاب اللَّه محكمة مترابطة يكمل بعضها بعضًا، ويتحقق باجتماعها الغرض الذي من أجله أقيم البناء، أوسميت بذلك لارتفاعها، لكونها من كلام اللَّه، وعلى كلا التقديرين فالمناسبة حاصلة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي.

أمّا معناها الاصطلاحي فما سبق ذكره: «بأنها طائفة من القرآن منقطعة عمّا قبلها وما بعدها معروفة بالسماع».

وسور القرآن تختلف طولًا وقصرً، فسورة الكوثر هي أقصر سور القرآن إذ يبلغ عدد آياتها ثلاث آيات، وسورة البقرة أطول سور القرآن وقد تجاوزت الجزأين، وقد قسم القرآن حسب طول السور وقصرها إلى أربعة أقسام:

١- السور الطوال: وهي سبع: سورة البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، أمّا السورة السابعة فقيل إنَّها سورة الأنفال والتوبة معًا، إذ لم يكتب بينهما بسم الله الرحمن الرحيم، وقيل سورة يونس.

٢- المئون: وهي كل سورة تزيد آياتها عن مائة.

٣- المثاني: وهي التي تلي المئين أي ما كان عدد آياتها أقل من مائة

---

(١) الإتقان (١/ ٦٧).

وسميت بالمثاني لأنها تثنى (أي تكرر) أكثر مما تثنى الطوال والمئون.

٤- المفصل: وهي أواخر القرآن ابتداء من سورة (ق) أو الحجرات وانتهاء بسورة الناس.

* * *

حكم ترتيب السور القرآنية

في ترتيب السور ثلاثة آراء:

١-ترتيب جميع السور توقيفي ويستدل أصحاب هذا الرأي بقصة معارضة جبريل القرآن على النبي ﷺ ، وهذا يعني أنَّ جبريل كان يقرأ القرآن مرتبًا بسوره وآياتِه. وأقوى أدلة هذا الفريق هو إجماعُ الصحابة رضوان اللّه عليهم على المصحف العثماني وحرقهم لجميع المصاحف المختلفة الترتيب في السور.

٢- ترتيب جميع السور اجتهادي ويستدلونَ على ذلك باختلاف مصاحف الصحابة في ترتيب السور، ولو كان الترتيب توقيفيًا لما اختلفوا. وكذلك ما روي عن عثمان رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ قبض ولم يبيّن للصحابة أمر سورتي الأنفال وبراءة، وكانت الأنفال من أول ما نزل من القرآن وكانت براءة من آخر ما نزل ، ولما ترك النبي ﷺ البيان قال عثمان: كانت **قصتها شبيهة بقصتها**، فظننتُ أنَّها منها، فمن أجل ذلك قرنت بينها **ولم أكتب** «بسم الله الرحمن الرحيم» ووضعتها في السبع الطوال، **فهذه القصة تدل على أنَّ** ترتيب السور كان أمرًا اجتهاديًا.

٣- ترتيب **بعض السور توقيفي** وبعضها الآخر اجتهادي.

وقد وصفَ **الزرقاني** هذا القول بأنَّه أمثل الآراء وإليه ذهبَ فطاحل العلماء[1].

وأصحابُ **هذا الرأي** وإن اتفقوا على هذا التقسيم **إلا أنَّهم** اختلفوا في مقدار **التوقيفي والاجتهادي**.

وعلى أية **حال فإنَّ الذي لا** مجال للشك فيه أنَّ كتابة القرآن بترتيبه المعروف في السور **والآيات** قد أجمعت عليه الأمة منذ الجمع الأول

---

(١) مناهل العرفان (١/ ٣٤٩).

والثاني وحتى عصرنا الحاضر.

لذا نميلُ إلى الرأي الأول لأنَّ إجماعَ الصحابة وإقرارهم كاف للدلالة على توقيف ترتيب السور ولا نعلمُ عنهم خلافًا فكفى بذلك دليلًا وبرهانًا والله أعلم.

* * *

المبحث الخامس

رسم المصحف

نقصد برسم المصحف أو كما يسميه بعض العلماء الرسم العثماني وهما واحد، لأنَّ عثمان رضي الله عنه قد كتب في عهد الرسول ﷺ وأقر كتاب الوحي على كتابتها بصورتها المعروفة. وقد اختلفَ العلماء في الرسم فذهب فريق منهم أنَّ الرسم توقيفي قال ابن المبارك في كتابه الإبريز:

قال الدباغ: «ما للصحابة ولا لغيرهم في رسم القرآن العزيز ولا شعرة واحدة، وإنما هو توقيف من النبي ﷺ، وهو الذي أمرهم أن يكتبوه على الهيئة المعروفة بزيادة الأحرف ونقصانها لأسرار لا تهتدي إليها العقول، وما كانت العرب في جاهليتها، ولا أهل الإيمان من سائر الأمم في أديانهم يعرفون ذلك، ولا يهتدونَ بعقولهم إلى شيء منه، وهو سر من أسراره خص الله كتابه العزيز دوّن سائر الكتب السماوية، فلا يوجد شبه ذلك الرسم لا في التوراة ولا في الإنجيل، ولا في غيرهما من الكتب السماوية.

وكما أنَّ نظمَ القرآن معجز فرسمه أيضًا معجز، وكيفَ تهتدي العقول إلى سر زيادة الألف في مائة دون فئة، وإلى سر زيادة الياء في بأييد من قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٍ﴾(١).

أم كيف تتوصل إلى سر زيادة الألف في «سعوا» في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾(٢).

وعدم زيادتها في «سعو» من قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٞ﴾(٣).

---

(١) الذاريات: ٤٧.
(٢) الحج: ٥١.
(٣) سبأ: ٥.

وإلى سر زيادتها في قوله تعالى: ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾[1].

وحذفها من قوله تعالى: ﴿وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾[2].

وإلى سر زيادتها في قوله تعالى: ﴿أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾[3].

وإسقاطها من قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾[4].

أم كيفَ تبلغ العقول إلى وجه حذف الألف في بعض الكلمات المتشابهة دون بعض، كحذفِ ألف «قرآنا» في يوسف والزخرف، وإثباته في سائر المواضع، وكذا إثبات الألف بعد الواو في «سموات» في سورة فصلت، وحذفها في غيرها، وكذا في إطلاق بعض التاآت وربطها نحو «رحمة» و«نعمة» و«قرة» و«شجرة» فإنَّه في بعض المواضع كتبت بالتاء المفتوحة وفي مواضع أخرى كتبت بالهاء.. وكل ذلك لأسرار إلهية وأغراض نبوية[5].

وذهب الفريق الثاني: منهم ابن خلدونَ والباقلاني إلى أنَّ الرسم اصطلاحي واجتهادي لا توقيفي. قالَ الباقلاني: «وأمَّا الكتابة فلم يفرض النبي ﷺ على الأمة فيها شيئًا إذ لم يأخذ على كتاب القرآن وخطاط المصاحف رسمًا بعينه دون غيره أوجبه عليهم وترك ما عداه، إذ وجوب ذلك لا يدرك إلَّا بالسمعِ والتوقيف، وليس في نصوص الكتاب ولا مفهومه أن رسم القرآن وضبطه لا يجوز إلَّا على وجه مخصوص وحد محدود لا يجوز تجاوزه، ولا في نص السنة ما يوجب ذلك ويدل عليه،

---

(١) الأعراف: ٧٧ .
(٢) الفرقان: ٢١ .
(٣) البقرة: ٢٣٧ .
(٤) النساء: ٩٩ .
(٥) الإبريز ص٥٧ .

ولا في إجماع الأمة ما يوجب ذلك، ولا دلت عليه القياسات الشرعية، بل السنة دلت على جواز رسمه بأي وجه سهل، لأنَّ رسول اللّه ﷺ كان يأمرُ برسمه ولم يبين لهم وجهًا معينًا، ولا نهى أحدًا عن كتابته.

ولذلك اختلفت خطوط المصاحف، فمنهم من كان يكتب الكلمة على مخرج اللفظ، ومنهم من كان يزيد وينقص لعلمه بأنَّ ذلك اصطلاح، وأنَّ الناس لا يخفى عليهم الحال، ولأجل هذا بعينه جاز أن يكتب بالحروف الكوفية والخط الأول، وأن يجعل الكلام على صورة الكاف، وأن تعوج الألفات، وأن يكتب على غير هذه الوجوه، وجاز أن يكتب المصحف بالخط والهجاء القديمين، وجازَ أن يكتب بالخطوط والهجاء المحدثة، وجاز أن يكتب بين ذلك، وإذا كانت خطوط المصحف وكثير من حروفها مختلفة ومتغايرة الصورة، وكان الناس قد أجازوا أن يكتب كل واحد منهم بما هو عادته، وما هو أسهل وأشهر وأولى، من غير تأثيم ولا تناكر، علم أنَّه لم يؤخذ في ذلك أن الخطوطَ إنما هي علامات ورسوم تجري مجرى الإشارات والعقود والرموز. فكل رسم دال على الكلمة مقيد بوجه قراءته تجب صحته وتصويب الكاتب به على أية صورة كانت، وبالجملة فكل من ادعى أنَّه يجبُ على الناس رسم مخصوص وجب عليه أن يقيم الحجة على دعواه وأنَّى له ذلك[١].

هذه أقوال الفريقين ويظهرُ أنَّ القولَ بتوقيف الرسم هو الأولى بالقبول.

قال البيهقي: «من يكتب مصحفًا فينبغي أن يحافظ على الهجاء الذي كتبوا به تلك المصاحف، ولا يخالفهم فيه، ولايغير مما كتبوه شيئًا، فإنَّهم كانوا أكثر علمًا وأصدقَ قلبًا ولسانًا، وأعظمَ أمانةً منَّا، فلا ينبغي أن نظنَّ بأنفسنا استدراكًا عليهم[٢].

---

(١) الإبريز ص٥٩ .

(٢) الإتقان (٢/ ١٦٧).

نص الإمام مالك على أنَّه لا توضع المصاحف إلَّا على وضع كتابة الإمام يعني عثمان بن عفان.

وقال الإمام أحمد: «تحرم مخالفة خط مصحف عثمان واو أو ياء أو ألف أو غير ذلك»(١).

بقي القول في حكم كتابة بعض آيات القرآن استشهادًا أو كتابتها على اللوح للتعليم أو غير ذلك مما يكتب في غير المصاحف.

أقول: جائز لأنَّ النبي ﷺ حين أمر كُتَّابه أن يكتبوا للملوك والرؤساء كانت كتابتهم على رسم الكتابة العادية، وعلى غير الرسم الذي كانوا يكتبون به المصاحف التي يكتبونَ فيها القرآن حين نزوله، مع أنَّ المملي واحد والكتاب هم هم، فالرسم القرآني يجب التزامه في كتابة المصحف وحده دون غيره ولا يقاس عليه لأنَّه أمر توقيفي لغير علة فلا يدخله القياس.

* * *

---

(١) المرجع السابق.

شكل المصحف وإعجامه

الشكل: «هو وضع العلامات التي تدل على ما يعرض للحرف من حركة أو سكون».

أمّا الإعجام: «فخاص ببيان ذات الحرف، وتمييزه عن غيره، ويكون بالنقط كالتاء عليها نقطتان وياء تحتها نقطتان ونحو ذلك».

وجدير بالذكرِ أنَّ القرآن قد كتب خاليًا من الشكل والإعجام، وقد كتبه عثمان بن عفان كذلك، ولم يخش عليه من الالتباس لأنَّ العربَ يدركونَ القرآن بسليقتهم وكان تلقيهم للقرآن عن طريق الرواية والسماع.

وطبيعي أن مخالطة العرب لغيرهم قد أفسدت هذه السليقة السليمة، وبدأ يظهر اللحن رويدًا رويدًا، وينتشرُ شيئًا فشيئًا، حتي بدا لزياد بن أبيه[(١)] والي البصرة أن يضعَ حدًا لهذه الظاهرة، بعد أن أشار عليه أبو الأسود الدؤلي بعد فزعه عندما سمعَ رجلًا يقرأ قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾[(٢)]. بجر اللام في «رسوله» بدل رفعها أو نصبها، فعهد زياد لأبي الأسود أن يقوم بهذه المهمة الجليلة، والتي كانت الحاجة إليها أمس وأقوى من الحاجة إلى الإعجام، وذلك أنَّ الخطأ في حركات الحروف أضعاف الخطأ في إعجامها، وكان الشكلُ في البداية بالنقط، ولمَّا أريدَ وضع الإعجام بالنقط، أصبح الأمرُ ملتبسًا في التمييز بين الشكل والإعجام، فعمدوا إلى تغيير لون النقط، ثم جعلَ الشكل بالطريقة المعروفة لنا الآن، وبقي الإعجام هو المختص بالنقط، وقيل أنَّ الذي أمر بالإعجام هو الحجاج بن يوسف. وعلى هذا فالآمر بالشكل والآمر بالإعجام هما واليا العراق، وهمَا ثقفيان من ثقيف التي طالما استعملهم

(١) وقيل الحسن البصري ويحيى بن يعمر وقيل نصر بن عاصم الليثي وهؤلاء جميعًا من التابعين.

(٢) التوبة: ٣ .

الأمويون في حكم العراق بالذات لما عرفوا من شدتهم في جاهليتهم وإسلامهم والله أعلم.

* * *

الفصلُ الخامس
أساليب البيان

المبحث الأول: القصة في القرآن.

المبحث الثاني: العام والخاص.

المبحث الثالث: المطلق والمقيد.

المبحث الرابع: المنطوق والمفهوم.

المبحث الأول

القصة في القرآن

لقد تناول القرآن - موضوع القصة - لا كما يتناوله القصاص والأدباء بل نهج فيه نهجًا مختلفًا ليحقق الأهداف والمرامي التي يريدها، فقصصه كما يقول الشاطبي لا يراد بها سرد تاريخ الأمم والأنبياء والأشخاص، وإنما قصده منها العظة والعبرة وهو الأعم، وبيان الأحكام أحيانا الذي يري فيه بعض المجتهدينَ (أنَّ شرع من قبلنا شرع لنا). وقد ذكر القرآن لنا بعض أهدافه ومراميه والحكمة التي يقصدها: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾(١).

لذا جاءت القصة القرآنية متناثرة في سور متعددة، لتحقق الغرض الذي سيقت من أجله في كل سورة وردت فيها إلَّا ما ورد استثناء في قصة يوسف عليه السلام التي وردت كاملة متكاملة غير منقوصة في سورة سميت باسمه عليه السلام ، أمَّا بقية قصص الأنبياء فقد وردت مشتتة ومجزأة في مواضع مختلفة من السور لتحقق العبرة والعظة التي سيقت من أجلها في تلك المواضع، وفي ذلك حكمة ربانية قد نعلمها أو لا نعلمها وقصور علمنا البشري عن إدراك ذلك يجعلنا في حيرة بل ليقول الذين في قلوبهم مرض ماذا أرادَ اللّه بهذا مثلًا من هذا السر القصصي، وهذا التكرار الذي لا داعي له. إذ ما معنى أن يقول عن قصة إبراهيم في سورة الذاريات مثلًا: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ إلى قوله فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾(٢)، ويقول في سورة أخرى: ﴿أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾(٣)، وهلم جرا من

---

(١) هود: ١٢٠ .

(٢) الذاريات: ٢٤، ٢٦ .

(٣) هود: ٦٩

الآيات التي تقص طرفًا من القصة وقد يأتي في موضع آخر من سورة أخرى بمثل ما ورد في الأولى.

وقد راح بعض المفسرين في جمع الأشتات في المواضع المتعددة وكون منها جميعًا قصة، وكثيرًا ما يدخل إليها تلك الإسرائيليات، ليكونَ منها قصة ومسلسلًا عجيبًا، وقد تجد فيه العجب العجاب الذي تطير منه الألباب، وما علموا أنَّ هذا القصص ليس للتسلية والتاريخ إنما هو للعبر والاتعاظ وللتنبيه على سنن اللّه في الاجتماع البشري وبيان مآل الأقوام حين تحيد عن منهاج اللّه وتسلك سبيل الظلم والضلال.

وما علموا أنَّ الذي أضافوه من الغث والسمين لا يضرُّ ولا ينفعُ وكأنَّهم يرون نوعًا من الاستدراك على القرآن وإكمالًا للنقص في القصة، وفي هذا وذاك قصور في النظر في محتوى القصص القرآني لأنَّ اللّه سبحانه وتعالى حين قص علينا أحسنَ القصص بالصورة التي وردت في القرآن قد استوفى الفائدة المرجوه من القصة على الصورة التي وردت من غير زيادة ولا نقص، ولو كان شيئًا يهمنا ويفيدنا في زيادة أكثر مما هو مذكور لقصه لنا، فمثلًا حين قص علينا قصة أهل الكهف لم يذكر لنا أسماءهم ولا وصف حالهم في نومهم ويقظتهم، ولا اسم الملك الظالم في زمنهم، ولا اسم كلبهم، ولا مكان كهفهم الذي نزلوا فيه، وإنَّه وإن كانت النفوس تتشوق لمثل ذلك حسب غريزة حب الاستطلاع إلَّا أنَّ هدف ومراد القصص لم يسق لتحقيق شيء من ذلك، ولو كان ذكرَ ذلك مقصودًا لذكره اللّه لنا فإنَّ اللّه ينزه عن إهمال ذكر شيء ينفعنا علمه، بل هو كما قال المفسرون: «هو شيء لا ينفعنا ذكره ولا يضرنا جهله، ولو كان ينفعنا أو يضرنا لذكره اللّه لنا»(١).

وإنما كان المفسرونَ لا يرون كبير بأس في التوسع في ذكر هذه

---

(١) جامع البيان في تأويل آي القرآن للطبري (٧/ ١٣٥).

القصص، لأنَّه لا تتعلق بعقائد أو أحكام، ولكنها من قبيل الاعتبار والعظة، وغرس فضائل الأعمال. قال الإمام أحمد بن حنبل: «إذا روينا في الحلال والحرام شددنا، وإذا روينا في الفضائل ونحوها تساهلنا»[١]، فبالأحرى القصص.

وممن توسعَ في إيراد القصص في التفسير أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري المتوفى سنة سبع وعشرين وأربعمائة صاحب «التفسير الكبير»، وكذلك عبد الله بن عمرو الذي أصابَ جلة من كتب أهل الكتاب، وأدمنَ النظر فيها، ورأى فيها عجائب، وردت عنه أشياء تتعلق بالقصص وأخبار الفتن والآخرة[٢].

ثم ولع بعض المفسرين المتأخرين بالغرائب والتفصيلات في القصص، لا طائل تحتها، فأوقعهم في كثير من المحاذير، حتي صعبَ على بعض الناس التفريق بين فهم هؤلاء المفسرين للقرآن وقصصه وبين النص القرآني نفسه، وأوضح ما كان ذلك في القصص الإسرائيلي حول الأنبياء وحياتهم.

ولعل في تفسير الخازن خير شاهد على ذلك.

* * *

(١) القول المسدد في الذب عن المسند للإمام أحمد لابن حجر العسقلاني ص١١
(٢) تذكرة الحفاظ (١/ ٤١).

المبحث الثاني

العام والخاص

العام: «هو لفظ وضع للدلالة على أفراد غير محصورين على سبيل الاستغراق والشمول»، أو «هو اللفظ الموضوع الذي يستغرق جميع ما يصلح له من أفراد غير حصر كميّ أو عددي».

وقد وردَ في اللغة صيغ تدل على العموم نوردها مستشهدينَ بالآيات القرآنية.

١- اسم الجنس إذا عرف بأل، كقوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾[1].

فلفظ الزانية والزاني يدل على العموم أي كل زانية وكل زان.

٢- الألفاظ: «كل وجميع وأجمع وكافة»، كقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾[2]، وقوله: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾[3].

وقوله: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾[4]، وقوله: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾[5].

٣- لفظ «من» فيمن يعقل سواء أكانت للشرط، كقوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾[6]. أم كانت للاستفهام، كقوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾[7].

٤- لفظ «ما» فيما لا يعقل في الجزاء والاستفهام، كقوله تعالى: ﴿وَمَا

---

(١) النور: ٢ .
(٢) آل عمران: ١٨٥ .
(٣) ق: ٢١ .
(٤) التوبة: ٣٦ .
(٥) ص: ٧٣ .
(٦) الأنعام: ١٦٠ .
(٧) الحديد: ١١ .

مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾(١).

أي كل دابة، وكقوله: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾(٢) أي: أي شيء خلقتم.

٥- النكرة المنفية أو في سياق النفي، كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾(٣).

فلفظ «إله» نكرة منفية ولفظ «سنة» نكرة في سياق النفي وكلا اللفظين يدل على العموم.

٦- لفظ الجمع المعرف بالإضافة، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾(٤).

٧- الأسماء الموصولة، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً﴾(٥).

أمّا التخصيص: «**فهو قصر العام على بعض أفراده بدليل**».

والمختص قد يكون منفصلًا أو متصلًا، أو على حد تعبير الأصوليين مستقلًا أو غير مستقل، وقد يكون غير ذلك كما سنرى.

والمخصص المتصل هو نفسه غير مستقل وهو غير تام بنفسه لاعتماده على ما قبله من لفظ العام وهو منحصر في أربعة:

١- التخصيص بالاستثناء: وهو إخراج ما بعد إلّا أو إحدى أخواتها مما قبلها، كقوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾(٦)، فالاستثناء جعل الحكم مقصورًا على من كفر

---

(١) هود: ٦ .
(٢) لقمان: ١١ .
(٣) البقرة: ٢٥٥ .
(٤) الإسراء: ٣١ .
(٥) النور: ٤ .
(٦) النحل: ١٠٦ .

راضيًا مختارًا.

٢- التخصيص بالشرط: أي تعليق الأمر على شرط بإحدى أدوات الشرط وهي كثيرة، قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾(١).

فوجود المال شرط في الوصية فإن عدم فلا وصية.

٣- التخصيص بالغاية: وألفاظ الغاية إلى وحتى، مثال «إلى» قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾(٢).

فإتمام الصيام عام وقد خصص بدخول الليل إذ لا يجبُ فيه الصيام. ومثال «حتى» قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ﴾(٣).

٤- التخصيص بالصفة: مثل قوله تعالى: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾(٤).

ومعنى ذلك أن الربيبة من المرأة لا تحرم على الرجل إلَّا إذا دخل على أمِّها، فإذا لم يدخل على أمها حلت له الربيبة.

وعلى هذا وضعت القاعدة، الدخول على الأمهات يحرم البنات والعقد على البنات يحرم الأمهات.

وقد ألحق بعض الفقهاء بدل بعض من كل، والحال، وجعلوهما مثل التخصيص بالصفة. فبدل بعض من كل، مثل قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾(٥).

فلا يجبُ الحج على جميع الناس بل هو خاص على المستطيع منهم.

---

(١) البقرة: ١٨٠

(٢) البقرة: ١٨٧

(٣) البقرة: ١٩٦

(٤) النساء: ٢٣، الربيبة هي بنت الزوجة.

(٥) سورة آل عمران ٩٧

أمّا الحال فمثاله قوله تعالى: ﴿لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾(١).

فحرّم قتل الصيد حالة الإحرام خاصة وأباحه في الإحلال منه.

أمّا المخصص المنفصل أو المستقل فيشمل أنواعًا كثيرة فقد يخصص عموم القرآن آية أو حديث أو إجماع، ومثال تخصيص عموم القرآن بالقرآن قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾(٢).

فهذه الآية عامة تدل على أنّ عدّة كل امرأة توفى عنها زوجها هي أربعة أشهر وعشرة أيام، ثم جاءت الآية الكريمة تخصص عمومها: ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾(٣). فجعلت مدة عدة الحامل المتوفى عنها زوجها هي وضع حملها، سواء بلغت المدة أربعة أشهر وعشرة أيام أم لم تبلغ.

أمّا تخصيص السنة للقرآن: فمثالُه ما ورد عن النبي ﷺ في رجم الزاني المحصن، فهذا مخصص لآية الجلد في سورة النور: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾(٤).

هذا وفي كتب الأصول أبحاث مستفيضة لمن أراد المزيد.

* * *

---

(١) المائدة: ٩٥ .

(٢) البقرة: ٢٣٤ .

(٣) الطلاق: ٤ .

(٤) النور: ٢ .

المبحث الثالث

المُطْلَقُ وَالمُقَيَّد

المطلق: ما دل على فرد شائع غير مقيد لفظًا بأي قيد كحيوان وطائر وتلميذ، فإنها ألفاظ وضع كل منها للدلالة على فرد واحد شائع في جنسه، ولئن كانت النكرة في سياق النفي تفيد العموم فإنها في سياق الإثبات غالبًا ما تدل على الإطلاق.

أمَّا المقيد: «فهو ما دل على فرد مقيد لفظًا بقيد ما»(١) كحيوان ناطق، وتلميذ مجتهد.

متى يحمل المطلق على المقيد:

هناك حالات متفق عليها يحمل فيها المطلق على المقيد، وحالات متفق عليها على عدمِ حمل المطلق على المقيد، وحالات مختلف فيها.

اتفقوا على حملِ المطلق على المقيد، في حالة اتحاد الموضوع والحكم معًا، وخير مثال على هذه الحالة، ما رواهُ أبو هريرة ﷺ قال: واقع رجل امرأته في رمضان، فاستفتى رسول اللّه ﷺ عن ذلك، فقال: «**هل تجد رقبة؟**» قال: لا، قال: «**هل تستطيعُ صيام شهرين؟**» قال: لا، قال: «**فأطعم ستين مسكينًا**». رواه البخاري(٢).

ورواه ثانية عن الرواي نفسه أنَّه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: هلكتَ يا رسول اللّه، قال: «وما أهلك؟» قال: وقعتُ على امرأتي في رمضان، قال: «**هل تجد ما تعتق رقبة؟**» قال: لا، قال: «**فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين؟**»، قال: لا، قال: «**فهل تجد ما تطعمُ ستين مسكينًا؟**» قال: لا.

---

(١) مسلم الثبوت (١/ ٣٦٠).

(٢) صحيح البخاري. كتاب الحدود، باب من أصاب ذنبًا دون الحد.

قال أبو هريرة ثم جلس فأتى النبي ﷺ بعرق فيه تمر، فقال: «تصدَّق بهذا»، قال: أعلى أفقر منا؟ فما بين لابتيها أهل بيت أحوج إليه منا؟.

فضحك النبي ﷺ حتى بدت أنيابه، ثم قال: «اذهب فأطعمه أهلك»(١).

فهذان الحديثان موضوعهما وهو الجماع المتعمد في رمضان، والحكم فيهما واحد؛ إمّا الإعتاق، وإمّا الصوم ستين يومًا وإمّا الإطعامُ، وقد ذكرَ الحديث الأول صيام شهرين وأطلقهما من التفريق أو التتابع.

أمّا الحديث الثاني: فقد قيد صيام الشهرين بالتتابع، لذا يحمل المطلق على المقيد فلا يجزئ صيام الشهرين إلّا إذا كانا متتابعين، وإنما قلنا بوجوب حمل المطلق على المقيد في هذه الحالة لأنَّ العامل بالحكم المقيد هو عامل بالحكم المطلق أما العامل بالمطلق فلا يكون عاملًا بالمقيد لذا وجبَ الجمعُ بينهما ما دام ذلك ممكنًا.

أمّا الحالة الثانية التي اتفقَ الأصوليون على عدم حمل المطلق على المقيد فيها فهي حالة اختلاف الموضوع والحكم معًا، مثال هذه الحالة: قوله تعالى في كفارة اليمين في حالة عدم استطاعة الحانث في يمينه أن يطعم أو يكسو أو يعتق: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ﴾(٢).

فقد أطلقت الآية الصوم ولم تقيده بالتتابع لذا يجوزُ التتابع والتفريق في الصيام.

أمّا قوله تعالى في كفارة قتل الخطأ: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾(٣).

---

(١) صحيح البخاري. كتاب الصوم. باب إذا جامع في رمضان ولم يكن له شيء فتصدق عليه فليكف.

(٢) البقرة: ١٩٦ .

(٣) النساء ٩٢ .

فقيدَ الصوم بالتتابع، فلا يحملُ المطلق على المقيد في مثل هذه الحالة لأمرين:

أولًا: لاختلاف الموضوعين، إذ الآية الأولى في كفارة اليمين والثانية في كفارة قتل الخطأ.

وثانيًا: لأنَّ الحكمين مختلفان في الاثنين.

وهناك حالات مختلف فيها، كحالة اختلاف الموضوع أو الحكم وإن وافقَ اتحاد أحدهما والخلاف طويل بين الأصوليين، يطول بنا المقام إن تحدثنا عنه.

* * *

المبحث الرابع

المنطوق والمفهوم

لا يتأتى لمفسر مجتهد أن يفسر أو يفقه شيئًا من القرآن إلّا إذا أحاطَ بآياتِ القرآن الكريم، وكيفية دلالتها على المعاني، فلابد من معرفة منطوقِ القرآن ومفهومه، وسنتحدث عن المنطوق والمفهوم بإيجاز تاركين التفصيل لأمهات كتب الأصول.

١- المنطوق:

عرَّفه العلماء: «**بأنّه ما دل عليه اللفظ في محلِ النطق**» كوجوب غسل الوجه واليدين إلى المرافق، الذي دلت عليه الآية بمنطوقها في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ﴾(١).

وإن دلّ لفظه على تمام معناه، فالدلالة مطابقة كقوله تعالى: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡۗ تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ﴾(٢).

وإن دل اللفظ على جزء المعنى فهو التضمن، وإن دلَّ اللفظ على الحكم بطريق الالتزام فهو دلالة التزام، كقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلۡمَوۡلُودِ لَهُۥ رِزۡقُهُنَّ وَكِسۡوَتُهُنَّ﴾(٣).

فإنَّ من كلف بالنفقة يجبُ أن يثبت له نسبُ المولود.

ويجبُ أن يراعي في دلالة المنطوق بالقرآن حمل دلالة ألفاظه على المعاني الشرعية والتي تكفَّلَ الشارعُ الحكيم ببيانها، فإذا ما ورد في القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن

---

(١) المائدة: ٦ .

(٢) البقرة: ١٩٦ .

(٣) البقرة: ٢٣٣ .

﴿قَبْلِكُمْ﴾[1].

وجب تفسير الصوم بمدلوله الشرعي لا اللغوي.

فإذا لم يكن للفظ مدلول شرعي وجب أخذ معناه من الحقيقة العرفية في عهده ﷺ فإن تعذَّر ذلك حمل على المدلول اللغوي.

٢- المفهوم:

عرَّفه العلماء بأنَّه: **«ما دلَّ عليه اللفظ لا في محل النطق»** فالمعنى المدلول عليه لم يؤخذ من اللفظ المنطوق مباشرة، بل هو مسكوت عنه، وهذا المعنى المستفاد المسكوت عنه إن كان موافقًا في الحكم للمعنى المستفاد من المنطوق، فهو مفهوم الموافقة، وإن كان مخالفًا للمنطوق فهو مفهوم المخالفة، وعلى هذا فالمفهوم قسمان:

القسمُ الأول: مفهوم الموافقة، أو يسمَّى بفحوى الخطاب أو لحن الخطاب. مثاله قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾[2].

فالآية تحرِّم التأفف والنهر للوالدين هذا هو منطوقها، وهي تحرم كذلك الضرب والإيذاء لهما، وإن لم ينطق بهما، إلَّا أنَّ هذا المسكوت عنه أولى بالتحريم، وهو مفهوم موافقة، لأنَّ حكم ضرب الوالدين موافق لحكم التأفف والنهر لهما في التحريم، وهذا ما يسميه بعض الفقهاء فحوى الخطاب، وقد يكون مفهوم الموافقة المسكوت عنه مساويًا لحكم المنطوق، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا﴾[3].

فالآية بمنطوقها قد حرَّمت أكل أموال اليتامى ظلمًا، ويفهم منها تحريم إحراق أموال اليتامى إذا كان مما يحرق، وتحريم الركوب إذا كانت مما

---

(١) البقرة: ١٨٣ .

(٢) الإسراء: ٢٣ .

(٣) النساء: ١٠ .

يركب فتحريم الحرق أو الركوب أو غير ذلك مساو لحكم أكل مال اليتيم.

القسمُ الثاني: مفهوم المخالفة، أو كما يسميه ابن فورك دليل الخطاب: وهو كما عرّفه العلماء دلالة اللفظ على ثبوت حكم للمسكوت عنه مخالف لما دلَّ عليه المنطوق لانتفاء قيد من القيود المعتبرة في الحكم(١).

وقد اختلفَ في أنواع مفهوم المخالفة تبعًا للقيود المعتبرة وأصح الأقوال أنَّها أربعة أنواع وهي:

١- مفهوم الصفة: وهو تعليق الحكم بالصفة المفهمة التي تشعر بالعلية فإذا انتفى الوصف انتفى الحكم، مثاله قول اللّه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾(٢).

فالآية بمنطوقها تدلُّ على وجوب التبيين إذا كان المُخبر فاسقًا، ومفهوم المخالفة إذا كان المخبر عدلًا وثقة فلا يجبُ التبيّن والتثبّت بل يقبل قوله وخبره.

٢- مفهوم الشرط: وهو تعليق الحكم على الشيء بكلمة «إنْ» أو غيرها من أدوات الشرط.

فلا خلاف أن المشروط لا يثبت إلَّا بثبوت الشرك فإذا انتفى الشرط انتفى المشروط فقوله تعالى في سورة الطلاق: ﴿. . . وَإِن كُنَّ أُوْلَـٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ. . .﴾(٣)، يدل على وجوب النفقة إذا كانت المرأة حاملًا فإذا لم يتحقق الحمل فلا تجب النفقة لعدم تحقق الشرط.

٣- مفهوم الغاية: وهو تعليق الحكم بغاية فيكون ما بعدها مخالفًا لما

---

(١) ابن الحاجب مع العضد والسعد (٢/ ١٧٢).
(٢) الحجرات: ٦ .
(٣) الطلاق: ٦ .

قبلها مثاله قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾[1].

فمنطوق الآية يفيد وجوب الصيام في النهار إلى ابتداء الليل أي المغرب، وهي تدل بمفهومها على عدم وجوب الصوم بعد دخول الليل.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾[2].

فمنطوقها النهي عن قرب النساء أيام الحيض إلى أن تطهر، ومفهومه إباحة قربهن بعد طهارتهن.

٤- مفهوم العدد: وهو تعليق الحكم بعدد مخصوص يدل على أن ما عدا ذلك العدد بخلافه ومثاله قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾[3].

ومفهوم المخالفة أنَّهم إذا أتوا بأربعة شهداء عدول فإنَّهم لا يجلدون ثمانين جلدة.

ما لا يعمل به مفهوم المخالفة:

١- لا يعمل بمفهوم المخالفة للاسم واللقب، فإذا حكمنا على زيد بالقيام فلا يعني الحكم على غيره بالقعود وعدم القيام لأنَّ زيدًا علم.

ولا يعمل بمفهوم المخالفة لاسم الجنس، فقول النبي ﷺ: **«في الغنم زكاة» لا ينفي وجوب الزكاة في غير الغنم لأنَّ الغنم اسم جنس وقد ذكرَ علماء الأصول أنواعًا أخرى وفيها خلاف طويل.**

٢- إذا ورد الشرعُ بإبطال المفهوم في الأنواع التي يعمل بها والتي سبق ذكرها، كمفهوم الشرط مثلًا في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾[4].

مفهوم الآية أنَّه يجوز البغاء منهن إذا لم يكرههن أحد، وهذا المفهوم

---

(١) البقرة: ١٨٧.
(٢) البقرة: ٢٢٢.
(٣) النور: ٤.
(٤) النور: ٣٣.

باطل لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾[1].

وقد يقال لماذا ترك هذا الشرط وهو غير مراد بالآية؟ وهل هذا إلّا إهمال لذكرِه وتفريغ لمحتواه، وهو عبث محض، نقول إن ذكر هذا فيه فائدة إذ فيه تقريع وتوبيخ وتقبيح لهذا الفعل بهذه الصورة، حالة الإكراه على الزنا لمن تريد العفاف، فالنهي عن هذه الصورة لا يدل على إباحة ما عداها كالزنا مزاجًا، وإنا حرّمت الآية هذه الصورة لما ورد في سبب نزول الآية من إكراه أمية بن خلف لجواريه على الزنا، فشكون ذلك لرسول اللّه فنزل قوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟...﴾ الآية.

وقد أرادَ بعض ضعاف النفوس أن يثبت الاعتزاز بالقومية العربية، وقال إنَّ هذه الآية تدل على إباء وشمم الفتاة العربية إذ لم تكن تقبل على البغاء إقبالًا وإنما كانت تكره عليه إكراهًا، وما علم هذا المدعي أنَّ هذه الآية إن دلت على إباء الفتاة العربية إذ لم تأتِ الزنا إلّا بالإكراه فهي تدلُّ أيضًا على خنوع من يكرههن وهو من العرَب أيضًا.

ومثال آخر: قوله تعالى: ﴿لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾[2].

فهذه الآية تدلُّ بمنطوقها وظاهرها على تحريم الربا المضاعف ويدلُّ مفهومها إباحة الربا فيما سوى المضاعف، وهو معطل بقوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾[3].

هكذا رأس المال دون زيادة أو نقصان، مهما كانت الزيادة ومهما كان النقصان.

ويرد هنا السؤال نفسه الذي قلناه فلماذا نص الشرعُ على تحريم الربا المضاعف ما دام المراد تحريم الربا المضاعف وغيره. نقول في تحريم

---

(١) الإسراء: ٣٢ .
(٢) آل عمران: ١٣٠ .
(٣) البقرة: ٢٧٩ .

الربا المضاعف نهي وزجر وردع لتلك الصورة الشائنة والشائهة والاستغلال البشع الذي كان عليه العرب في جاهليتهم، وتصوير لحالهم القبيح، وفيه ما فيه من التقريع والتوبيخ ما لا يعلمه الجهال الذينَ يفتونَ عن جهل بجواز قليل الربا، أو عن علم ولكنهم ركبوا الهوى وركنوا إلى مكافآت المرابين وأعوانهم من مردة الحكام المجرمين.

* * *

الفصل السادس
أصول التفسير ومصادره

المبحث الأول: معنى التفسير والتأويل.

المبحث الثاني: لمحة موجزة عن تاريخ التفسير وتطوره.

المبحث الثالث: مصادر التفسير.

المبحث الرابع: شروط المفسر.

المبحث الخامس: أنواع التفسير.

المبحث الأول

معنى التفسير والتأويل

معناهما اللغوي:

أمّا التفسير فإنَّ محور كلمة التفسير وتقاليبها المختلفة يدور حول معنى الكشف، فالفسر والسّفر والرفس تتقارب معانيها، يقولون فَسَرَتْ الريح الغيم إذا قشطته، والسفر بمعنى الكشف أيضًا، ومنه المرأة السافرة أي الكاشفة عن وجهها، وأسفرَ الصبح إذا كشف الظلام، والرفس بمعنى الإزالة وهو نوع من الكشف، وقيل للبول الذي ينظر فيه الطبيب تَفْسِرَة إذ به يكشف الطبيب عن المرض المراد معرفته، وقد استعملَ القرآن الكريم كلمة التفسير بمعنى الكشف والبيان كما هو وارد في الآية القرآنية الوحيدة:

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾[1]. أي: بيانًا وكشفًا.

أمّا التأويل: فمأخوذ من الأول وهو الرجوع والصيرورة، ومنه آلت إليه السلطة أي رجعت إليه، وقد وردت في القرآن الكريم فاستعملت مصدرًا في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾[2].

وقد وردت في آيات قرآنية أخرى ولم يرد استعمال كملة التأويل إلا في المقام الذي يعز فيه البيان ويدق فيه الفهم كالآيات المتشابهات والأحلام والرؤى، والمصير المجهول.

معناهما الاصطلاحي:

ذهب كثير من العلماء إلى أنَّ التفسير والتأويل بمعنى واحد، قاله أبو

---

(١) الفرقان: ٣٣ .

(٢) آل عمران: ٧ .

عبيد، وقال مجاهد ﷺ إنَّ العلماء يعلمون تفسيره وتأويله، وهو قول ابن جرير الطبري رحمه الله حين سمى كتابه «جامع البيان في تأويل آي القرآن» فنراهُ يقولُ في تفسير كل آية: اختلفَ أهل التأويل، أو القول في تأويل الآية. فهو يساوي بين مدلول كلمة التفسير والتأويل.

وذهب آخرونَ إلى أنَّ التفسير يخالف التأويل في وجه من الوجوه، قال النيسابوري: قد نبغ في زماننا مفسرونَ لو سُئلوا الفرق بين التفسير والتأويل ما اهتدوا إليه، فهؤلاء يرونَ أنَّ التفسير يتعلق بما يحول النص وما يتبادر إلى الذهن لأول نظرة، أمَّا التأويل فإنه الوصول إلى أعماق النص، وهو صرف اللفظ إلى ما يمكن أن يتحمله من معنى، وهناكَ تعريفات في التفسير والتأويل والفرق بينهما وقد أطالَ في ذكرها الأستاذ الذهبي رحمه الله وخلص من جميع التعريفات إلى الترجيح فقال: «والذي تميلُ إليه النفس من هذه الأقوال هو أنَّ التفسير «ما كان راجعًا إلى الرواية»، والتأويل: «ما كان راجعًا إلى الدراية»، وذلكَ لأنَّ التفسيرَ معناه الكشف والبيان، والكشف عن مراد الله تعالى لا نجزم به إلَّا إذا ورد عن رسول الله ﷺ، أو عن بعض أصحابه الذين شهدوا نزول الوحي، وعلموا ما أحاط به من حوادث ووقائع، وخالطوا رسول الله ﷺ، ورجعوا إليه فيما أشكل عليهم من معاني القرآن الكريم.

وأمَّا التأويل: فملحوظ فيه ترجيح أحد محتملات اللفظ بالدليل.

والترجيح يعتمد على الاجتهاد، ويتوصل إليه بمعرفة مفردات الألفاظ ومدلولاتها في لغة العرب، واستعمالها بحسب السياق ومعرفة الأساليب العربية، واستنباط المعاني، وغير ذلك.

قال الزركشي: «وكان السبب في اصطلاح كثير على التفرقة بين التفسير والتأويل التميز بين المنقول والمستنبط، ليحيل على الاعتماد في

المنقول، وعلى النظر في المستنبط»[1].

هذا هو ترجيحُ أستاذنا الذهبي، وهو ترجيح لم يحالفه الصواب كما يقول الأستاذ الدكتور إبراهيم خليفة: «ما قاله الشيخ رحمه الله سواء في التفسير وفي التأويل جميعًا غير متجه عندنا، أمّا التفسير فحتى لو سلمنا له قضية اشتراط الجزم في الكشف عن مراد الله تعالى، فإنّ ذلك لا يتوقفُ على كونه من طريق الرواية، بل يمكن أن يتحقق الجزم كذلك من قطع العقل بتعين المعنى واستحالة إرادة غيره من الكلمة أو الجملة القرآنية، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾[2].

وقوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾[3].

وقوله: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾[4] إلى غير ذلك من الآيات المتكاثرة التي يقطع العقل بتعين معناها ويحيل إرادة غيره. كما يمكن أن يتحقق الجزم أيضًا من ظهور المعنى بنفسه بأن يكون اللفظ نصًا فيه لا يحتمل غيره. فما ظنك واشتراط مثل هذا الجزم ممّا لا يسلم لقائله أصلًا، بل إن تيسر لنا في بعض المفردات أو التراكيب فذاك وضح لنا حيئنذ القطع بإرادة المعنى من الكلمة أو العبارة، إمّا من الطريق الذي ذكره، أو من الطريق الذي ذكرنا، وإلّا فلنا أن نفسر بغلبة الظن. غاية الأمر أنّا لا نقطعُ حينئذ بكون المعنى هو المراد لله تعالى، وبالتالي لا نطلق عبارة تفيد مثل ذلك القطع، بل نقول إنّا لو طبقنا قانون أهل الأصول الذي لا يسعُ منصفًا أن يدافعه، لرأينا أنّ الطريقَ الذي ذكره لتحقيق الجزم وهو الرواية لا يمكن أن يحقق الجزم أيضًا، اللهم إلّا في حال واحدة هي أن تكون الرواية قطعية الثبوت في نفسها بأن تكون قرآنًا، أو حديثًا متواترًا عن النبي ﷺ، أو مما وقع

(١) انظر التفسير والمفسرون للذهبي (١/ ٢٢)، وانظر نقله عن الزركشي في البرهان (٢/ ١٧٢).

(٢) الإخلاص: ١ .

(٣) الإخلاص: ٣، ٤ .

(٤) البقرة: ١٦٣ .

عليه الإجماع من الصحابة والتابعين من غير نكير. وما أعز مثل هذه الطُّلْبَة، فأمَّا حيث تكون الرواية ظنية الثبوت في نفسها حتى وإن تك مما نقل عنه ﷺ بالسند الصحيح فهيهات هيهات لمثلها أن تحقق الجزم بالمراد وهذا أمر يكاد يبلغ درجة البدهيات التي لا يسعُ ذا نصفة في الأصول ولا في الفروع أن يماري فيه. فكان على الشيخ رحمه الله لو لزم شيئًا من الجادة أن يشترط التواتر إذن في الرواية، مع أنَّه لعمر الحق لو فعل لضيّق واسعًا وقال بما لم يقل به أحد لا من السابقين ولا من اللاحقين، فهذا شأنه في التفسير.

أمَّا التأويل فما كنا لنسلم له أصلًا كذلك إن كل دراية يجبُ أن تعد تأويلًا حتى لو كانت مما يقطع به العقل، أو يعينه كون اللفظ نصًا لا يحتملُ غير معناه بوجه من الوجوه. أو حتى يرجحه كون اللفظ ظاهرًا في معناه ولم تقم قرينة توجب صرفه عن هذا المعنى حتى يصرف عنه، بل الوجه عندنا ولا نحسبه إلَّا عند كل منصف كذلك أن يعد هذا كله من قبيل التفسير، وأن يقصر التأويل على ما يكون استنباطه من اللفظ مفتقرًا إلى مزيد من إعمال الفكر وإنعام النظرة، أو يكون مما يستعصي دركه حتى مع ذلك، وإنما يأتي صاحبه من طريق الفيض وإلهام منزل القرآن، لا ما يكون إدراكه على طرق التمام غير محتاج إلى بذل شيء من التأمل أصلًا(١).

تعريف التفسير بوصفه فنًا مدونا:

عرَّفَ العلماء الأقدمون التفسير بوصفه فنًّا مدونًا بتعريفات كثيرة منها:

ما ذكره الزركشي بأنَّ التفسير علم نزول الآية وسورتها وأقاصيصها والإشارات النازلة فيها، ثم ترتيب مكيها ومدنيها ومحكمها ومتشابهها وناسخها ومنسوخها وخاصها وعامها ومطلقها مقيدها ومجملها

(١) مناهج المفسرين ص٢١ - ٢٣ .

ومفسرها[1].

أمّا السيوطي في كتابه «إتمام الدراية» فقال عن التفسير: «علم يبحث فيه عن أحوال الكتاب العزيز أي من جهة نزوله وسنده وأدائه وألفاظه، ومعانيه المتعلقة بالألفاظ والمتعلقة بالأحكام وغير ذلك»[2]. وقد قام الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني بتوضيح هذا التعريف فقال:

المراد بكلمة نزوله: «ما يشمل سبب النزول ومكانه وزمانه».

والمراد بكلمة ألفاظه: «ما يتعلق باللفظ من ناحية كونه حقيقة أو مجازًا أو صحيحًا أو معتلًا، أو معربًا أو مبينًا».

والمراد بمعانيه المتعلقة بألفاظه: «ما يشبه الفصل والوصل».

والمراد بمعانيه المتعلقة بأحكامه: «ما هو من قبيل العموم والخصوص والأحكام والنسخ»[3].

وأجمع التعاريف وأوجزها في تعريف التفسير: «هو علم يبحث فيه عن القرآن الكريم من حيث دلالته على مراد اللّه بقدر الطاقة البشرية»[4]

* * *

(١) البرهان في علوم القرآن (٢/ ١٤٨).
(٢) انظر هامش مفتاح العلوم للسكاكي ص٢١ .
(٣) مناهل العرفان (١/ ٤٧٢).
(٤) دراسات في مناهج المفسرين ص٣١ .

المبحث الثاني

لمحة موجزة عن تاريخ التفسير وتطوره

تاريخ التفسير ومراحل تطوره:

من بداية عهد الرسول ﷺ إلى عصر التدوين كما أمرَ النبي ﷺ بالبلاغ كلف بالتفسير والبيان ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾[(١)].

وكلفه تعالى بالبيان: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾[(٢)].

فالنبي ﷺ هو أول المفسرين للقرآن -كما سيجرى بيانه عند حديثنا عن المصدر الثاني من مصادر التفسير[(٣)]- ثم يجئ دور الصحابة في التفسير- كما سنبينه لاحقًا[(٤)].

وأشهر المفسرين من الصحابة.

١- ابن عباس رضي الله عنهما :

قال رسول اللَّه ﷺ : **«نعم ترجمان القرآن أنت»**[(٥)] وكان عمر يقول: **«ذاكم فتى الكهول إن له لسانًا سئولاً وقلبًا عقولاً»**[(٦)].

وقال علي في ابن.عباس: «إنَّه لينظرُ إلى الغيب من ستر رقيق لعقله وفطنته»[(٧)].

وعن عامر بن سعد بن أبي وقاص قال: سمعتُ أبي يقول: «ما رأيت أحدًا أحضر فهمًا، ولا ألب لبًا، ولا أكثرَ علمًا، ولا أوسعَ حلمًا من ابن

---

(١) المائدة: ٦٧ .
(٢) النحل: ٤٤ .
(٣) راجع ص ٢٣٧ .
(٤) راجع ص ٢٤١ .
(٥) مجمع الزوائد (٩/ ٢٧٦)
(٦) المرجع السابق.
(٧) الإصابة.

عباس»[1].

وقال ابن عبد البر في الاستيعاب عن أبي وائل: «خطبنا ابن عباس وهو على الموسم فافتتح سورة النور، فجعل يقرأ ويفسر، فجعلتُ أقول: «مارأيت ولاسمعتُ كلام رجل مثله، ولو سمعته فارس والروم والترك لأسلمت»[2].

وتفسير ابن عباس من خير التفاسير، إلّا أنَّ الناس قد دسوا ووضعوا عليه الكثير حتى قال الإمام الشافعي: «لم يثبت عن ابن عباس في التفسير إلّا شبيه بمائة حديث»[3]. وتجدرُ الإشارة إلى الطرق الصحيحة والضعيفة حتى نعرف التفسير الثابت من الساقط.

فمن أجود الطرق وأصحها عن ابن عباس:

(أ) عن معاوية بن صالح، عن علي بن أبي طلحة الهاشمي، عن ابن عباس.

(ب) عن قيس بن مسلم الكوفي، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس. وهذان الطريقان صحيحان.

(ج) عن ابن إسحاق صاحب كتاب السير، عن محمد بن أبي محمد مولى آل زيد بن ثابت، عن عكرمة، أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس، وهذه الطريقة حسنة.

(د) أمّا أوهى الطرق فهي طريق محمد بن السائب الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس. وطريق الضحاك بن مزاحم الهلالي عن ابن عباس منقطع، لأنَّ الضحاك لم يلق ابن عباس.

فإذا وجدت رواية عن ابن عباس من هذين الطريقين ردت بلا تردد. وهناك تفسير ينسب إلى ابن عباس وهو «تنوير المقياس»، وقد رجح

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/ ٣٦٩).

(٢) تفسير الطبري (١/ ٨١).

(٣) الإتقان (٢/ ٣٢٢).

المحققون كذب نسبته إليه.

٢- علي بن أبي طالب:

وهو أكثرُ الخلفاء الأربعة تفسيرًا للقرآن ورواية للحديث، وذلك لتأخر وفاتِه عنهم ولسعة إطلاعِه على لغة العرب ولحاجة الناس إليه في زمانِه، وقد عرف ﷺ بحدة ذكائه وفصاحة لسانِه، وسرعة بديهته، وغزارة علمه، ومعرفته لأسباب النزول.

وروى معمر، عن وهب بن عبد اللّه بن أبي طفيل قال: شهدت عليًا ﷺ يخطب ويقول: «سلوني، فواللّه ما من آية إلَّا وأنا أعلم أبليل نزلت أم بنهار؟ أفي سهل أم في جبل».

وفي رواية عنه قال: «واللّه ما نزلت آية إلا وقد علمت فيما أنزلت، وأين أنزلت، إن ربي وهبَ لي قلبًا عقولًا ولسانًا سئولًا»[١].

ولكن الذي يؤسفُ له إنَّه قد كذب عليه خلق كثير، ودسوا عليه أقوالًا لم يقلها ونسبوا إليه أفعالًا لم يفعلها، فينبغي أخذ الحيطة والحذر من الأقوال المدسوسة عليه والأفعال المنسوبة إليه.

أصح الأسانيد إلى علي ﷺ :

(أ) ما كان عن طريق هشام، عن محمد بن سيرين، عن عبيدة السلماني، عن علي، وهذا السند اعتمده البخاري وغيره.

(ب) طريق ابن أبي الحسين، عن أبي الطفيل، عن علي. وهذه طريقة صحيحة يخرج منها ابن عيينة في تفسيره.

(ج) طريق الزهري، عن علي زين العابدين، عن أبيه الحسين، عن أبيه علي. أمَّا غيرها من الطرق وهي كثيرة -فهي مكذوبة- أو موضوعة.

٣- عبد الله بن مسعود:

وهو من الصحابة الذين رحلوا إلى العراق، فكان مرجعهم في

---

(١) مناهل العرفان ص٤٨٣ .

تفسير القرآن، وقد كان عالمًا بأسباب النزول، عارفًا بأحوالها، ويكفينا شهادة علي بن أبي طالب حين قالوا له: أخبرنا عن ابن مسعود؟.

قال: علم القرآن والسنة[1]، ثم انتهى، وكفى بذلك علمًا.

أصح الأسانيد إلى ابن مسعود:

(أ) طريق الأعمش، عن أبي الضحى، عن مسروق، عن ابن مسعود.

(ب) طريق مجاهد، عن أبي معمر، عن ابن مسعود.

(ج) طريق الأعمش، عن أبي وائل، عن ابن مسعود.

وقد اعتمد هذه الطرق الثلاثة البخاري في صحيحه[2].

ثم جاء الدورُ الثالث وهو التفسير في عهد التابعين والذي تمثل في مدارس ثلاثة.

١- مدرسة مكة:

وهم أعلمُ الناس في التفسير لأنهم أصحاب ابن عباس، ومن هؤلاء التابعين المبدعين:

(أ) مجاهد بن جبر المتوفى سنة ١٠١ هـ، وهو أوثق تلاميذ ابن عباس، وقد اعتبر الإمام البخاري والشافعي تفسيره حجة، قال النووي رحمه الله: «إذا جاءكَ التفسير عن مجاهد فحسبك به»، بيد أنَّ الرواية عن هذا الإمام قليلة، ويرى بعض العلماء أنَّ مجاهد كان يسأل أهل الكتاب فيتريث في أخذ أقواله المنسوبة إليهم.

(ب) عطاء بن أبي رباح المتوفى سنة ١١٤ هـ، وقد شهدَ له العلماء بعلو كعبه في هذا العلم وبعدالته وتقواه، قال قتادة: «أعلمْ التابعين أربعة: كان عطاء بن أبي رباح أعلمهم بالمناسك»، وقال أبو حنيفة: «ما لقيتُ أحدًا

---

(١) مناهل العرفان ص٤٨٣.

(٢) التفسير والمفسرون للذهبي (١/ ٨٨).

أفضل من عطاء».

(ج) ومن التابعين بمكة سعيد بن جبير المتوفى سنة ٩٥ هـ، وعكرمة مولى ابن عباس المتوفى سنة ١٠٥ هـ، وقد أكثرَ من التفسير، وطاووس بن كيسان اليماني المتوفى سنة ١٠٦ هـ.

٢- مدرسة المدينة:

ومن أشهر التابعين المفسرين فيه:

(أ) أبو العالية رفيع بن مهران الرياحي المتوفى سنة ٩٠ هـ، وهو من رواة أبي بن كعب وقد روى عنه الربيع بن أنس.

(ب) محمد بن كعب القرظي المتوفى سنة ١١٨ هـ.

(ج) زيد بن أسلم المتوفى سنة ١٣٦ هـ، وقد أخذَ عنه ابنه عبد الرحمن ابن زيد، ومالك بن أنس إمام دار الهجرة.

٣- مدرسة العراق:

وقد تلقى الكثير منهم عن عبد اللّه بن مسعود ﷺ :

ومن هؤلاء:

(أ) مسروق بن الأجدع الكوفي المتوفى سنة ٣٦ هـ.

(ب) قتادة بن دعامة السدوسي البصري المتوفى سنة ١١٧ هـ، وقد وثقهم أئمة الجرح والتعديل كيحيى بن معين.

ومن التابعين:

(أ) أبو سعيد الحسن البصري المتوفى سنة ١٢١ هـ.

(ب) الهمذاني من الكوفة.

هؤلاء هم أشهر التابعين في سائر الأمصار وعنهم أخذ تابعو التابعين كسفيان بن عيينة المتوفى سنة ١٩٨ هـ، ووكيع بن الجراح المتوفى سنة ١٩٧ هـ، وشعبة بن الحجاج المتوفى سنة ١٦٠ هـ، وسفيان الثوري المتوفى سنة ١٦١ هـ، ويزيد بن هارون المتوفى سنة ٢٠٦ هـ، وروح بن

عبادة المتوفى سنة ٢٠٧ هـ، وعبد الرزاق بن همام الصنعاني «شيخ البخاري» المتوفى سنة ٢٢١ هـ، وإسحاق بن راهويه المتوفى سنة ٢٣٨ هـ، وآدم بن أبي إياس العسقلاني المتوفى سنة ٢٢٠ هـ.

تدوين التفسير:

بقي علم التفسير مفرقًا ومنثورًا في أحاديث متفرقة، فيروي الصحابي أو التابعي تفسير الآية دون أن يترتب ذلك في باب أو كتاب، ولم يرد إلينا كتاب في التفسير يفسر لنا القرآن سورة سورة، وآية آية كما هي مرتبة في المصاحف، أمّا ما روي أنَّ ابن عباس قد فسَّر القرآن في تنوير المقباس فإنَّ هذا لم تصح نسبته إلى ابن عباس وقد رُدَّ هذا الزعم ردًّا علميًا صحيحًا في رسالة دكتوراه.

والذي يروي لنا أنَّ الفراء المتوفي سنة ٢٠٧ هـ، هو أول من قام بتفسير القرآن سورة سورة وآية آية. قال ابن النديم في كتابه «الفهرست»: «إنَّ عمر بن بكير كتب إلى الفراء أنَّ الحسنَ بن سهلَ ربما سألني عن الشيء بعد الشيء من القرآن فلا يحضرني فيه جواب فإن رأيتَ أن تجمعَ لي أصولًا، أو تجمعَ في ذلك ارجع إليه فعلت».

فقال الفراء لأصحابه: اجتمعوا حتى أملي عليكم كتابًا في القرآن، وجعل لهم يومًا، فلمَّا حضروا خرج إليهم، وكان في المسجد رجلًا يؤذن ويقرأ بالناس في الصلاة، فالتفتَ إليه الفراء فقال له: اقرأ بفاتحة الكتاب ففسرها ثم نُتِم الكتاب كله، فقرأ الرجل وفسر الفراء فقال أبو العباس: «ولم يعمل أحد قبله مثله ولا أحسبُ أنَّ أحدًا يزيد عليه»[1].

---

(١) هذا رأي العباس وفيه نظر: أمّا قوله لم يعلم أحد قبله مثله، فهذا رأيه وبما قارنه مع غيره من التفاسير.
أمّا قوله: ولا أحسبُ أحد يزيد عليه، فإنَّ حسبانه لم يكن كما توقعه بُل وجد الكثير وأول الكتاب التي زادت عليه كتاب ابن جرير الطبري.

المبحث الثالث

مصادر التفسير

أعني بالمصادر هنا تلك المراجع التي يرجع إليها المفسرونَ من كتاب وسنة وآراء للسلف في تفسيرهم القرآن الكريم، وذلك بقطع النظر عن الاتجاه الذي اتجه كل واحد منهم في تفسيره.

المصدر الأول

القرآن الكريم

ويعتبر أهم مصادر التفسير على الإطلاق بل هو أحسنُ وأصح الطرق أن يفسر القرآن بالقرآن، كما قال ابن تيمية[1].

فإذا أردنا أن نعرفَ معنى آية فعلينا أن نطلب أول ما نطلب تفسيرها من القرآن نفسه، لأنَّ القائل أحق من غيره في تفسير قوله عقلًا، فإذا ما وجدنا وتنازعنا في فهم آية رددناها إلى آية أخرى تفسرها: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾[2].

كيف تتم عملية تفسير القرآن بالقرآن:

يشتمل القرآن على المجمل والمبين وعلى المطلق والمقيد، وعلى العام والخاص، فما أوجز في مكان قد يبسط في مكان آخر، وما جاء مطلقًا قد يلحقه التقييد في موضع آخر، وما جاء عامًا في آية قد يلحقه التخصيص في آية أخرى.

فإذا أردنا أن نفسر آية من كتاب اللّه، علينا أن نجمع الآيات المتشابهة في الألفاظ أو في المعاني:

---

(١) مقدمة في أصول التفسير ص٩٣ .

(٢) النساء: ٥٩

نوضح هذا بمثال من سورة الفاتحة بقولـه تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾[1].

فقد ورد في تفسيرها في سورة الانفطار: ﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝١٥ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ۝١٦ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٨ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾[2].

فالله هو مالك يوم الدين الذي لا يملك فيه أحد شيئًا، لأنَّ الأمر كله إليه.

وفي سورة الفاتحة: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾[3].

فإذا أردنا معرفة تفسير صراط الذين أنعمَ عليهم من القرآن نفسه وجدناه في سورة النساء: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ﴾[4].

ويقع في الخطأ والغلط من يَفسر الآية القرآنية بمدلولها المتبادر إلى الذهن لأول وهلة دون تأمل وتدبر.

انظر إلى من فسر قوله تعالى في سورة الصافات: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾[5]. فقال احشروا الظالمين وزوجاتهم.

فلو تدبر الألفاظ القرآنية في كلمة الزوج لوجدها قد استعملت في معان ثلاثة[6]:

فالأزواج بمعنى الحلائل للرجل وامرأته، فذلك كقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ

---

(١) الفاتحة: ٤ .

(٢) الانفطار: ١٥ - ١٩ .

(٣) الفاتحة: ٦، ٧ .

(٤) النساء: ٦٩ . وهذا التفسير لابن عباس والجمهور وتفسير أبي حيان (١/٢٨).

(٥) الصافات: ٢٢ .

(٦) الوجوه والنظائر في القرآن الكريم. دراسة موازنة ص٣٥١ .

فِيهَآ أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾[1].

يعني بالأزواج -الحلائل في الآخرة، أمّا الأزواج بمعنى امرأة الرجل فقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ﴾[2]. أي: زوجاتكم في الدنيا بعد موتهن.

والأزواج بمعنى الأصناف فذلك كقوله تعالى: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾[3]. أي: الأصناف من كل صنف من النبات.

والأزواج يعني القرناء فالزوج هنا يعني القرين أو النظير أو الشبيه ولا شك في أنَّ هذا هو المعنى المناسب لقوله تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾[4].

أي احشروا الظالمين وقرناءهم في جهنم فهذا الأنسبُ وهو زيادة في حسرتهم وندامتهم، كما قال بعض المفسرين يحشرُ الزناة مع الزناة، وشاربوا الخمر مع شاربيها.

وبعيد كل البعد، وغريب كل الغرابة، أن يحشر كل ظالم مع زوجته وإلّا قلنا بحشرِ فرعونَ مع زوجتِه، وشتان بينهما هو من أهل السعير وهي من أهل النعيم.

ومما يجبُ على من يفسر القرآن بالقرآن أن يعلم أنَّ القرآن لا يختلف بعضه مع بعض فهذا الوهم يوقعه في الخطأ والاضطراب.

مثال ذلك الآيات القرآنية الكثيرة التي تذكر أطوار خلق الإنسان؛ فآية تذكر أن آدم خلق من تراب، ومرة تذكر خلق الإنسان من ماء، ومرة من طين ومرة من حمأ مسنون، ومرة من صلصال، فلا تعارض بين هذه

(١) البقرة: ٢٥ .
(٢) النساء: ١٢ .
(٣) يس: ٣٦ .
(٤) الصافات: ٢٢ .

الآيات إذ هي تتحدث عن الأطوار التي مر بها خلق الإنسان.

أظهر صور تفسير القرآن للقرآن:

١- لعل أظهر هذه الصور ما تراه في قصص القرآن الكريم، فقد نجد القصة الواحدة قد ذكرت في مواضع متفرقة، وفي سور عديدة فلنأخذ مثلًا جزءًا يسيرًا من قصة إبراهيم التي ذكرت في سور متعددة ولنتناول قصة ضيوفه عليه السلام، قال تعالى في سورة الذاريات: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ﴾[١].

وفي سورة هود ذكر الله لنا ما يفسر لنا هذه الآيات: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ﴾[٢].

فتدبر هذه الآيات وانظر كم هي المواطن والمواضع التي فسرتها بأجلى تفسير وأوضح بيان.

ومثال قصة إبراهيم ما نقرؤه كثيرًا عن قصة آدم في كثير من السور القرآنية ولا غنى لنا في معرفة القصة إلَّا بجمع الآيات بعضها مع بعض، حتي تكون عندنا الصورة الشاملة والتفسير الكامل لهذه القصة القرآنية.

٢- ومن صور تفسير القرآن بالقرآن، ما ذكره السيوطي في تخصيص عام القرآن بالقرآن قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَـٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَـٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ﴾[٣].

---

(١) الذاريات: ٢٤ - ٢٨.

(٢) هود: ٦٩ - ٧١.

(٣) البقرة: ٢٢٨.

خص بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ﴾(1). بقوله تعالى ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ﴾(2).

وقوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ﴾(3). خص بقوله تعالى: ﴿فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِۚ﴾(4).

٣- وتقييد مطلق القرآن بالقرآن: مثل قوله تعالى وقد أطلق الشهادة في البيوع: ﴿وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ﴾(5).

وقوله: ﴿فَإِذَا دَفَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ فَأَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا﴾(6).

فقد قيد هذا المطلق وهو الشهادة بآية آخرى اشترطت العدالة في الشهود ﴿وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾(7).

ومثال ذلك أيضًا إطلاق الآيات ميراث الزوجين ثم قيدت ميراثهما بقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ﴾(8).

٤- ومن تفسير القرآن بالقرآن: بيان المجمل ومنه قوله تعالى: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾(9).

فسرتها الآية الكريمة: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ﴾(10).

عن عكرمة أنَّه قيل له عند ذكر الرؤية، أليس قد قال اللَّه: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ

---

(1) الأحزاب: ٤٩ .

(2) الطلاق: ٤ .

(3) النور: ٢ .

(٤) النساء. ٢٥ .

(5) البقرة: ٢٨٢ .

(6) النساء: ٦ .

(7) الطلاق: ٢ .

(8) النساء: ١١، ١٢ . ﴿من بعد وصية توصون بها أو دين﴾.

(9) الأنعام: ١٠٣ .

(10) القيامة: ٢٢، ٢٣ .

ٱلْأَبْصَٰرُ﴾.

قال: ألست ترى السماء، قال: بلى، قال: أفكلها ترى؟.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾[1].

فسره قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾[2].

٥- القراءات القرآنية: ذكرنا أهم صور تفسير القرآن بالقرآن، وقد أفردنا صورة مهمة منها ألا وهي القراءات القرآنية والتفسير، والتي تُعَدُّ من تفسير القرآن بالقرآن وذلك بشروط واعتبارات معينة منها:

إن كثيرين ممن يتصدون للحديث في مثل هذا النوع حين يضربون له المثال يعمدون إلى طائفة من القراءات الشاذة التي لا يصلح في شيء من معايير التحقيق الواجب الأخذ به ولا سيما في نحو هذا المجال المهم من العلم والدين أن يعد شيء منها في القرآن أصلًا حتى يصلح أن يقال فيه إنَّه من تفسير القرآن بالقرآن.

نقول: يعمدون إلى طائفة من هذا النوع فيأخذونه مثالًا لما هو تفسير قراءة لأخرى، ولو لزموا الجادة وسلكوا السبيل المستبين لأبعدوا هذا النوع مما نحنُ فيه بالكلية، وسلكوه فيما هو من قبيل التفسير بالسنة، أو بما هو من أقوال الصحابة -رضوان الله عليهم- فإنَّ هذا هو التحقيق الذي لا مرية في صحته لمن كان له قلب أو ألقى السمعَ وهو شهيد على ما اختاره المحقق السيوطي وغيره.

---

(١) المائدة: ١.

(٢) المائدة: ٣.

المصدر الثاني

سنة الرسول ﷺ

ليس في القرآن نفسه ما يبين جميع القرآن، فتفسيرُ القرآن بالقرآن قدر يسير، فما بقي من القرآن الذي لم يتناوله بيان القرآن بحاجة إلى بيان، لا تكفي اللغة والعقل إلى بيانه ألبته، فلا يمكن لغة ولا عقلًا تفصيل المجمل الذي جاء في فرض الصلاة، فقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾(١).

لا يمكن فهم المراد منه إلَّا بوحي سماوي عن طريق الرسول ﷺ، فلا يمكن للغة ولا العقل أن يأتي بشيء فضلًا عن أن يستقل به، ومن ثم كان لابد من الرجوع إلى البيان منه إلى الرسول ﷺ كما رجع إليه الصحابة - رضوانَ الله عليهم- لذا فإنَّا نؤيد العلماء(٢) فيما نقدوا لابن خلدون قوله: «إنَّ القرآن نزل بلغة العرب، وعلى أساليب بلاغتهم، فكانوا كلهم يفهمونه ويعلمونَ معانيه في مفرداته وتراكيبه»(٣).

وأقرب دليل على خطأ ابن خلدون ما نشاهده اليوم من الكتب المؤلفة على اختلاف لغاتها، وعجز كثير من أبناء هذه اللغات عن فهم كثير مما جاء فيها بلغتهم، إذ الفهم لا يتوقفُ على معرفة اللغة وحدها، بل لابد لمن يفتش عن المعاني ويبحث عنها من أن تكون له موهبة عقلية خاصة تتناسبُ مع درجة الكتاب وقوة تأليفه(٤).

---

(١) البقرة: ٤٣.

(٢) من هؤلاء العلماء محمد حسين الذهبي رحمه الله، والزميل الأستاذ إبراهيم خليفة، ود. سيد أحمد خليل، أمَّا الأستاذ الدكتور محي الدين خليل رئيس قسم الدراسات الإسلامية بجامعة الرياض، فقد ذهب إلى رأى صاحب المقدمة ثم رجع عن قوله.

(٣) مقدمة ابن خلدون ص٣٦٦ الأميرية.

(٤) دراسات في مناهج المفسرين ص٢٤٩.

يقول الدكتور سيد أحمد خليل(١): «إنَّ هذا التعميم من ابن خلدون في مقدمته فيه شيء من المجازفة التي لا يقرها تاريخ التفسير نفسه، لذا استدرك ابن خلدون بعد هذه العبارة قائلًا: إنَّ في القرآن نواحي في حاجة إلى البيان، فقد كان النبي ﷺ يبين المجمل، والناسخ والمنسوخ يعرفه أصحابه فعرفوه، وعرفوا سبب نزول الآيات ومقتضى الحال منقولًا عنه».

فهذا إقرار من ابن خلدون بأنَّ فهم اللغة غير كاف لمعرفة تفسير القرآن الكريم بل لابد من الرجوع إلى النبي ﷺ لفهم المعاني الأخرى التي يتعذرُ معرفتها بدونه ﷺ، ثم إنَّ ابن خلدون نفسه قد ساق قصة وردت في صحيح البخاري أن عدي بن حاتم لم يفهم قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾(٢).

وساق قصته المعروفة.

على أنَّ ابن قتيبة وهو سابق لابن خلدون «من علماء القرن الثالث الهجري» قد قال القول السديد في هذه القضية: «إنَّ العربَ لا تستوي في المعرفة بجميع ما في القرآن من الغريب والمتشابه بل إنَّ بعضها يفضل في ذلك على بعض»(٣).

. بذلك يتبين لنا أنَّ القرآن الكريم تبينه السنة النبوية ولا يكفي في فهمه إدراك اللغة العربية وحدها.

القدر الذي بينته السنة من القرآن:

هذا الموضوع مما تعددت فيه الأقوال واضطربت فيه الأفهام، فقال فريق من العلماء: «إنَّ الرسول ﷺ لم يبين إلَّا آيات قلائل، هذا القول ساقط من الاعتبار لضعف سنده أولًا ومخالفته لأبسط البدهيات الشرعية

---

(١) كتابه نشأة التفسير في الكتاب المقدسة ص٣٢ . والكتاب طبع بالإسكندرية سنة ١٩٥٤ م.

(٢) البقرة: ١٨٧ .

(٣) قال ذلك في رسالته: المسائل والأجوبة ص٨ .

والعقلية معًا، وفي المقابل لهذا الرأي نسب السيوطي، ومحمد حسين الذهبي إلى أنَّ ابن تيمية من الفريق القائل بأنَّ النبي ﷺ قد فسر كل القرآن، وذلك فهمًا من كلامه الذي سنورده لك، ونترك القارئ مع الدكتور إبراهيم خليفة وهو يرد على السيوطي والأستاذ الذهبي فهمهما.

يقول الدكتور إبراهيم رئيس قسم التفسير في كلية أصول الدين بالأزهر: «حسمًا للخلاف لابد من ذكر ما قاله ابن تيمية في مقدمته في أصول التفسير»:

(فصل في أنَّ النبي ﷺ بيّن لأصحابه معاني القرآن)

يجبُ أن يعلمَ أنَّ النبي ﷺ بيّن لأصحابه معاني القرآن، كما بيّن لهم ألفاظه، فقوله تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[1]. يتناول هذا وهذا.

وقد قال أبو عبد الرحمن السلمي[2]: «حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن كعثمان بن عفان، وعبد الله بن مسعود، وغيرهما أنَّهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعًا، ولهذا كانوا يبقون مدة في حفظ السورة».

قال أنس: «كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جل في أعيينا».

وأقام ابن عمر على حفظ البقرة عدة سنين قبل ثماني سنين. ذكره مالك، وذلك أنَّ الله تعالى قال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾[3]. وقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾[4]. وقال: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾[5].

---

(١) النحل: ٤٤.
(٢) عبد الرحمن عبد الله بن حبيب الكوفي من كبار التابعين، ليست لأبيه صحبة، كما قال ابن حجر في تقريب التهذيب.
(٣) ص: ٢٩.
(٤) النساء: ٨٢، و محمد: ٢٤.
(٥) المؤمنون: ٦٨.

وتدبر الكلام بدون فهم معانيه لا يمكن، وكذلك قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[(١)].

وعقل الكلام متضمن لفهمه، ومن المعلوم أن كل كلام المقصود منه فهم معانيه دون مجرد ألفاظه، فالقرآن أولى بذلك.

وأيضًا فالعادة تمنع أن يقرأ قوم كتابًا في فن من العلم، كالطب والحساب ولا يستشرحوه، فكيف بكلام اللّه تعالى الذي هو عصمتهم ونجاتهم وسعادتهم، وقيام دينهم ودنياهم. انتهى كلام ابن تيمية[(٢)].

مناقشة الأدلة التي استشهد بها القائلون بشمول البيان النبوي:

١- لقد استدلوا بقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[(٣)].

فقالوا إنَّ هذه الآية تفيد بأنَّ على الرسول ﷺ أن يبين جميع ألفاظ القرآن ومعانيه فكلمة «ما» في قوله تعالى: ﴿مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ من صيغ العموم فتشمل جميع ما يندرج تحتها من إلفاظ القرآن ومعانيه ما لم تقم قرينة على التخصيص ببعض ذلك، ولا قرينة هنا فيجبُ الحملُ على العموم الشامل لجميع الألفاظ والمعاني.

نقول لهم: إنَّ القرينة المخصصة للعموم موجودة، فبعد عشرين آية من هذه الآية وفي السورة نفسها ورد قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾[(٤)].

فلا يتم التفسير الصحيح ولا الفهم السديد إلَّا بجمع الآيتين، لأنَّ خير من يفسر القرآن هو القرآن ذاته.

---

(١) يوسف: ٢.

(٢) مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية. تحقيق د. عدنان زرزور ص٣٥، ٣٧، وانظر مجموعة الرسائل الكبرى لابن تيمية (٢/ ٣١)، وتفسير القرطبي (١/ ٧٠). وتعليق الشيخ أحمد شاكر.

(٣) النحل: ٤٤.

(٤) النحل: ٦٤.

المصدر الثالث

أقوال الصحابة

بعد أن بسطنا القول في تفسير القرآن بالقرآن وفي تفسيره بالسنة جاء أوان القول إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة فإنَّ المصدر الثالث في الأهمية هو أقوال الصحابة -رضوان الله عليهم-.

والذي يجبُ الانتباه إليه التفريق بين أقوال الصحابة فإنَّ قول الصحابة في الأمور التي لا مجال للرأي فيها تعطي حكم المرفوع إلى النبي ﷺ، كحديث الصحابة عن سبب النزول. هذا هو الشرط الأول في اعتبار قول الصحابي له حكم المرفوع أمّا الشرط الثاني فقد نبه إليه علماء الحديث وهو أن لا يكون من مصدر عنه مثل ذلك القول من الصحابة قد عرف بالأخذ عن بني إسرائيل في بعض الأحيان طبعًا، وإلّا لم يعطَ حكم المرفوع لاحتمال أن يكون من منقولاته عنهم[1]، وبعبارة أوضح أن لا يحتمل أن يكون قوله ما يمكن أن يكون له بما عند بني إسرائيل صلة تلقى في النفس احتمال أن يكونوا هم الأصل في العلم به.

أمّا إذا قال الصحابي برأيه في القرآن فينبغي التحاكم إليهم فيما هو بلسانهم لأنَّ أكثرهم عرب خُلَّص ولهم من الفهم السليم والرأي السديد ما ليس لسواهم، فهم لذلك أحق من غيرهم في الأخذ بقولهم وفهمهم. وما يجدرُ ذكره أنَّ أغلب ما ثبتَ من اختلاف الصحابة بل السلف في التفسير هو ما يتبين فيه وجه الصواب، بل مما يمكن فيه الجمع بين الأقوال المختلفة والأخذ بها جميعًا وكذلك فإنَّ غالب ما ثبتَ عنهم في ذلك إنما يرجع إلى اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد على ما بين ابن تيمية في مقدمته في أصول التفسير. فلقد عقد في ذلك فصلًا في اختلاف السلف في

---

(١) انظر نزهة النظم في شرح نخبة الفكر ص٤١

الشواهد القرآنية، وتم العثور على مثل هذا النص، وهو وإن كان غير مشكول، إلّا أنّه يؤدّي الغاية المقصودة من مثل هذه الفهارس، كما ساعدت نظم البحث الآلي عن مكونات النص على سرعة العمل وضبطه حتى لا يفوت منه شيء لأنَّ البحثَ اليدوي البشري مهما دق فلابد أن يعتريه السهو والغفلة.

وقد ساهمَ ولدنا «حسن» في جانب رئيسي من جهود المعالجة الآلية لهذا المعجم، التي اضطررنا إلى توليفها بأنفسنا، حتى لا نضيع في متاهة «الصف» التقليدي للحروف.

وقد وجدَ المصنف أنَّ الأجدر في المواد التي رتبت حسب دلالتها، أن يعاد ترتيبها وفقًا لترتيب الورود في القرآن الكريم، تسهيلًا على الباحث، مع تقديم اقتراح بالدلالة على شكل رمز بجانب الشاهد، مشروحًا في مقدمة المادة، ومختصرًا في ذيل كل صفحة من صفحاتها. إلى أن استوت فهارس متكاملة، تضم حروف المعاني بمفهومها الشامل. وهذا التوسع في المفهوم، أدّى إلى إيراد حصيلة لغوية ثرية، تفيد كثيرًا من الباحثين، إذ يجدونَ فيها بالإضافة إلى الأدوات ودلالتها ما يلي:

١- ألفاظ التثنية «بالرجوع إلى ألف التثنية ويائها».

٢- ألفاظ جمع المذكر السالم «بالرجوع إلى واو جمع المذكر السالم ويائه».

٣- ألفاظ جموع التكسير «بالرجوع إلى حروف الألف والهمزة والنون والواو والياء، التي تشارك في تركيب هذه الصيغ».

٤- الأفعال المبدوءة بهمزة الأمر أو الطلب.

٥- الأفعال المبدوءة بهمزة التعدية.

٦- جميع أفعال المضارعة «بالرجوع إلى همزة وتاء ونون المضارعة».

أمّا منهج التصنيف، فهو إيراد جميع الحروف، وفقًا لترتيبها الهجائي،

الأول: موقوف عليه والثاني روى عنه مرفوعًا إلى النبي ﷺ

وقد أورد كثير من المفسرين[1] آراء الصحابة في هذه المسألة ورجحوا قول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فيها من أنَّ محمدًا رأى جبريل عليه السلام ودلل ابن القيم على ما قاله ابن مسعود وقد أسهبَ فيه إسهابًا مفيدًا يحسنُ الرجوع إليه.

موقفنا من اختلاف الصحابة في التفسير:

إذا تقرَّر لدينا أنَّ الصحابة -رضوان اللّه عليهم- قد يختلفونَ في تفسير بعض الآيات فإنَّه ينبغي النظرُ في هذا الخلاف:

- فإذا كان الاختلاف في القول مرويًا عن صحابي واحد فالقول فيه ما قاله صاحب البرهان رحمه الله : «فإمَّا إذا لم يكن الجمع بأي من قوليه فالمتأخر من القولين عن الشخص الواحد مقدم عنه إن استويا في الصحة، وإلَّا فالصحيح المقدم[2]».

مثاله ما روي عن ابن عباس في جواز نكاح المتعة ثم رجوعه عنه.

- وأمَّا إن كان ذلك مرويًا عن أكثر من واحد، قدم منه ما كان عن رؤوس القوم وأكابرهم من أمثال ابن عباس رضي الله عنهما في التفسير وزيد بن ثابت في الفرائض وأبي بن كعب في القراءات وهلم جرا، ذلك أنَّ منطق العقل أن الخطأ من هؤلاء أقل بكثير من خطأ من دونهم.

- وأمَّا إذا لم يكن الخلاف مطلقًا بل كان الإجماع فلا شك أنَّه يحرم الخروج عن إجماعهم، لأنَّ إجماعهم على أمر له قوة الدليل من القرآن والسنة.

---

(١) اطلعت على ما يقارب ثلاثين كتابًا من كتب التفسير فوجدتهم قد أجمعوا على أنَّ المراد من الآية أنَّ النبي ﷺ قد رأى جبريل، وإليكَ هذه الكتب التي أوردت هذا الرأي: ١) كتاب زاد السير لابن الجوزي (٨/ ٢٠٦٨) كتاب مفاتيح الغيب لفخر الرازي (٢٨/ ٢٩٠، ٣)، الكشاف للزمخشري (٤/ ٤٢٠، ٤)، البحر المحيط ج٨/ ١٥٦، ٥).

(٢) ج٢ / ١٨٣

المصدر الرابع

الاسرائيليات

هذا العنوان لا نريد به ما روي عن أبناء اسرائيل (يعقوب) عليه السلام خاصة بل هو من باب التغليب على ما يشمل طائفتي اليهود والنصارى من بني اسرائيل ويطلق علي جميع الثقافة الدينية للطائفتين اليهودية والنصرانية، وهو ليس من باب تغليب الثقافة اليهودية على النصرانية كما قال أستاذنا الذهبي مسندًا قوله إلى ظاهر لفظ الاسرائيليات يدل على اللون اليهودي خاصة وأنَّ الجانب اليهودي هو الذي أشتهر أمره، فكثر النقل عنه، وذلك لكثرة أهله وظهور أمره، وشدة اختلاطهم بالمسلمين من مبدأ ظهور الإسلام إلى بسط رواقه على كثير من بلاد العالم[(١)].

هذا كلام أستاذنا الذهبي وهو غير مُسَلَّمْ به لأنَّ جميع الثقافة الدينية اليهودية باستثناء الكفر بعيسى هي بالضرورة ثقافة نصرانية كذلك يدين بها النصارى تمامًا، كما تدينُ بها اليهود حتى إنَّهم ليسمون ما عند اليهود «العهد القديم» ويسمونَ ما لديهم من الأناجيل الأربعة والرسائل «العهد الجديد» ويطلقونَ على جميع العَهْدَين «الكتاب المقدس».

وإنما قلنا عنوان بني اسرائيل على ما يشمل اليهود والنصارى ولم نخص به اليهود لأنَّ عيسى عليه السلام مرسل إلى بني اسرائيل كما أرسلَ موسى بنص القرآن، قال تعالى في وصفه عليه السلام ﴿ورسولا إلى بني اسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم﴾[(٢)].

كيف تسربت الاسرائيليات إلى التفسير:

تناول القرآن الكريم بعض المواضيع كقصص الأنبياء والأمم بصورة

---

(١) التفسير والمفسرون (١/ ١٦٥).

(٢) انظر مناهج المفسرين ص٣٢٠ .

مجملة مقتصرًا على مواضع العظة والاعتبار دون تفصيل للجزئيات فلا يعني في قصة أهل الكهف مثلًا بأسمائهم ولا باسم كلبهم وأنَّه قطمير ولا باسم ملكهم الظالهم في زمنهم، ولا بمكان وجودهم، ولا بهيئاتهم حين أفاقوا من سباتهم ونومهم بعد ما يزيد على ثلاثة قرون، كل هذه الأمور وأمثالها قد نجد لها تفصيلًا في التوراة والإنجيل، وهي من الأمور التي يجوزُ روايتها إذا كانت لا تخالف شريعتنا، فلا عجبَ إذا رأينا بعض الصحابة يسأل من أسلم من أهل الكتاب من أمثال كعب الأحبار وعبد اللّٰه ابن سلام وتميم الداري وهكذا بدأ تسرب الاسرائيليات في وقت مبكر في عهد الصحابة ثم نشط هذا التسرب في عهد التابعين فكانوا يسألونَ المتقدمين ويسألونَ المسلمين من أهل الكتاب في زمنهم من أمثال وهب ابن منبه، وعبد الملك بن عبد العزيز بن جريج، ولعل تفسير مقاتل بن سليمان هو من أصدق الظواهر في الاعتماد على الاسرائيليات في عهد التابعين، فمن قرأه يجد فيه العجب العجاب مما يصح روايته ومما لا يصح.

ثم ولع المتأخرونَ بعد عهد التابعين فحشوا تفاسيرهم بالاسرائيليات بل الخرافات وأخص القصص القرآني وما أورده من الخيالات التي لا يقرها شرع ولا عقل.

ويبدو أنَّ هذه الظاهرة بدأت تخبو وتختفي من كتب التفسير المعاصرة وقد بدد العلم كثيرًا من الخيالات والأوهام وأصبحت التفاسير نقية من شوائب الاسرائيليات إلَّا في تفسير من في قلوبهم مرض وضغينة للإسلام.

حكم التفسير بالاسرائيليات

تنقسمُ الاسرانيليات باعتبار حكم الإسلام فيها إلى ثلاثة أقسام:

١- ما وافق الشرع. ٢- ما خالف الشرع. ٣- ما سكتَ عنه الشرع.

وقد ذهبَ إلى هذا التقسيم الحافظ ابن كثير وبيَّن الحكم الشرعي في كل نوع فقال: «إنَّ الأحاديث الاسرائيلية تذكر للاستشهاد لا للاعتقاد وهي على ثلاثة أقسام:

أحدها: ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق فذاك صحيح.

والثاني: ما علمنا كذبه مما عندنا مما يخالفه.

والثالث: ما هو مسكوت عنه لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل، فلانؤمن به ولا نكذبه ويجوز حكايته، وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني. ولهذا يختلف علماء أهل الكتاب في هذا كثيرًا ويأتي عن المفسرين خلاف بسبب ذلك كما يذكرونَ في مثل هذا أسماء أصحاب أهل الكهف ولون كلبهم وعددهم، وعصى موسى من أي الشجر كانت، وأسماء الطيور التي أحياها الله لإبراهيم، وتعيين البعض الذي ضرب به القتيل من البقرة ونوع الشجرة التي كلَّمَ الله بها موسى، إلى غير ذلك مما أبهمه الله تعالى في القرآن مما لا فائدة في تعيينه تعود على المكلفين في دينهم ودنياهم، ولكن نقل الخلاف عنهم في ذلك جائز[1]. بهذا التقسيم الدقيق والتحقيق البالغ من ابن كثير نستطيع أن نفهم الأحاديث الواردة عن النبي ﷺ بشأن الإسرائيليات، فقد روى البخاري عن ابن عمرَ أنَّ النبي ﷺ قال: **«بلغوا عني ولو آية وحدثوا عن بني اسرائيل ولا حرج، ومن كذب عليَّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار»**[2].

فهذا الحديث يتعلق بما وافق شرعنا. أمَّا ما روي عن عمرَ أنَّه كان يقرأ في التوارة فغضب النبي ﷺ فهذا محمول على ما خالف شرعنا.

أمَّا ما سكتَ شرعنا عنه فلا هو من هذا القبيل ولا من هذا القبيل فقد قال رسول الله ﷺ : **«لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا**

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص٤ .

(٢) انظر صحيح البخاري في كتاب الأنبياء، وقد أخرجه أحمد والترمذي.

بالله وما أنزلَ» قال العلامة العيني في شرح الحديث: «يعني إذا كان ما يخبرونكم به محتملًا، لئلا يكون في نفس الأمر صدقًا فتكذبوه، أو كذبًا فتصدقوه، فتقعوا في الحرج».

وقد أحسنَ الخطابي في شرحِه للحديث نفسه وللأحاديث السابقة إذ يقول:

«لم يرد النهي عن تكذيبهم فيما ورد شرعنا بخلافه، ولا عن تصديقه فيما ورد شرعنا بوفاقه، وهذا الحديث: أي لا تصدقوا ولا تكذبوا. . . أصل في وجوب التوقف عمّا يشكك في الأمور فلا يقضي عليه بصحة أو بطلان، ولا بتحليل ولاتحريم، وقد أمرنا أن نؤمن بالكتبِ المنزلةِ على الأنبياء عليهم السلام إلّا أنّه لا سبيل لنا إلى أن نعلمَ صحيح ما يحكونه عن تلك الكتب من سقيمه فنتوقف فلا نصدقهم لئلا نكون شركاء معهم فيما حرفوه منه، ولا نكذبهم فلعله يكون صحيحًا، فنكون منكرين لما أمرنا أن نؤمن به»[١].

وهذا النوع هو أكثر الأنواع التي رويت في التفسير كما قال ابن كثير وقد ازداد شيئًا فشيئًا، بدأ من عهد الصحابة والتابعين وكان كعب الاحبار ووهب بن منبه، وعبد الله بن سلام من أكثر أهل زمانهم رواية لها لعلمهم بالكتاب ثم تضخمت بعدهم القصص والأخبار حتى أصبحت مصدرًا من مصادر التفسير.

---

(١) الحديث لا تصدقوهم، أخرجه البخاري في كتب التفسير.

المصدر الخامس

الرأي (الاجتهاد)

أخرت ذكر هذا المصدر للخلاف في اعتبارِه مصدرًا من مصادر التفسير ولأنّه المصدر الأخير الذي يرجع إليه حين لا نجد للآية تفسيرًا في المصادر السابقة.

وأطلقت على هذا المصدر الرأي أو الاجتهاد لأنَّ المقصود من الرأي ليس مجرد الرأي وإنما المقصود هو الاجتهاد، إذ التفسير بالرأي لون من ألوان الاجتهاد.

إنَّ الخلافَ في التفسير بالرأي قد وقعَ بينَ الأقدمين والمحدثين وقد حاول المحدثون أن يجعلوا الخلاف شكليًا كما قال أستاذنًا الذهبي: «إنَّ الخلاف لفظي لا حقيقي» ووافقه الأستاذ فايد ومن قبلهما الشيخ الزرقاني رَحِمَهُ اللَّهُ -مثل قوليهما- ويمكن أنّ يجعل الخلاف لفظيًا[1].

ويبدو أنَّ هذا الرأي لم يحالفه الصواب في الجمع بين القولين، وجعل الخلاف لفظيًا لا حقيقيًا، إذ الخلاف على ما سيظهر لك هو جوهري، وهاك أقوال المجيزين والمانعين للتفسير بالرأي.

أدلة المجيزين للتفسير بالرأي:

١- من القرآن قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾[2]. وتدبر القرآن يكون بفهمه ومعرفة تفسيره وذلك عن طريق العقل والاجتهاد بالرأي وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾[3]. فهذا يدلُّ على أنَّ أهلَ

---

(١) المناهل جـ١ ص٥٢٦ .

(٢) محمد: ٢٤ .

(٣) النساء: ٨٣ .

الاستنباط والاجتهاد هم الذين يعلمونَ معاني القرآن بما وهبهم اللّه من قوة الاستنباط.

٢- إنَّ القولَ بمنع التفسير بالرأى مساو للقول بمنع الاجتهاد وهذا القول مردود.

٣- اختلاف الصحابة في الأقوال -طبعًا في بعض الأحيان- يدل دلالة واضحة على جواز التفسير بالرأى، إذ لولا ذلك لاتفقت تفاسيرهم.

٤- دعاء النبي ﷺ لابن عباس أن يفقهه في الدين ويعلمه التأويل فلو كان التأويل كل التأويل من التنزيل والسماع والنقل لما كان لدعائه ﷺ فائدة في تخصيصه بالدعاء.

أمّا أدلة المانعين فقد أستدلوا:

أولاً: من القرآن الكريم: قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾(١).

هذه الآية حصرت البيان والتفسير بالنبي ﷺ فليس لأحد غيره أن يفسر القرآن برأيه.

ثانيًا: من السنة: ما رواه الترمذي عن ابن عباس عن النبي ﷺ **أنّه** قال: **«من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار»**(٢) وما رواهُ الترمذي أيضًا وأبو داود عن جندب أنّه قال: قال رسول اللّه ﷺ : **«من قال في القرآن برأيه فأصابَ فقد أخطأ»**(٣).

ثالثًا: الآثار الواردة عن الصحابة والتابعين منها: قول أبي بكر الصديق ﷺ : «أي سماء تظلني، وأي أرض تقلني، إذا قلت في حرف من كتاب اللّه بغير ما أرادَ اللّه تعالى؟». ومن التابعين قول الشعبي: «ثلاث لا

---

(١) النحل ٤٤

(٢) باب التفسير في سنن الترمذي (٢/ ١٥٧).

(٣) المرجع السابق

أقول فيهن حتى أموت القرآن، والروح، والرأي». وكان سعيد بن المسيب كبير التابعين إذا سئلَ عن الحرام والحلال تكلم، وإذا سئلَ عن تفسير آية من آياتِ القرآن سكتَ كأن لم يسمع شيئًا.

وجملة القول عند المانعين أنَّ التفسير بالرأى قول على اللّه بغير علم وهو إثم وحرام لا يجوز ارتكابه.

وقد رد المجيزونَ على كل دليل استدلوا به، وهذا مجمل الرد بإيجاز.

أمّا الدليل الأول وهو استدلالهم بالقرآن فهو مردود لأنَّ الرسول ﷺ وإن بيّن القرآن إلَّا أنَّه لم يبين جميع القرآن بل بيّن ما هو بحاجة إلى بيان كما بيّناه لك سابقًا.

أمّا الحديثان فالأول منهما محمول على القول بالرأي فيما لا يعلم إلَّا عن طريق السمع، أو فيمن يفسر القرآن حسب هواه ولأنَّه تفسير بغير ما أرادَ اللّه كما ثبتَ في الأثر، أمّا الحديث الثاني المروي عن جندب فإنَّ من رواته سهيل بن أبي الحزم، وقد طعنَ فيه أئمة الحديث البخاري والنسائي وابن حاتم الذي قال فيه: ليس بالقوي، وقد ضعفه ابن معين والإمام أحمد وقال: روى أحاديث منكرة(١).

أمّا الثالث فإنَّ ما روي عن هؤلاء من إحجام عن التفسير بالرأي مبناه الحذر والحيطة لا الحظر والحرمة.

وبعدُ: فإنَّ المتأملَ في أدلة الفريقين يرى بوضوح أنَّ الخلافَ بينهما ليس لفظيًا بل هو كما قال الأقدمون: إنَّ المذهبينِ فيهما غلو وتقصير وهما على طرفي نقيض كما قال المحقق الألوسي: «وأمّا التفسير بالرأي فالشائع المنع عنه» ثم بعد أن ساقَ أقوال المانعين قال: «ولا دليل في ذلك». نعم إنَّ عبارة المانعين للتفسير بالرأي صريحة في منع كل تفسير

---

(١) انظر تهذيب التهذيب (٤/ ٢٦١)، وميزان الأعمال (١/ ٤٣٢).

بالرأي وهي ناصعة في جلاء لا يعتوره أدنى شائبة من غموض أو التواء على أنَّه حتى لو بلغ صاحب الرأي ما بلغ من علم واجتهاد وسعة وأدب فليس له أن يفسر القرآن برأيِهِ وإنما عليه أن يقتصرَ على المأثور فحسب فهل بعد هذا نقول إنَّ الخلافَ بينهم لفظي، وأنَّ مرادَ المجيزين للتفسير بالرأي إنما يريدونَ الرأي المحمود وإنَّ مرادَ المانعين للتفسير بالرأي إنما هو الرأي المذموم.

كلا إنَّ المانعين للتفسير بالرأي يمنعونه ولو صدرَ عن العلماء، وكل فريق يعزز رأيه ويرد على الآخر: فكيف يقال إنَّ المنعَ للرأي المذموم والجواز للرأي المحمود؟.

إنَّ المانعين للرأي لا يقصدونَ الرأي المذموم فحسب إذ هذا بدهي من البدهيات التي يسلم لهم بها المجيزون، وإنما يقصدونَ المنعَ من التفسير بالرأي على عمومه وشموله، محموده ومذمومه، صحيحه وسقيمه، فالقائل بالقرآن برأيه وإن أصابَ فقد أخطأ، فالمصيب مخطئ، فما بالك بالمخطئ.

هل بعدَ هذه الصراحة صراحة في قصدهم الواضح من تحريم التفسير بالرأي بجميع أشكاله وألوانه.

لهذا كله فإنَّ الحق الذي نقول به إنَّ الخلاف حقيقي لا أثرَ فيه للفظية، لذا كان لزامًا علينا أن نسلك طريق الترجيح الذي لا محيص عنه فنقول: إنَّ أدلة المجيزين للتفسير بالرأي أقوى حجة، والواقع العملي الثابت عن سيرة الصحابة والتابعين يدل عليه، فإنَّ الذينَ رويت عنهم الأخبار بالامتناع عن التفسير بالرأي قد ثبتَ عنهم التفسير بالاجتهاد والتفسير بالرأي، وما اختلاف التفاسير وتنوعها واختلاف التفاسير عن الصحابة والتابعين إلَّا دليل ناصع على أنَّ مصدرَ هذا الخلاف إنما هو تباين الآراء النابع عن اجتهادهم.

وتبقى أدلة المنع محصورة فيما لا يجوز أن يفسر به القرآن بالرأي، في المجال الذي ليس له أن يقول فيه قولًا إلّا نقلًا أو سماعًا، هذا ما نميلْ إليه، أمّا أن نجمعَ بين الرأيين بتحريم الرأي المذموم وجواز الرأي المحمود، فما نظنُّ أنَّ الخلاف واقع في شيء من ذلك لأنَّ التفسير بالرأي المذموم ليس مورد خلاف بين العقلاء والعلماء لأنَّ كلمة المجيزين والمانعين سواء في رفضه لذا لم يبق الخلاف إلّا في جواز التفسير بالرأى أو منعه عمومًا.

* * *

المبحث الرابع

شروط المفسر

لا ريب أنَّ من أرادَ أن يتصدى لتفسير القرآن فعليه استجماع الشروط المعتبرة حتى يكون أهلًا لبيان مراد الله، ومن أولى بدهيات الشروط: صحة اعتقاد المفسر حتى يمكن الركون إلى تفسيره فلا يطمأن إلى كلام الملاحدة والمبتدعة مهما سمت علومهم، لأنَّهم يبغونَ الفتنة كدأب الباطنية وغلاة الرافضة وأهل البدع -قديمًا وحديثًا- لأنَّ مقصودهم هو ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله بما يوافق ضلالهم.

وهناك من العلوم التي يجب توفرها في المفسر حتى يتسنى له تفسير كتاب الله عز وجل وقد بلغ بها السيوطي خمسة عشر علمًا نستطيع أن نضعها في بضعة علوم أساسية.

أولاً: علوم اللغة العربية:

هذا من أولى الضرورات التي يجب أن يتحلى بها كل قاصد لتفسير كتاب الله الذي من أهم صفاته أنَّه «بلسان عربي مبين»: ﴿قرآنا عربيا﴾[1].

لذا قال الإمام مجاهد شيخ المفسرين التابعين: لا يحلُ لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله إذا لم يكن عالمًا بلغات العرب.

وقال الإمام مالك بن أنس ﷺ: «لا أوتى برجل غير عالم بلغة العرب يفسر كتاب الله إلَّا جعلته نكالًا»[2].

ومن أهم علوم اللغة العربية:

(أ) علم النحو:

---

(١) يوسف: ٢.

(٢) رواه البيهقي في الشعب عن مالك.

يتغير معنى الكلام حسب موقعه الإعرابي، فينتقلُ المعني من الكفر إلى الإيمان، ومن الإيمان إلى الكفر بتغير حركة الإعراب فيه، وهذا معنى ما أخرجه أبو عبيد عن الحسن أنَّه سئلَ عن الرجل يتعلم العربية يلتمسُ بها حسن النطق ويقيم بها قراءته، قال: «حسن فتعلمها فإنَّ الرجلَ يقرأ الآية فيعيى بوجهها فيهلك فيها»[1].

والقرآن الكريم قد نزل بأفصح لغات العرب، وكلام اللّه تعالى حاكم ومهيمن على القواعد العربية، فعلامات الإعراب وقواعده مستنبطة من لسان العرب وقد وضعت في عصر متأخر بعد نزول القرآن، لذا فلا يلتفت إلى كلام بعض المفسرين الذين يستبعدونَ بعض القراءات القرآنية لاعتقادهم أنَّها مخالفة للقواعد العربية. مثل ما قاله الزمخشري وغيره في قراءة متواترة من سورة النساء: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامِۚ﴾[2]. بكسر الأرحام، فقد لغا في ذلك كثير من المفسرين في توجيه هذه القراءة وغيرها وقد انبرى لهم الإمام أبو حيان في الرد عليهم في تفسيره البحر المحيط، ولسنا هنا في صدد الحديث عنها.

(ب) علم الصرف:

علم الصرف به تعرف الأبنية والصيغ، وقد نص عليه ابن فارس قائلًا: «من فاته علمه فاته المعظم، لأنَّا نقول: «وجِد» كلمة مبهمة فإذا صرفناها اتضحت فقلنا في المال «وُجدا» وفي الضالة «وجدانا» وفي الغضب «موْجدة» وفي الحزن «وجْدًا».

وانظر إلى اختلاف المعنى من العدل إلى عكسه الجور لاختلاف التصريف في الآيتين التاليتين:

---

(١) انظر السيوطي في الإتقان (٢/ ١٨١).

(٢) النساء: ١ .

في سورة الحجرات: ﴿وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾[1]. بمعنى اعدلوا.

وفي سورة الجن: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾[2]. أي الجائرونَ الظالمونَ.

ومن جهل هذا العلم فإنَّه يقع في البدع والخطأ، ومن ذلك ما قاله الزمخشري في الكشاف: ومن بدع التفاسير أنَّ الإمام في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْۖ﴾[3].

جمع أم، وإن الناس يدعونَ يوم القيامة بأمهاتهم دون آبائهم لئلا يفتضحُ أولاد الزنا، قال: «وليت شعري أيهما أبدع، أصحةُ لفظه أم بهاءُ حكمته يعني أنَّ الأم لا تجمعُ على إمام، وهذا كلام من لا يعرف الصناعة ولا لغة العرب، ثم قال: وهذا خطأ أوجبه جهله بالتصريف فإنَّ الأم لا تجمعُ على إمام بل أمهات»[4].

(ج) الاشتقاق:

لأنَّ الاسم إذا كان اشتقاقه من مادتين مختلفتين اختلفَ باختلافهما كالمسيح هل هو من السياحة أو المسح[5].

فإذا كان من السياحة فتكون تسمية عيسى بالمسيح لكثرة سياحته، وإذا كان من المسح تكون تسميته لأنَّه كان لا يمسحُ على ذي عاهة إلَّا برئ بإذن اللَّه.

(د) علوم البلاغة:

بأقسامها الثلاثة: المعاني، البيان، البديع، لأنَّه يعرفُ بعلم المعاني

---

(١) الحجرات: ٩.

(٢) الجن: ١٥.

(٣) الإسراء: ٧١.

(٤) انظر تفسير الزمخشري في هذه الآية ٧١ من سورة الإسراء، وقد نقل العبارة صاحب البرهان (٢/ ٢٩٧).

(٥) الإتقان (٢/ ١٨١).

خواص تراكيب الكلام من حيث إفادتها المعنى، ويعرف بعلم البيان خواص تلك التراكيب من حيث اختلافها بحسب وضوح الدلالة وخفائها، ويعرفُ بالبديع وجوه تحسين الكلام[1].

وهذه العلوم يستعانُ بها في إدراك الإعجاز القرآني بصورتها العجيبة التي أعجزت الخلق من الإنس والجن عن الإتيان بمثله، وأكثر كتب التفسير اهتمامًا بذلك كتاب «الكشاف» للزمخشري الذي يقول: «من حق مفسر كتاب اللّه الباهر، وكلامه المعجز أن يتعاهد في مذاهبه بقاء النظم على حسنه، والبلاغة على كمالها وما وقع به التحدي سليمًا من القادح». وقد اعتنى في كتابه بالنواحي البلاغية، كيف لا وهو واضع أساس البلاغة.

ثانيًا: علم أصول الفقه:

إذ به يعرف الاستدلال في استنباط الأحكام، وقد بيّن لنا ابن القيم الجوزية بعض القواعد الأصولية التي تتعلق بتفسير القرآن فقال في كتابه «بدائع الفوائد»[2] عن هذه القواعد:

ولقد وجدنا كثيرًا من المفسرين المشهورين قد برعوا في علم أصول الفقه كما برعوا في التفسير على حد سواء، منهم:

١- أبو بكر أحمد بن علي الرازي الجصاص المتوفى سنة ٣٧٠ هـ، وتفسيره «أحكام القرآن»، وكتابه في الأصول مشهور باسمه «أصول الجصاص».

٢- فخر الدين الرازي والمتوفى سنة ٦٠٦ هـ، وتفسيره «مفاتيح الغيب»، أما كتابه في الأصول فهو من أشهر الكتب الأصولية «المحصول

(١) المرجع السابق (٢/ ١٨١).

(٢) من كتبه بدائع الفوائد وقد عنون لها صاحب تفسير كلام المنان فقال: فوائد تتعلق بتفسير القرآن

في علم الأصول».

٣- ابن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨ هـ، له تفسير وكتابه في الأصول «المسودة في أصول الفقه» لآل تيمية أي هو وأبوه وجدّه.

٤- القاضي ناصر الدين البيضاوي الشيرازي المتوفى سنة ٧٩١ هـ، له تفسير معروف «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» وكتابه في الأصول «مناهج الوصول إلى علم الأصول».

٥- جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي المتوفى سنة ٩١١ هـ، وكتابه في التفسير «الدر المنثور»، وقد ساهمَ في التفسير الشهير بتفسير الجلالين، وكتابه في الأصول معروف باسم «الأشباه والنظائر».

٦- محمد بن علي بن محمد الشوكاني المتوفى سنة ١٢٥٠ هـ، وتفسيره «فتح القدير» وكتابه في الأصول «إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق في علم الأصول».

مما تقدم يتضح لنا أهمية هذا العلم لكل من تصدى لتفسير كتاب اللّه، بل لكل مجتهد يريد استنباط الأحكام من آيات القرآن، وخير الكتب في هذا العلم، «الإحكام في أصول الأحكام للآمدي، والموافقات للإمام الشاطبي، وما ذكرناهُ لك إرشاد الفحول للشوكاني».

ثالثًا: علم أصول الدين ويطلق عليه علم الكلام:

وهو علم لابد من توفره لكل مفسر حتى لا يقع في الخطأ والزلل فلابد من إدراك العقيدة الصحيحة، والنظر إلى آيات القرآن من وجهة نظر صحيحة عن الكون والإنسان والحياة، فإن ذلك يساعده في فهمِ الآيات فهمًا صحيحًا، ولابد من معرفة الأصول الاعتقادية -ما يجبُ في حق اللّه ويستحيلُ عليه وما يجبُ في حق الرسل عليهم السلام وما يستحيلُ عليهم.

يقولُ أبو حيان: «وقد صنفَ علماء الإسلام من سائر الطوائف في هذا

كتبًا كثيرة وهو علم صعب إذ المزلة فيه والعياذ بالله مفض إلى الخسران في الدنيا والآخرة»[1].

رابعًا: علوم القرآن:

هناك مباحث في علوم القرآن لابد من معرفتها حتى يتسنى للمفسر أن يدرك القرآن إدراكًا صحيحًا وبدونها يتعثر فهمه بل يقع في الضلال والإشكال ومن هذه العلوم القرآنية:

(أ) علم القراءات:

لأنَّ به يعرف كيفية النطق، وبالقراءات يترجح بعض الوجوه المحتملة على بعض فلا شكَّ أنَّ المعاني والتفاسير تختلف باختلاف الألفاظ زيادة أو نقصًا وتختلف باختلاف تغير حركة الألفاظ أو إتيان بلفظ بدل لفظ وذلك بتواتر أو آحاد ويؤخذ هذا من علم القراءات.

وقد صنف العلماء في هذا العلم الجليل كتبًا لا تعد ولا تحصى ويرى أبو حيان أن من أحسنها كتاب «الإقناع في القراءات السبع» لأبي جعفر بن الباذش وفي القراءات العشر كتاب «المصباح» لأبي الكرم الشهرزوري[2].

ويعتبر كتاب ابن الجزري «النشر في القراءات العشر» من خير الكتب المصنفة والمطبوعة في هذا العلم.

وقد رأينا أنَّ كثيرًا من المفسرين يتعرضونَ للقراءات القرآنية الواردة في الآيات القرآنية وعلى سبيل المثال الإمام الطبري، وابن كثير، والزمخشري، وصاحب البحر المحيط، بل رأينا منهم مَن قد ألف كتبًا في علم القراءات مثل ابن جرير الطبري، ومثل الكواشي[3]، المفسر الذي ألف كتاب المواقف في القراءة ويجدرُ بالذكرِ أن هذا الموضوع لا

---

(١) البحر المحيط، لأبي حيان (١/٧).

(٢) المرجع السابق.

(٣) الإمام الكواشي وصاحب التفسير. تبصرة المتذكر وتذكرة المتبصر، وقد توفي سنة ٦٨٠ هـ.

يأخذ إلَّا شفاهًا عن أهل هذا العلم ليعرف كيفية النطق الصحيح بالقرآن.

(ب) أسباب النزول:

ارجع إلى ما كتبناهُ في أسباب النزول[1].

(ج) الناسخ والمنسوخ:

ويروى أنَّ علي بن أبي طالب رضي الله عنه مر بقاص في مسجد وهو يحدث الناس فسأله أتعرفُ الناسخ والمنسوخ قال: لا، قال: هلكتَ وأهلكتَ، وسيأتيك بيانه[2].

(د) علم القصص:

ذلك أنَّ القرآن الكريم يذكرُ القصة الواحدة في مواضع عديدة من السور القرآنية فما يجمله في مواضع يفصله في سور أخرى يعين على فهم مجملها.

خامسًا: العلم بالأحاديث النبوية المفسرة للآيات القرآنية.

سادسًا: العلم بتفسير الصحابي:

وقد ورد تفصيله في مصادر التفسير[3].

هذه أهم العلوم فمن فسر بدونها فقد ضل، وهناك علوم أخرى كعلم الموهبة، والامتلاء من العلوم العديدة والمفيدة للاقتدار على تحصيل التفسير فإنَّه كما قال ابن أبي الدنيا عن تفسير القرآن وما يستنبطونه بحر لا ساحل له، ولكن ما ذكرناهُ كالآلة للمفسر لا يكون مفسرًا إلَّا بتحصيلها، ويحسنُ بنا أن نذكر إليك ما قاله الشيخ محمد رشيد رضا في تخصيص بعض العلوم التي يحتاج إليها المفسر فإنَّ فيها إيضاحًا وإضافةً مفيدة لما ذكرناهُ لك

---

(١) ص ١٥٩ .

(٢) ص ٢٩٨ .

(٣) ص ٢٤١ .

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ : «للتفسير مراتب أدناه أن يبين بالإجمال ما يشرب القلبَ عظمة اللّه وتنزيهه، ويصرف النفس عن الشر ويجذبها إلى الخير، وهذه هي التي قلنا إنَّها متيسرة لكل واحد: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾(١).

وأمّا المرتبة العليا فهي لا تتمُ إلّا بأمور:

أحدها: فهم حقائق الألفاظ المفردة، التي أودعها القرآن بحيثُ يحقق المفسر ذلك من استعمالات أهل اللغة غير مكتفٍ بقول فلان وفهم فلان، فإنَّ كثيرًا من الألفاظ كانت تسعمل في زمن التزيل لمعان ثم غلبت غيرها بعد ذلك بزمن قريب أو بعيد، ومن ذلك لفظ التأويل اشتهر بمعنى التفسير مطلقًا أو على وجه الخصوص ولكنه جاء في القرآن بمعان أخرى كقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾(٢).

فما هذا التأويل؟ يجب علَى من يريد الفهم الصحيح أن يتتبع الاصطلاحات التي حدثت في الملة ليفرق بيهما وبين ما ورد في الكتاب، فكثيرًا ما يفسر المفسرون كلمات القرآن بالاصطلاحات التي حدثت في الملة بعد القرون الثلاثة الأولى.

فعلى المدقق أن يفسر القرآن بحسبِ المعاني التي كانت مستعملة في عصر نزوله، والأحسنُ أن يفهم اللفظُ من القرآن نفسه، بأن يجمعَ ما تكرر في مواضع منه وينظرَ فيه، فربما استعمل بمعان مختلفة كلفظِ الهداية وغيره، ويحقق كيف يتفق معناه مع جملة معنى الآية، فيعرف المعنى المطلوب من بين معانيه، وقد قالوا: إنَّ القرآن يفسر بعضه بعضًا، وإنَّ أفضل قرينة تقوم على حقيقة معنى اللفظ موافقته لما سبق له من القول،

---

(١) القمر: ١٧ .

(٢) الأعراف: ٥٣ .

واتفاقه مع جملة المعنى، وائتلافه مع القصد الذي جاء له الكتاب بجملته.

ثانيهما: الأساليب، فينبغي أن يكون عنده من علمها ما يفهم به هذه الأساليب الرفيعة، وذلك يحصلُ بممارسة الكلام البليغ ومزاولته، مع التفطن لنكته ومحاسنه، والعناية بالوقوفِ على مراد المتكلم منه. نعم إننا لا نتسامى إلى فهم مراد اللّه كله على وجه الكمال والتمام، ولكن يمكننا فهم ما نهتدي به بقدر الطاقة، ويحتاج في هذا إلى علم الإعراب وعلم الأساليب «المعاني والبيان» ولكن مجرد العلم بهذه الفنون وفهم مسائلها وحفظ أحكامها لايفيدُ المطلوب.

ترونَ في كتب العربية أنَّ العربَ كانوا مسددين في النطق، يتكلمونَ بما يوافق القواعد قبل أن توضع، أتحسبونَ أنَّ ذلك كان طبيعيًا لهم؟ كلَّا وإنما هي ملكة مكتسبة بالسماع والمحاكاة، ولذلك صارَ ذاتيًا لما فقدِوه في مدة خمسينَ سنة بعد الهجرة.

ثالثهما: علم أحوال البشر، فقد أنزلَ الله هذا الكتاب وجعله آخر الكتب، وبيّن فيه ما لم يبين في غيره، بيّن فيه كثيرًا من أحوال الخلق وطبائعهم، والسنن الإلهية في البشر، وقص علينا أحسن القصص عن الأمم وسيرها الموافقة لسننه فيها، فلابد للناظر في هذا الكتاب من النظر في أحوال البشر في أطوارهم وأدوارهم، ومناشئ اختلاف أحوالهم من قوة وضعف، وعز وذل، وعلم وجهل، وإيمان وكفر، ومن العلم بأحوال العالم الكبير، علوية وسفلية، ويحتاج هذا إلى فنون كثيرة من أهمها التاريخ بأنواعه.

قال الأستاذ الإمام: أنا لا أعقل كيف يمكن لأحد أن يفسر قوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ وهو لا يعرفُ أحوال البشر، وكيف اتحدوا، وكيف تفرقوا، وما معني تلك الوحدة التي

كانوا عليها، وهل كانت نافعة أو ضارة، وماذا كان من آثار بعثة النبيين فيهم.

أجمل القرآن الكلام عن الأمم وعن السنن الإلهية، وعن آياته في السماوات والأرض وفي الآفاق والأنفس، وهو إجمالي صادر عمّن أحاطَ بكل شيء علمًا، وأمرنا بالنظرِ والتفكر، والسير في الأرض لنفهم إجماله بالتفصيل الذي يزيدنا ارتقاء وكمالًا، ولو اكتفينا من علم الكونِ بنظرة في ظاهرة، لكنا كمن يعتبر الكتاب بلون جلده، لا بما حواه من علم وحكمة.

رابعهما: العلم بوجه هداية البشر كلهم بالقرآن، فيجبُ على المفسر القائم بهذا الفرض الكفائي، أن يعلم ما كان عليه الناس في عصر النبوة من العرب وغيرهم، لأنَّ القرآن ينادي بأن الناس كلهم كانوا في شقاء وضلال، وأنَّ النبي ﷺ بعث به لهدايتهم وإسعادهم، وكيف يفهم المفسر ما قبحته الآيات من عوائدهم علَى وجه الحقيقة أو ما يقرب منها، إذا لم يكن عارفًا بأحوالهم وما كانوا عليه؟.

هل يكتفي من علماء القرآن -دعاة الدين والمناضلين ضد التقليد- بأن يقولوا تقليدًا لغيرهم: إنَّ الناس كانوا على باطل. وإنَّ القرآن دحض أباطيلهم في الجملة؟ كلا.

وأقولُ الآن: يروى عن عمرَ أنَّه قال: «إنَّ جهلَ الناس بأحوال الجاهلية هو الذي يخشى أن ينقض عرى الإسلام عروة عروة» اهـ.

والمرادُ: أنَّ من نشأ في الإسلام ولم يعرف حال الناس قبله، يجهل تأثير هدايته وعناية اللَّه يجعله مغيرًا لأحوال البشر، ومخرجًا لهم من الظلمات إلى النور، ومن جهلَ هذا يظنُّ أنَّ الإسلام أمر عادي، كما ترى بعض الذين يتربون في النظافةِ والنعيم يعدونَ التشديد في الأمر بالنظافة والسواك من قبيل اللغو، لأنَّه من ضروريات الحياة عندهم، ولو اختبروا

غيرهم من طبقات الناس لعرفوا الحكمة في تلك الأوامر، وتأثير تلك الآداب ومن أين جاءت.

خامسًا: العلم بسيرة النبي ﷺ وأصحابه، وما كانوا عليه من علم وعمل، وتصرف في الشؤون دنيويها وأخرويها. اهـ[(١)]

هذه عبارة الأستاذ الشيخ رشيد رضا بنصها، وفيها تركيز وإدماج لبعض ما قلناهُ من قبل، وفيها شرح وإيضاح لبعض آخر منه، وهي تُلقي ضوءًا على ما تقدَّم، وتوضح بعض ما فيه من إيجاز.

* * *

(١) تفسير المنار (١/٢١، ٢٤).

المبحث الخامس

أنواع التفسير

يقسم العلماء التفسير إلى نوعين رئيسين وهما: التفسير المأثور والتفسير بالرأي أو الدراية ومنهم من يضيف إليه التفسير الإشاري كنوع ثالث والذي يخرجه الكثير عن حيز التفسير كما سنرى فيما بعد.

أولاً: أمّا التفسير بالمأثور:

فهو كل تفسير يعتمد على المصادر التفسيرية القرآنية والسنة وأقوال الصحابة رضوان اللّه عليهم، ومنهم من يضيفُ أقوال التابعين، وخير ما يمثل هذا اللون من التفسير هو «الدر المنثور في التفسير بالمأثور»، وهناك من يعتبر تفسير ابن جرير الطبري، وابن كثير من التفسير بالمأثور وفي هذا نظر: لما يحويه ابن جرير وابن كثير من اجتهادات وتوجيهات وترجيحات تعتمدُ على الدراية والرأي والاجتهاد، فالكتابان مصدزان عظيمان للتفسير بالمأثور ولكنهما لا يخلوان من التفسير بالرأي. ويجدرُ التنبيه إلى أنَّ اعتبار تفسير القرآن بالقرآن من التفسير بالمأثور فيه نظر لإطلاق الأثر على التفسير القرآني، والأثر كما هو معروف يطلق على ما روي عن النبي ﷺ والصحابة والتابعين، ولكن لابد من استدراك أنَّ اعتبار تفسير القرآن للقرآن من التفسير بالمأثور هو من باب الاصطلاح ولا مشاحة في الاصطلاح.

أشهر المفسرين في التفسير بالمأثور:

١- الطبري (٢٢٤ - ٣١٠ هـ):

هو الإمام المجتهد والإمام المحدث الإمام المفسر وإمام المؤرخين أبو جعفر محمد بن جرير الطبري.

لقد بلغ في هذه العلوم جميعًا درجة متساوية من الإمامة، قال الخطيب

البغدادي: «جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد في عصرهِ» فكان جديرًا بالتفسير.

قال العباس بن سريج: «محمد بن جرير عالم، وقال ابن خلكان: «إنَّه كان من الأئمة المجتهدين، لم يقلد أحدًا، بل له مذهب معروف وله أتباع ينتحلونَ مذهبه يقال لهم الجريرية».

قال السيوطي: «وكان أولًا شافعيًا، ثم انفردَ بمذهب مستقل، وقد أثنى عليه العلماء المحدثونَ، ومازال كتابه «جامع البيان عن تأويل آي القرآن» عمدة كتب التفسير جميعًا.

٢- ابن عطية الأندلسي[١]:

هو القاضي عبد الحق بن عطية الأندلسي الغرناطي المالكي. ولد بغرناطة سنة ٤٨٠ هـ ونشأ فيها، وتربى في كنفِ أبيه القاضي الحافظ الذي أحاطه بأسباب العناية والرعاية مما كان سببًا في تكوين شخصيته العلمية.

وكان منذ صغره طموحًا متطلعًا، وقد لازمه هذا الطموح حتى برزت مواهبه، وعم إنتاجه وغدا شخصية علمية يشارُ لها بالبنان. ويحدثنا الفتح بن خاقان عن صفات ابن عطية التي أورثته علوًا في الرتبة وعظمة في المكانة فقال: «سابق الأمجاد في السؤدد جاهدًا، حتى تناول الكواكب قاعدًا[٢]».

مكانته العلمية:

قال لسان الدين بن الخطيب: «كان ابن عطية فقيهًا عالمًا بالتفسير، والأحكام والحديث والفقه والنحو، والأدب و اللغة، له نظم ونثر، ولي القضاء (بالمرية) من حواضر الأندلس، وكان غاية في الدهاء والذكاء»[٣].

---

(١) ترجمته: اقبن بشكوال، الصلة (٢/٣٨٦)، والضبي، بغية الملتمس ص٣٨٩. النباهي: تاريخ قضاة الأندلس ص١٠٩، وابن الخطيب، الإحاطة (٣/٥٣١). الداودي: طبقات المفسرين (١/ ٢٦٠).

(٢) ابن خاقان، قلائد العقيان (٢/ ٢١٧).

(٣) ابن الخطيب (٣/٥٣٩).

وقال السيوطي: «عبد الحق بن عطية هو الإمام الكبير قدوة المفسرين وعدّة أساطين النحاة وشيوخهم»(١).

وعده ابن فرحون من أعيان مذهب الإمام مالك فترجمَ له وذكرَ مناقبه(٢).

منهجه في التفسير:

كان ابن عطية يذكرُ الآية الكريمة ثم يفسرها بعبارة سهلة، بعيدة عن الغموض والاحتمال، ويورد التفسير بالمأثور في غير إكثار.

ويعرض الأقوال ويناقشها مع الرد أحيانًا، وكان كثير الاستشهاد بالشعر للدلالة على المعاني، محتكمًا إلى اللغة العربية عند إرادة بعض المقاصد، كثير الاهتمام بالمسائل النحوية، وكان يتعرض للقراءات مستعملها وشاذها ويوجهها، كما كان يتحرى الصحة في الأحاديث بعيدًا عن الإسرائيليات، كل ذلك في غاية الإيجاز، وحذف فضول القول(٣).

ولقد أقام ابن عطية منهجه فيّ التفسير على أهم الأصول التالية:

١- جمعه بين التفسير بالمأثور والرأي.

٢- اللغة العربية والنحو.

٣- القراءات.

٤- عرض الأحكام الفقهية.

٦- ردُّه للإسرائيليات.

التفسير بالمأثور والرأي عند ابن عطية:

لقد عني ابن عطية بالتفسير بالمأثور سواء ما تعلق منه بتفسير القرآن بالقرآن أو تفسير القرآن بالحديث، أو بأقوال الصحابة والتابعين، لكنه

(١) السيوطي، طبقات المفسرين ص٦٠، وبغية الرعاة ص٢٩٥ .

(٢) ابن فرحون، الديباج المذهب (٢/ ٥٧).

(٣) يمكن الوقوف على هذا في مقدمة تفسيرة: المحرر الوجيز المقدمة ص٣٠ .

درجَ في تفسيره هذا بعدمِ التفنيد بالأسانيد كابن جرير الطبري إلتزامًا مع منهجه الذي رسمه لنفسه في مقدمة تفسيره وهو «الإيجاز».

أمَّا التفسير بالرأي فشرطه ألا يتجهم الإنسان على كتاب اللَّه تعالى فيفسره برأيه وهواه دونَ حصوله على علوم التفسير من لغة ونحو وأصول ويتأول ابن عطية الأحاديث الواردة في النهي عن التفسير بالرأي، ويقول بأنَّ ذلك محمول على مغيبات القرآن وتفسير مجمله وذلك لا سبيل له إلَّا بتوفيق من اللَّه عز وجل[1].

وأجابَ أيضًا عن تحرج السلف الصالح -الصحابة والتابعين- من التفسير بالرأي فقال: «إنَّ ذلكَ الإحجام كان تورعًا واحتياطًا لأنفسهم مع إدراكهم وتقدمهم أو أن توقفهم كان في مشكل القرآن خوفًا من أن يكون تفسيرهم في تلك الحالة قد لا يوافق مراد اللَّه تعالى[2].

ومن أمثلة التفسير بالمأثور عنده:

تفسير القرآن بالقرآن:

تفسير معنى الهداية الواردة في قوله تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾[3]. بما وردَ معناه في آيات أخرى.

قال ابن عطية: «والهدايةُ في اللغة الإرشاد لكنها تتصرفُ على وجوه، فالهدى يجيء بمعنى خلق الإيمان في القلب ومنه قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ﴾[4].

وقال: وقد جاء الهدى بمعنى الدعاء من ذلك قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾[5].

---

(١) ابن عطية، المحرر الوجيز (١/ ١٢٠ - ١٢١).

(٢) مقدمة التفسير لابن عطية ص٣٠ .

(٣) الفاتحة: ٦ .

(٤) البقرة: ٥ .

(٥) الرعد: ٧ .

أي داع وقد جاء الهدى بمعنى الإلهام من ذلك قوله: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[1].

ومثال تفسير القرآن بالحديث:

عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[2].

قال القاضي أبو محمد ويؤيد هذا التأويل ما قال أبو ذر ﷺ قال: قلتُ: يا رسول اللّه، أيُّ مسجد وضع أول؟ قال: «**المسجد الحرام**»، قلتُ: ثم أي؟ قال: «**المسجد الأقصى**»، قلتُ: كم بينهما؟ قال: «**أربعونَ سنة**»[3].

والحديث أخرجه البخاري في صحيحه باب أي مسجد وضعَ في الأرض.

وأمَّا أمثلة التفسير بأقوال الصحابة، فيمكن الوقوف عليها في تفسيره[4].

وأمَّا التفسير بالرأي، فمثاله عنَد تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾[5].

فبعد أن استعرض معاني كلمة سواء وأقوال العلماء في تفسيرها، قال: «والذي أقوله في لفظة «سواء» إنَّها ينبغي أن تفسر بتفسير خاص بها في هذا الموضوع، وهو أنَّه دعاهم إلى معان، جميع الناس فيها مستوون، صغيرهم وكبيرهم، وقد كانت سيرة المدعوِّين أن يتخذَ بعضهم بعضًا أربابًا، فلم يكونوا على استواء حال، فدعاهم بهذه الآية إلى ما تألفه النفوس من حق لا يتفاضل الناس فيه..»[6].

---

(١) طه: ٥٠ .

(٢) آل عمران: ٩٦ .

(٣) ابن عطية، المحرر الوجيز (٣/ ١٦٣).

(٤) المحرر الوجيز (٢/ ١٦٠)، والمحرر الوجيز (٣/ ١١٨).

(٥) آل عمران: ٦٤ .

(٦) ابن عطية (٣/ ١١٤).

لقد أولى ابن عطية عناية فائقة باللغة والنحو فعرض لأصل الألفاظ واشتقاقها وبيان معانيها وأوجه الإعراب فيها، وكثيرًا ما كان ينقل آراء النحويين من البصريين والكوفيين وقد يتعرض لها بالترجيح والتصحيح أو بالرد والتضعيف، وأكثرَ من الشواهد الشعرية في أغراض مختلفة ومقاصد متعددة.

اهتمامه بالقراءات:

وخلاصته استعرض القراءات المتواترة في اللفظ القرآني وتوجيهها على المعاني مع بيان الشاذ أيضًا والتنبيه عليه والمثال الأول عند تفسير قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾[(١)].

قال ابن عطية: «وقرأ الجمهور -الم اللّه- بفتح الميم والألف ساقطة وروى عاصم أنَّه سكَّن الميم ثم قطعَ الألف، وروى الأولى التي هي كالجماعة حفص، وروى الثانية أبو بكر، وذكرها الفراء عن عاصم، وقرأ أبو جعفر وأبو حيوة «ألم» بكسر الميم للالتقاء، وذلك روي لأنَّ الياء تمنعُ من ذلك والصواب الفتح وهي قراءة جمهور الناس».

عرضه للأحكام الشرعية:

ومسلكه في ذلك أنَّه كان يذكر آراء المالكية في المسألة الفقهية، وينوه كثيرًا برأي مالك، وفي بعض الأحيان يعرض لآراء المذاهب الأخرى الحنفية والشافعية والحنابلة ولكن في إيجاز.

ومما هو جدير بالملاحظة أنَّ ابن عطية كان يتحرى الدقة العلمية في النقلِ فيقولُ: «وهذا قول مالك وجميع أصحابهِ فيما علمت».

وكان يعرض لأدلة الأحكام ومن ثم يرجح آراء الفقهاء أو يرد ما يحتاج إلى رد[(٢)].

---

(١) آل عمران: ١، ٢.

(٢) انظر (٣/١٦٧، ٤/١٣٢).

وخلاصة القول أنَّ ابن عطية وقف من مسألة الأحكام الفقهية في تفسيره موقف العالم البصير بمسائل الأحكام، الواقف على دقائقه وأصوله دونما تعصب أو ميل، وفي غير إسراف أو استفاضة، وبذا يكون تصرفه هذا قد حقق التوازن بين وظيفته كمفسر وبين كونه إمامًا في الفقه.

ردُّه للإسرائيليات:

يؤكد ابن عطية في غير موضع من تفسيره إن الاسرائيليات لا تنهض في نفسها لتكون أساسًا في تفسير الآيات، لأنَّها قائمة على الأباطيل والخيالات ضعيفة الإسناد تفتقرُ إلى النقل الصحيح فضلًا عن أنَّ هذه المرويات الاسرائيلية تؤدِّي إلى زعرعة الثقة في المقصود من النصوص القرآنية وفساد الاعتقاد بمراميها وأهدافها، وبذا فإنَّه يرى ضرورة الإضراب عن هذا القصص الإسرائيلي إلَّا ما اقتضت الضرورة الاستعانة به على بيان المقصود من الآيات، وقد أكدَّ هذا الموقف في مقدمة تفسيره فقال: «وقصدت فيه أن يكون جامعًا وَجيزًا محررًا لا أذكرُ من القصص إلَّا ما تنفكُ الآية إلَّا به»(١).

من أمثلة ما ردَّه ابن عطية من الإسرائيليات:

١ -.عند تفسير قوله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾(٢).

قال ابن عطية: «وروي في قصص هذه الآية أنَّ بني إسرائيل لما أحدثوا الأحداث بعثَ اللّه عليهم بخت نصر البابلي فقتلهم وجلاهم من بيت المقدس فخرّبه، فلمَّا ذهبَ عنه جاء «أرمياء» فوقف على المدينة معتبرًا فقال: أنى يحيي هذه اللّه بعد موتها؟ فأماتهُ اللّه تعالى، وكان معه حمار -

(١) ابن عطية، المحرر الوجيز (١/ ٣١).
(٢) البقرة: ٢٥٩ .

قد ربطه بحبل جديد- وكان معه سلة فيها تين وهو طعامه، وقيل تين وعنب، وكان معه ركوة من خمر، وقيل من عصير، وقيل قلة ماء هي شرابه -وبقي ميتًا مائة عام- فروي أنَّه بلي وتفرقت عظامه هو وحماره، وروى أنَّه بلي دون الحمار -وأنَّ الحمار بقي حيًا مربوطًا وتفرقت أوصالهُ دون «عُزَيْر» وروى أنَّ اللَّه بعث إلى تلك القرية من عمَّرها وردَّ إليها جماعة من إسرائيل... وهذا كله ضعيف ترد عليه ألفاظ الآية(١).

قيمة تفسير ابن عطية:

قال لسان الدين بن الخطيب: «عبد الحق بن عطية... ألف تفسيره - فأحسنَ فيه وأبدعَ، وطارَ بحسنِ نيته كل «مطار»(٢).

أمَّا ابن تيمية فقد وصفه أنَّه بعيد عن البدعِ واتبع للسنة والجماعة فقال: «تفسير ابن عطية خير من تفسير الزمخشري، وأصح نقلًا وبحثًا وأبعد عن البدع وإن اشتملَ بعضها، بل هو خير فيها بكثير، بل لعله أرجحَ هذه التفاسير لكن تفسير ابن جرير أصح من هذه كلها»(٣).

وشهد له الإمام السيوطي فقال: «لقد أحسنَ ابن عطية في تفسيره وأبدعَ حتى طارَ صيته وصارَ كتابه أصدق شاهد بأمانته في العربية وغيرها»(٤).

وكانت وفاته رَحِمَهُ اللَّهُ عام (٥٤٦ هـ).

ثانيًا: التفسير بالرأي أو الدراية:

هو تفسيرُ القرآن بحسب اجتهاد المفسرين ومعارفهم في اللغة والأصول وغيرها. وجل كتب التفسير من هذا النوع مثل «الكشاف» للزمخشري، وتفسير البيضاوي والنسفي والقرطبي.

---

(١) ابن عطية (٢/ ٢٩٢).

(٢) ابن الخطيب، الإحاطة (٣/ ٥٣٩).

(٣) ابن تيمية، مقدمته في أصول التفسير ص٥٧ .

(٤) السيوطي: بغية الوعاة ص٢٩٥، وانظر أيضًا مقالات أخرى لابن عطية، وابن خلدون، المقدمة ص٤٣٩ ، محمد الفاضل بن عاشور والتفسير ورجاله ص٣٧٦، وما بعدها.

أهم كتب التفسير بالرأي:

لئن اعتبرَ العلماء تفسير ابن جرير بأنّه أمٌ في التفسير بالمأثور، فإنَّ تفسير الزمخشري أُمٌّ في التفسير بالرأي مع خلاف في الاتجاه المذهبي لكل منهما، ومع تحفظ تجاه هذين العملاقين. أمّا الطبري فمسبوق بيحيى بن سلام، وتفسير الطبري لا يخلو من التفسير بالرأي وإن كان كتابه شامل لكل الآثار المأثورة في التفسير الأثري، فقد حوى صحيحها وسقيمها ونكادُ أنَّ نحكمَ له بالاستيعاب الشامل لكل الآثار، غير أنَّ تفسير الدر المنثور للسيوطي أجدر بوصفِ التفسير الأثري.

١- **أمّا الزمخشري**: فهوَ فارس اللغة والبلاغة، وقد وضعَ بذورًا في التفسير بالرأي كان لها الأثر الواضح والبصمات الظاهرة في مفسرين كثيرين، منهم الرازي، والبيضاوي، وأبو السعود، والنسفي، وأبو حيان الذي وصفَ الزمخشري بأنّه أوتي من علوم القرآن بأوفرِ حظ على الرغم من هجومه وهجوم المفسرين على اعتزالياته الّتي تعصبَ لها بشكل عجيب متجاوزًا كل قواعد اللغة والبلاغة، بل خلعَ الأدب وراء انحرافاتِه ونزعاتِه.

٢- **الرازي**: وتفسيره «مفاتيح الغيب» (٥٤٣ - ٦٠٦ هـ).

هو فخر الدين محمد بن عمر بن الخطيب الرازي، عربي قرشي من سلالة أبي بكر الصديق ﷺ.

ولد في الري، ونشأ في بلاد الأعجمية وعاش فيها واستقرت أسرته في طبرستان، ونسب إلى مدينة الري. وهكذا ينسبُ إليها أبو بكر الرازي المعروف بالجصاص، وكذلك أبو بكر بن زكريا الرازي عالم الطب والكيمياء.

تنقل الرازي -إمام التفسير- في الري وخراسان وخيوة وبخارى والعراق والشام، ثم سكنَ أخيرًا في هراة في أفغانستان ومات فيها عام ٦٠٦ هـ.

قال ابن خلكان: «له اليد البيضاء باللسانين العربي والفارسي، برعَ في علوم كثيرة: علم التفسير، والأصول، والفقه، والنحو، والأدب، والفلسفة، والطب، والهندسة والفلك، ولكنه رأى أنّ أعظمها فائدة علوم القرآن والتفسير».

منهجه في التفسير: لقد أثرت علومه المكتسبة في رسم منهجه في التفسير، فعلمه في العلوم الرياضية والفلسفية والفلكية قد جعلته يسهب في تفسير الآيات، فكثيرًا ما نجده يرد على أقوال الفلاسفة والمتكلمين، وفي تفسير الآيات التي تتحدث عن النجوم تراهُ يتعرض لعلم الهيئة والفلك، وفي تفسير الآيات الكونية يتحدث عن العلوم الكونية وفي إسهاب لم تشهد له كتب التفسير مثيلًا.

وفي العلوم الشرعية: هو بحر في الأصول فقد سبق وألفَ المحصول في علم الأصول وهذا ما نلحظه أحيانًا في شرح قاعدة أصولية بل يؤيد مذهبه الفقهي بالقواعد الأصولية.

وهو عالم في الأدب والبلاغة لذا نزع إلى إبراز هذا اللون تحت عنوان اللطائف القرآنية.

وبالجملة فهو عالم في كل شيء، وضمن كتابه كل شيء، مما جعل بعض العلماء يصف تفسيره بشيء من الحيطة حين قال: «فيه كل شيء إلَّا التفسير»، وقد دفعَ أبو حيان هذا القول وأنصفه قائلًا: «جمع الإمام الرازي في تفسيره أشياء كثيرة طويلة لا حاجة بها في علم التفسير».

والحقُّ: أنَّ تفسير الفخر فيه التفسير وفيه كل شيء.

بقي أن نرد شبهة طالما أشكلت على العلماء قديمًا وحديثًا:

قال القاضي ابن شهبة: «إنَّ الفخر الرازي لم يتم تفسيره كما قال ذلك ابن خلكان في وفيات الأعيان»[1].

---

(١) شذرات الذهب (٥/٢١)، وفيات الأعيان (٢/٢١).

وقد حكمَ ابن حجر أنَّ الذي أكملَ كتابه هو أحمد بن محمد المخزومي القمولي المتوفى سنة ٧٢٧ هـ [١].

ويرى صاحب «كشف الظنون» أنَّ الرازي قد فسر القرآن إلى سورة الأنبياء[٢].

أمَّا الذهبي فقد أشكلَ عليه هذا الأمر[٣] واضطربَ في أقواله. أمَّا الشيخ محمد بن عاشور فقد حسمَ وجزمَ ودلل على نسبة كتاب التفسير كاملًا إلى الإمام الفخر. ولستُ في صدد استقصاء ذلك فمن أرادَ الاستزادة فيرجع إلى كتاب التفسير ورجاله للمؤلف المذكور.

٣- أبو حيان:

هو محمد بن يوسف حيان الأندلسي الغرناطي ولد بغرناطة سنة ٦٥٤ هـ يكنى «أبو حيان» ويلقب في المشرق بأثير الدين[٤]. كانت له رحلات حصل خلالها العلوم المختلفة بعد أن تلقى أولويات علومه على شيوخ بلدِه، غادرَ الأندلس وتنقلَ في المغرب، ونزل مصرَ وأخذَ عن علمائها، وتقدَّمَ في النحو ومسائله، وسمعَ الحديث في الإسكندرية، وقرأ كتاب سيبويه.

أمَّا شيوخه الذين أخذَ عنهم في هذه المراكز العلمية المختلفة فيطول المقام بذكرهم، وقد ذكرهم المقري جميعهم نقلًا عن أبي حيان نفسه وغير واحد من العلماء وأصحاب الطبقات[٥].

مكانته العلمية:

لقد أجمعَ المؤرخونَ الذين ترجموا لأبي حيان على أنَّه كان نحوي

---

(١) الدرر الكامنة (١/ ٣٠٤).

(٢) كشف الظنون (٨/ ٦٨).

(٣) التفسير والمفسرون (١/ ٢٩٢).

(٤) ابن الخطيب، الإحاطة (٣/ ٤٣).

(٥) نفخ الطيب (٣/ ٣٠٦)، والداودي، طبقات المفسرين (٢/ ٢٨٦).

عصره ومفسره ولغويه، ومحدثه، ومقرئه، وأديبه.

قال الداودي نقلًا عن بعض تلاميذه: «لم أره إلّا سمعَ أو يشغل أو يكتب أو ينظر في كتاب، وكان عارفًا باللغة والنحو والتصريف، فهو الإمام المجتهد المطلق فيهما، خدمَ هذا الفن أكثر عمره حتى صارَ لا يدركه أحد في أقطار الأرض فيهما غيره».

منهجه في تفسير البحر المحيط:

يقع هذا التفسير في ثماني مجلدات ضخمة، وكان يسميه الكتاب الكبير، ألفه إحتسابًا لوجه اللّه تعالى كما صرَّح في مقدمته، ما لمخلوق بتأليفه قصدت، ولا غيرَ وجه اللّه به أردت[1].

وقد قدَّم أبو حيان لكتابه بمقدمة قيمة صرَّح فيها بأنَّ أهمَّ المعارف علم كتاب اللّه، وأنَّ غيره من العلوم أدوات له، ثم رسم لنا طريقته في تفسيره خطوة خطوة.

عنايته باللغة والنحو:

إنَّ الباحث في تفسير أبي حيان يلحظ طابع الاهتمام والعناية باللغة والنحو والصرف، ولا عجبَ في ذلك فإنَّ ثقافة أبي حيان اللغوية والنحوية الواسعة التي شهد له بها العلماء هي التي طغت على تفسيره وجعلته مميزًا بين كتب التفسير في طابعه اللغوي.

هذا بالإضافة إلى أنَّ «البحر المحيط» كان آخر تأليفه الذي عكفَ عليه بعد أن بلغَ أوج نضجه العقلي، وذروة استعداده الفكري عقبَ أن استقرَّ به الحال في مصر وحلت به عصا الترحال هناك وعين مدرسًا للنحو والتفسير في قبة السلطان الملك المنصور[2].

والشواهد على اهتمامه في النحو أكثر من أن تحصى وهاك مثالًا

---

(١) المقدمة: ١، ٢ .

(٢) مقدمة تفسيره: (١/ ٣).

واحدًا، قال في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾(١).

واختلف على نصب البعوضة على وجوه سبعة لا نطيل عليك بذكرها.

هذا ومما هو جديرٌ بالذكرِ أنَّ أبا حيان كان كثيرًا ما ينقل من الزمخشري وابن عطية بخاصة في المسائل النحوية، لكنه كان كثيرًا ما يتعقبهما وينقدهما، ولكثرة هذه التعقيبات قام تلميذه تاج الدين أحمد بن عبد القادر باختصار البحر المحيط في كتاب أسماه «الدر اللقيط من البحر المحيط» اقتصرَ في معظمه على ردوده على ابن عطية والزمخشري.

عنايته بالقراءات المتواترة والشاذة:

لقد ركز أبو حيان على علم القراءات باعتبارها أداة يحتاجها المفسر في تفسيره، وركيزة يقوم عليها تفسير كتاب الله عز وجل لإظهار معانيه العظيمة، وما يشتمل عليه من دقيق الألفاظ وتناسبها، لقد صرحَ بذلك في مقدمة تفسيره وهو يوضح ما يحتاجه المفسر إذا هو أقدمَ على هذه المهمة الخطيرة فقال:

«الوجه السابع: اختلاف الألفاظ بزيادة أو نقص أو تغيير حركة أو إتيان لفظ بدل لفظ، وذلكَ بتواتر وآحاد، ويؤخذُ هذا الوجه من علم القراءات»(٢).

لذلك، فإننا نجده إلى جانب اهتمامه بالعلوم اللغوية والنحوية يبدي اهتمامًا بالغًا للقراءات للاستفادة منها في تفسير القرآن الكريم. وفي مجال الاستفادة من القراءات المتواترة نجد أنّه اعتمدها وأشارَ إلى صحتها من غير أن يرجح بعضها على بعض، إذ أنّه يعتبرها في درجة واحدة لأنّها صدرت عن النبي ﷺ فلا وجه للترجيح بين كلامه ﷺ الذي نطق به في موضوع واحد.

---

(١) البقرة: ٢٦.

(٢) أبو حيان، البحر المحيط (١/٧)

قال أبو حيان: «وهذا الترجيح الذي يذكره بين القراءتين لا ينبغي، لأنَّ هذه القراءات كلها صحيحة ومروية وثابتة عن رسول الله ﷺ ولكل منها وجه ظاهر حسن في العربية فلا يمكن ترجيح قراءة على قراءة»[1].

أمَّا موقفه من الشاذ فإنَّه يتلخص في تضعيفها وردها والتنبيه عليها.

اهتمامه بالأحكام الفقهية:

هذا وإذا كانت اللغة والنحو قد غلبتا على تفسير أبي حيان، فإنَّ هذا لا يعني أنَّه أهمل الأحكام الفقهية والمسائل الشرعية.

لقد عرض أبو حيان للمسائل والأحكام الفقهية ولكن بقدر، فكان يذكر الأحكام الواردة في بعض الآيات دون ذكر أدلة الأحكام أو مناقشتها أو ردها أو ترجيحها، وإن كان ينوه بذلك أحيانًا، على أنَّه كان يحيل القارئ لينظر هذه الأدلة والحجج في كتب الفقه ومصنفاته[2].

موقفه من الإسرائيليات والرد على الفرق:

لقد أدركَ أبو حيان خطرَ هذه الروايات الإسرائيلية لأنَّها لا تقوم على سند صحيح، ولم يوافقها نص من الكتاب والسنة الصحيحة، فسلكَ في كتابه البحر المحيط مسلكًا عني فيه بالتنبيه على الكثير منها، والإشارة إلى ضعفها وفسادها، وحذر القارئ من الاغترار بها وتصديقها ودعا إلى تركها.

لقد صرحَ بذلكَ في مقدمة تفسيره حيث رسم منهجه في التفسير فقال: «إنَّ الحكايات التي لا تناسب والتواريخ الاسرائيلية لا ينبغي ذكرها في علم التفسير»[3].

إننا نجد أبا حيان يضرب صفحًا عن الاسرائيليات، مشيرًا إلى بطلانها وتفاهتها، وكان أحيانًا يذكرها بإيجاز ثم يتصدى لها بالرد مظهرًا زيفها

---

(١) أبو حيان (٢/ ٢٦٥)

(٢) أبو حيان، البحر المحيط (١/ ٤).

(٣) أبو حيان، البحر المحيط (١/ ٥).

مشيرًا إلى ما تقوم عليه من خرافات وأباطيل لا تتفق مع العقل السليم والنظر السديد فضلًا عن أنّها تتنافى مع العقيدة وعصمة الأنبياء ثم ينوه في آخر الأمر إلى أن سبب ذكرها هو التحذير منها وعدم الوقوع في شراكها، والأدلة كثيرة على هذا الموقف، ففي تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾[1].

ردَّ ما أثيرَ حول الملكين وما جرى بينهما وما إلى ذلك من القصص فقال: «وقد ذكرَ المفسرون قصصًا فيما يعرض من المحاروة بين الملكين وبين من جاء ليتعلم منهما، ومن تلك القصص، أنّهما يأمران أن يبول في تنور، فاختلفوا في الإيمان الذي يخرج منه حتى يغيب في السماء، أم نورًا خرج من رماد يسطح حتى يدخل السماء، أو طائرًا خرج من بين ثيابه وطار نحو السماء، وفسروا ذلك الخارج بأنّه الإيمان، وهذا كله شيء لا يصلح البتة فلذلك لخصنا منه شيئًا وإن كان لا يصح حتى لا نخلي كتابنا مما ذكر»[2].

المثال الثاني: وهو مما أضربَ عنه وأسقطه لأنّه يتنافي مع عصمة الأنبياء عند تفسيره قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾[3].

قال أبو حيان: «وذكر المفسرون في هذه القصة أشياء لا تتناسب مع مناصب الأنبياء فضربنا عن ذكرها صفحًا وتكلمنا على ألفاظ الآية»[4].

هذا ومع شدة حذر أبي حيان تجاه الإسرائيليات والاحتياط من مغبة الوقوع فيها إلّا أن تفسيره لم يخل منها وهذا يعني أنّه نقلها عن غيره من المفسرين أو غفل عن ردها أو تضعيفها[5].

---

(١) البقرة: ١٠٢ .
(٢) أبو حيان، البحر المحيط (١/ ١٣٣).
(٣) ص: ٢١ .
(٤) أبو حيان، البحر المحيط (٤/ ٥٧، ٧/ ٢٩١، ٨/ ٢٨٩).
(٥) أبو حيان، البحر المحيط (١/ ٢٠٧، ٥/ ٢٧٩).

ردّه على الفرق الإسلامية:

إنَّ أبا حيان يمثل الاتجاه السلفي ويثبت عقيدة أهل السنة والجماعة في نفي الشبه والمكان والجسمية والتمييز.

ففي قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾(١)، قال: «معتقد أهل الحق أن اللّه تعالى ليس بجسم ولا جارحة ولا يشبه بشيء من خلقه، ولا يكيف ولا يتحيز وتحلّه الحوادث وكل هذا مقرر في علم أصول الدين»(٢).

ومما ردَّ به على الفرق أيضًا وأثبتَ عقيدة أهل السنة والجماعة عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾(٣)

قال: «وأهلُ السنة يعتقدون أنَّ اللّه مريد بإرادة واحدة أزلية موجودة بذاته، والقدرية والمعتزلة والنجارية والجهمية وبعض الرافضة نفوا الصفات التي أثبتها أهل السنة»(٤).

رحم اللّه أبا حيان فقد دافعَ في كتابه عن الإسلام، وما رأيت مفسرًا أعظم منه في دفاعه عن القراءات القرآنية ولا أعظم منه في ردِّه على المفسرين من الفرق الأخرى، كالزمخشري وغيره جزاه اللّه خيرًا.

ثالثًا: التفسير الإشاري:

هو تأويل القرآن بغير معناه الظاهري الذي يدل عليه، كمثل تفسير كثير من الصوفية والوعاظ والفقهاء الذين يفسرونَ القرآن بمعان صحيحة في نفسها ولكن القرآن لا يدل عليها(٥).

---

(١) المائدة. ٦٤ .

(٢) أبو حيان. البحر المحيط (٣/ ٥٢٣)، وانظر أيضًا تفسيره للاستواء (٤/ ٣٠٧)

(٣) البقرة ٢٦

(٤) أبو حيان. البحر المحيط (١/ ١٢٤)، وانظر أيضًا الرد على المعتزلة والتشيع عليهم (١/ ٢٥٤. ٤/ ٣٨٢ - ٣٨٣)

(٥) الإتقان (٢/ ٢٢٨)

فهذا لا يحق أن يسمى تفسيرًا وهو خطأ في الدليل وإن كان المدلول صحيحًا.

قال الزركشي: كلام الصوفية في تفسير القرآن ليس بتفسير وإنما هو معان ومواجيد يجدونها عند التلاوة كقول بعضهم في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ أنَّ المراد النفس. يريدونَ أنَّ علَّة الأمر بقتال من يلينا هي القرب، وأقرب شيء إلى الإنسان نفسه[1].

واعلم أنَّ تفسير الألفاظ القرآنية بغير ظواهرها لا يخلو من حالين:

١- إذا كان العدول عن ظاهر اللفظ لمعان باطلة كالذي يدعيه أهل الباطل من باطنية وغيرها هو إلحاد، ولعله المراد من قول ابن الصلاح في فتاويه، إنَّه كفر لأنَّه خطأ في الدليل والمدلول معًا.

٢- وإذا كان العدول عن ظاهر اللفظ ولكن إلى معنى صحيح في ذاتِهِ فلا يصح تسميته تفسيرًا، لأنَّ التفسير هو إمعان النظر في مراد اللَّه من هذا اللفظ، وما لا يحمله اللفظ لا يّعد تفسيرًا بحال من الأحوال لأنَّه سلب للفظ القرآن لما دلَّ عليه وأريد به.

ولعلّ هذا مراد الذي وصف تفسير الرازي أنَّه ليس بتفسير لما رآه من أقوال للصوفية أحيانًا، ولعلماء أهل الكلام تارة أخرى.

كتب التفسير الإشاري:

نضرب صفحًا عن كتب التفسير الإشاري التي ادّعى أصحابها بأنَّها تفسير وهي كفر بواح كتفاسير الباطنية القديمة والحديثة على حد سواء، وهي تفاسير تتهجم على مراد اللَّه بغير علم.

أمَّا كتب التفسير الإشاري التي تنحو أحيانًا إلى تفسير إشاري لبعض الآيات وهم لا يرون التفسير الظاهر للفظ وإنما يضيفون إليه معاني أخرى، وقد تكونَ صحيحة في كثير من الأحيان أو خاطئة في أحيان

(١) انظر البرهان ومناهل العرفان (٢/ ٧٨).

أخرى، وهاك الكتب التي نعنيها ونذكر لك أشهرها:

١- تفسير النيسابوري:

وهو تفسير مختصر لتفسير الرازي الذي لا يخلو من تفاسير الصوفية ومواجيدهم، حمَّله كثيرًا من التفسير الإشاري، والنيسابوري يفسر الآية وفي ختام تفسيره لا ينسى أنَّ يذكر لك بصريح العبارة قول أهل الإشارة ثم يسوق المعنى الإشاري، فمثلًا عند تفسير قوله تعالى: ﴿إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة﴾ يقول: التأويل «ذبح البقرة إشارة إلى ذبح النفس البهيمية فإن في ذبحها حياة القلب الروحاني، وهو الجهاد الأكبر «موتوا قبل أن يموتوا» ثم يمضي في تفسير الآيات المتعلقة بوصف البقر[1].

٢- تفسير التستري:

هو تفسير محمد بن سهل بن عبد اللّه التستري المتوفى سنة ٣٨٣ هـ، ليس للتستري عمل كامل في التفسير ولكن أغلب تفسيره مواجيد صوفية وشطحات خيالية، اكتفى بما استهل به تفسيره فقد فسر البسملة تفسيرًا إشاريًا فقال: الباء في البسملة بهاء اللّه، والسين سناء اللّه عز وجل، والميم مجد اللّه عز وجل و(اللّه) هو الاسم الأعظم الذي حوى الأسماء كلها، وبين الألف واللام منه، حرف مكنى غيب إلى غيب، وسر من سر إلى سر، وحقيقة من حقيقة إلى حقيقة. ثم يمضي في تفسيره الغريب العجيب[2].

٣- تفسير الفتوحات المكية لابن عربي:

محي الدين بن عربي الصوفي المتوفى بدمشق سنة ٦٣٨ هـ، وهو غير ابن العربي الأندلسي صاحب أعظم تفسير في آيات الأحكام.

وقد افتتح عربي الصوفي المشهور بحديث نسبه للنبي ﷺ: «ما من

---

(١) انظر تفسيره في سورة البقرة.

(٢) طبع تفسيره بمصر في ٣١٢ صفحة.

القرآن آية إلاَّ ولها ظهر وبطن، ولكل حرف حد، ولكل حد مطلع».

ثم قال: «وفهمت منه أي من الحديث أنَّ الظهر هو التفسير، والبطن هو التأويل والحد ما يتناهى إليه المفهوم من معنى الكلام، والمطلع مايصعد إليه منه فيطلع على شهود الملك العلام».

وقد فسر ابن عربي: ﴿أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾[1]، بمثل تفسير التستري الذي سقناه لك قبل سطور.

كما فسر قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾[2] أي سخرنا لسليمان العقل العملي، والمتمكن على عرش النفس في الصدر، ريح الهوى «عاصفة» في هبوبها ﴿تجري بأمره﴾ مطيعة له ﴿إلى الأرض﴾ أرض البدن المتدرب بالطاعة والأدب. . . إلخ.

٤- الألوسي:

هو العلامة شهاب الدين محمد الألوسي البغدادي المتوفى سنة ١٢٧٠ هـ، وتفسيره روح المعاني ويقعَ في ثلاثينَ مجلدًا وهو من أوسع كتب التفسير، فيه التفسير بالمأثور والمعقول والإشاري ومن التفسير الإشاري في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾[3].

قال: ومن مقام الإشارة: وإذ قلتم يا موسى القلب، لن نؤمن الإيمان الحقيقي حتى نصل إلى مقام المشاهدة والعيان، فأخذتكم صاعقة الموت الذي هو الفناء في التجلي الذاتي، وأنتم تراقبونَ أو تشاهدونَ، ثم بعثناكم بالحياة الحقيقية، والبقاء بعد الفناء، . . . . إلخ.

نصيحة خالصة:

بيد أنَّ هذا التفسير كما ترى، جاء كله على هذا النمط دونَ أن يتعرض

(١) البقرة: ٦٧ .
(٢) سبأ: ١٢ .
(٣) البقرة: ٥٥ .

لبيان المعاني الوضعية للنصوص القرآنية. وهنا الخطر كل الخطر، فإنّه يخاف على مطالعه أن يفهم أن هذه المعاني الإشارية، هي مراد الخالق إلى خلقه في الهداية إلى تعاليم الإسلام، والإرشاد إلى حقائق هذا الدين الذي ارتضاه لهم.

ولعلك تلاحظ معي أنَّ بعض الناس قد فتنوا بالإقبال على تلك الإشارات والخواطر، فدخلَ في روعهم أنَّ الكتاب والسنَّة بل الإسلام كله ما هو إلَّا سوانح وواردات على هذا النحو من التأويلات والتوجيهات. وزعموا أنَّ الأمرَ ماهو إلَّا تخييلات، وأنَّ المطلوب منهم هو الشطح مع الخيال أينما شطح، فلم يتقيدوا بتكاليف الشريعة، ولم يحترموا قوانين اللغة العربية في فهم أبلغ النصوص العربية، كتاب اللّه وسنَّة رسول اللّه ﷺ.

والأدهى من ذلك أنَّهم يتخيّلون ويخيّلونَ إلى الناس، أنَّهم هم أهل الحقيقة الذينَ أدركوا الغاية، واتصلوا باللّه اتصالاً أسقطَ عنهم التكاليف، وسما بهم عن حضيض الأخذ بالأسباب، ما داموا في زعمهم معرب الأرباب. وهذا -لعمر اللّه- هو المصاب العظيم، الذي عمل له الباطنية وأضرابهم من أعداء الإسلام، كي يهدموا التشريع من أصوله، ويأتوا بنيانه من قواعده:

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾(١).

فواجب النصح لإخواننا المسلمين يقتضينا أن نحذِّرهم الوقوع في هذه الشباك، ونشير عليهم أن ينفضوا أيديهم من أمثال تلك التفاسير الإشارية الملتوية، ولا يعولوا على أشباهها مما ورد في كلام القوم بالكتب الصوفية. لأنَّها كلها أذواق ومواجيد، خارجة عن حدود الضبط والتقييد.

---

(١) التوبة: ٣٢ .

وكثيرًا ما يختلط فيها الخيال بالحقيقة والحق الباطل. وإذا تجردت من ذلك فقلما يظهر منها مراد القائل. وإذا ظهرَ فقد يكون من الكفرّيات الفاحشة، التي نستبعد صدورها من العلماء والمتصوفة بل من صادقي عامة المسلمين. والتي نرى الطعنَ فيها بالدس والوضع، أقرب وأسلم من الطعن فيمن عزيت إليه بالكفر والفسق.

فالأحرى بالفطن العاقل، أن ينأي بنفسه عن هذه المزالق، وأن يفرَّ بدينه من هذه الشبهات، وأمامه في الكتاب والسنة وشروحهما على قوانين الشريعة واللغة رياض وجنات: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾(١)

قال ﷺ : «فمن اتّقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه».

وقال ﷺ : «دَعْ مَا يُرِيبُكَ إلى ما لا يُريبك» وباللّه تعالّى توفيقي وتوفيقك.

نسأله تعالى أن يخرجنا من ظلّمات الأوهام، وأن يحققنا بحقائق الدين وتعاليم الإسلام، آمين(٢).

* * *

---

(١) البقرة: ٦١ .

(٢) مناهل العرفان ص٥٨٥ .

رابعًا: التفسير الفقهي لآيات الأحكام

لم يعرف هذا اللون من ألوان التفسير إلّا حين ساد التعصب المذهبي، فقد ألف أصحاب المذاهب تفاسير متخصصة بآيات الأحكام، وإليك أهمها:

أولاً: أحكام القرآن للجصاص (٣٠٥ - ٣٧٠ هـ):

هذا الكتاب من تفاسير الأحناف، وقد ألفه أبو بكر الرازي، والذي اشتهرَ بلقب الجصاص بل اشتهرَ تفسيره بأحكام الجصاص، وتفسيره مخطوط بمكتبة الأزهر، وقد طبع مرات كثيرة، ويقع في ثلاثة مجلدات.

منهجه في التفسير:

حصر تفسيره في آيات الأحكام وبوبها تبويبًا فقهيًا، وعرض للأحكام الفقهية المستنبطة من آيات الأحكام، وتعصب لمذهب الحنفية، ورمى المذاهب الأخرى بأقذر العبارات وخصَّ الشافعي بالتهام «فقد بان أن ما قاله الشافعي وما سلمه له السائل كلام فارغ لا معنى تحته»[1].

ثانيًا: أحكام القرآن لكيا الهراسي الشافعي (٥٤٠ - ٥٤٠ هـ):

هو عماد الدين أبو الحسن على بن محمد بن علي الطبري أصله من خراسان، خرج إلى بغداد ودرس فيها.

أمّا منهجه في التفسير فهو كمنهج الجصاص غير أنّه يتعصب للشافعية، وقد حمل على الجصاص، فسخر منه ورد عليه مقتصًا للإمام الشافعي.

وقد بقي تفسيره مخطوطًا في دار الكتب المصرية حتى طبع أخيرًا في المملكة العربية السعودية.

ثالثًا: أحكام القرآن، لابن العربي:

هو الإمام الحافظ الفقيه القاضي محمد بن عبد الله المعافري الأندلسي

---

(١) (١٤٣/٢) من كتابه أحكام القرآن للجصاص.

الأشبيلي -أبو بكر الشهير بابن العربي المالكي-.

ولد في أشبيلية سنة (٤٦٨ هـ) تلقى العلوم ببلده فنفعَ اللّه به لصرامته وشدة نفوذ أحكامه ورد المظالم إلى أهلها[١].

مكانته العلمية:

لقد جمعَ أبو بكر علومًا كثيرة أفادها من رحلاته وتنقلاته بين مراكز العلم وحواضره في المشرق والأندلس، فكانت له الصدارة في الفقه والأصول ومسائل الخلاف، واتسعَ في رواية الحديث، وتبحرٌ في التفسير إلى جانب براعته في اللغة والأدب -وقد شهد له بذلك العلماء-.

قال الحجازي: «لو لم ينسب إلى أشبيلية إلّا هذا العالم الجليل لكان لها به من الفخر ما يرجع عنه الطرف وهو كليل»[٢].

مؤلفاته:

صنف ابن العربي كتبًا كثيرة في التفسير والحديث والفقه والأصول وأهمها:

في التفسير:

١- «أنوار الفجر في تفسير القرآن»، وقيل أنّه ألفه في عشرين سنة ويقع في ثمانين ألف ورقة وقيل أن هذا التفسير يقع في ثمانين مجلدًا.

٢- أحكام القرآن وهو مطبوع متداول يقع في أربعة أجزاء.

٣- القانون في تفسير القرآن.

وله كتب كثيرة في الحديث والعقيدة والفقه والأصول واللغة والنحو والتاريخ وغير ذلك.

---

(١) انظر ابن فرحون، الديباج المذهب (٢/ ٢٥٢)، والداودي، طبقات المفسرين (٢/ ١٦٢)، والذهبي، تذكرة الحفاظ (٤/ ١٢٩٤)، والمقري، نفح الطيب (٢/ ٢٣).

(٢) ابن سعيد المغربي: في حلى المغرب (١/ ٢٥٤).

كتاب أحكام القرآن ومنهجه فيه:

كتابه أحكام القرآن يعد من مصادر التفسير الفقهي بخاصة عند المالكية وهذا الطابع الذي تميز به هذا الكتاب يدركه القارئ لأول وهلة فإنَّه لا تخلو صفحة من صفحاته من قضية شرعية أو مسألة فقهية.

أمَّا طريقته في التفسير فقد كان يعرض لكل سورة من سور القرآن الكريم ثم يقسمها إلى مسائل وغالب هذه المسائل فقهية وكان يقول: «سورة الفاتحة: فيها خمس آيات الأولى فيها مسألتان... الآية الرابعة والخامسة في سبع مسائل وهكذا حتى ينتهي من السورة.

ومن خلال هذا الأسلوب كان يعرض إلى المعنى التفصيلي والإجمالي أحيانًا فيتناول الوضع اللغوي للألفاظ والمفردات والمعنى البلاغي أحيانًا وعلوم القرآن مثل أسباب النزول والمكي والمدني والقراءات وغيرها. ثم الاستنباط الفقهي والدليل الأصولي وكثيرًا ما كان يعرض للفقه المقارن ومسائل الخلاف وغيرها من المصادر وأدوات الترجيح بخاصة المصادر المالكية التي تبدو واضحة بجانب معظم المسائل الفقهية الراجحة عنده(١).

ظاهرة التعصب للمالكية عند ابن العربي:

وتبدو هذه الظاهرة واضحة في كتابه أحكام القرآن وأمثلتها كثيرة لا يمكن الوقوف عليها في مواضع متعددة من كتابه ومن ذلك على سبيل المثال:

عند تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ﴾(٢).

يقول ابن العربي: «المسألة الثانية والأربعون في تحقيق معنى لم يتفطن

---

(١) ابن العربي، أحكام القرآن (١/ ٣٨١، ٥٣١).
(٢) المائدة: ٦ .

له أحد حاشى مالك بن أنس لعظيم إمامته وسعة درايته وثاقب فطنته»[١].

ولقد بلغت هذه الظاهرة عند ابن العربي ذروتها بحيث جعلته يرمي مخالفيه بالتهم ويغلظ عليهم بما لا يليق وجلالة قدرهم ومكانتهم في الشريعة، لقد أغلظ القول على أبي حنيفة ﷺ ووصفه بالضعفِ في الرأي والفقه والخلط بين السفه والرشد.

قال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾[٢].

قال: «المسألة الثامنة والعشرون: قوله: «ماء»، قال أبو حنيفة: هذا نفي نكرة وهو لغة فيكون مفيدًا جواز الوضوء بالماء المتغير وغير المتغير لانطلاق الاسم عليه. قلنا: استنوق الجمل: لأنَّه سيستدل أصحاب أبي حنيفة باللغات ويقولون على ألسنة العرب وهم ينبذونها في أكثر المسائل بالعراء»[٣].

وفي موضع آخر يقول: «من غَريب الأمرِ أنَّ أبا حنيفة، قال: الحجر على الحر ، واحتج بقوله (فتحرير رقبة) ولم يفرق بين السفيه والرشيد وهذا فقه ضعيف.

هذا لم يسلم منه الشافعي والطبري -رحمهما اللَّه-.

إنصافه لمخالفيه أحيانًا:

وإذا كانت ظاهرة التعصب لمذهب المالكية تبدو واضحة جلية على ابن العربي إلَّا أنَّه لم يغفل عن مخالفيه أحيانًا حيث ينصفهم ويقف بجانبهم إن كان الدليل يؤيدهم ويعزز آراءهم بل إنه لم يكن ليغفر زلة المالكية إن جانبوا الصواب ونأوا عنه.

ومن أمثلة الإنصاف عنده: قوله في مسألة طهارة فضل الوضوء

---

(١) أحكام القرآن (٢/ ٥٨٢).

(٢) النساء: ٤٣ .

(٣) المرجع السابق (١/ ٤٤٦).

والجنابة: «وهذا على أنَّ الماء الفاضل عند الوضوء والجنابة طاهر لا على طهارة الماء المستعمل كما توهم علماؤنا وهذا خطأ فاحش فتأملوه»[(١)]

موقفه من الإسرائيليات:

ويتلخص موقفه في رد معظم المرويات الإسرائيلية واعتبارها ساقطة لا أصل لها لأنَّها تقوم على دليل بل إنها تفتقر إلى الصحة فلا يعوَّل عليها لذا فإننا نجده يتعقبها ويرفضها ويقيم الدليل على بطلانها وتهافتها.

قال ابن العربي: «وفي الإسرائيليات كثير ليس لها ثبات ولا عليها يعول من له قلب»[(٢)].

رابعًا: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي:

هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرج القرطبي المالكي المذهب، لم تشر المصادر التاريخية إلى السنة التي ولد فيها، بينما تتفق على تاريخ وفاته التي كانت سنة ٦٧١ هـ.

وهو من العلماء العاملين، الزاهدين في الدنيا، المتصفينَ بالخلال الحميدة والصفات المجيدة.

مكانته العلمية:

قال ابن فرحون: «كان من عباد الله الصالحين والعلماء العارفين الزاهدين في الدنيا، المشغولين بما يعنيهم من أمور الآخرة، أوقاته معمورة ما بينَ توجه وعبادة»[(٣)].

مؤلفاته:

ذكرَ ابن فرحون المالكي مؤلفاته فقال:

١- «كتاب التفسير».

---

(١) (١٤١٩/٣) ينظر أيضا (١٨٣٨/٤).

(٢) ابن العربي أحكام القرآن ص٨٢٠ .

(٣) ابن فرحون، الديباج المذهب (٣٠٨/٢).

٢- «جامع أحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، وهو من أجل الفتاسير وأعظمها نفعًا».

٣- و«الكتاب الأسنى في أسماء اللّه الحسنى».

٤- «التذكرة بأمور الآخرة».

٥- «قمع الحرص بالزهد والقناعة وذلّ السؤال بالكتب والشفاعة»(١).

منهجه في التفسير:

لقد بين الإمام القرطبي -في مقدمة تفسيره- منهجه في التفسير فبين أولًا دوافعه لتفسير القرآن ثم طريقته ومنهجه ثم شروطه في التفسير. يقول في مقدمته: «فلمّا كان كتاب اللّه هو الكفيل بجمع علوم الشرع الذي استقل بالسنة والفرض، ونزل به أمين السماء إلى أمين الأرض، رأيتُ أن أشتغل به مدى عمري وأستفرغ فيه قوتي بأن أكتبَ تعليقًا وجيزًا يتضمن نكتًا من التفسير واللغات والقراءات والإعراب، والرد على أهل الزيغ والضلالات، وأحاديث كثيرة شاهدة لما نذكره من الأحكام ونزول الآيات، جامعًا بين معانيها، ومبينًا ما أشكلَ منها بأقاويل السلف ومن تبعهم من الخلف»(٢).

أمّا شروطه التي التزم بها في تفسيره فقال فيه: «وشرطي في هذا الكتاب إضافة الأقوال إلى قائليها والأحاديث إلى مصنفيها فإنّه يقال: من بركة العلم ان يضاف القول إلى قائله، وكثيرًا ما يجئ الحديث في كتب الفقه والتفسير مبهمًا، لا يعرف من أخرجه إلّا من اطلعَ على كتب الحديث، فيبقى من لا خبرة له بذلك حائرًا لا يعرفُ الصحيح من السقيم، ومعرفة ذلك علم جسيم. فلا يقبل منه الاحتجاج به ولا الاستدلال حتى يضيفه إلى من خرجه من الأئمة الأعلام، والثقات المشاهير من علماء الإسلام.

---

(١) الديباج (٢/٣٠٨).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١/٣).

ونحنُ نشيرُ إلى جمل من ذلك في هذا الكتاب، والله الموفق للصواب، وأضربُ عن كثير من قصص المفسرين، وأخبار المؤرخين، إلّا ما لابد منه، وما لا غنى عنه للتبين، واعتضتُ من ذلك تبيين أي الأحكام بمسائل تفسر عن معناها، وترشد الطالب إلى مقتضاها، فضمنت كل آية تتضمن حكمًا أو حكمين فما زاد من مسائل أبين فيها ما تحتوي عليه من أسباب النزول والتفسير والغريب والحكم، إن لم تتضمن كما ذكرت ما فيها من التفسير والتأويل. . . وهكذا إلى آخر الكتاب، وسميته بالجامع لأحكام القرآن، والمبين لما تضمنه من السنة وأحكام الفرقان». اهـ[1]

ويعقب ابن فرحون على منهجه هذا في التفسير فيقول: «وهو لا يتعصب لمذهبه المالكي بل يعيش مع الدليل حتى يصل إلى ما يرى أنّه الصواب أيًا كان قائله»[2].

أمّا موقفه من الإسرائيليات فقد كان يرفضها ولا يتعرض لها غير أنَّ كتابه لم يخل منها.

يتضخ مما تقدم أن منهج القرطبي يقوم على الأسس التالية:

١- التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي.

٢- اعتماده واحتكامه إلى اللغة.

٣- موقفه من القراءات الشاذة والمتواترة.

٤- الرد علي الفرق الأخرى.

٥- العناية التامة بالأحكام الفقهية.

٦- موقفه من الإسرائيليات.

٧- عدم تعصبه المذهبي ووقوفه مع الدليل.

---

(١) المرجع السابق (١/ ٣).

(٢) الديباج المذهب (٢/ ٥٢).

منهجه في التفسير الأخذ بالمأثور والرأي:

يرجع القرطبي في تفسيره بالمأثور ففي قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾[1].

فسر الحساب اليسير بأنه الذي لا مناقشة فيه ثم قال: «كذا روي عن النبي ﷺ من حديث عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: **«من حوسب يوم القيامة عذب»**. قالت: فقلتُ: يا رسول الله أليس قد قال الله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾[2].

فقال: **«ليس ذاك الحساب إنما ذلك العرض من نوقش الحساب يوم القيامة عذب»**. أخرجه البخاري ومسلم.

فإذا صح الحديث عن الرسول ﷺ أخذ به وإذا ما ورد التفسير عن الصحابة والتابعين حاول أن يجمع بينهما إن أمكن وإلّا رجّحَ أحد الأقوال بالدليل بل يردها إذا كانت متعارضة، مثال ذلك ما أورده القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾[3].

فقد نقل عن عمرَ وأبي هريرة إن الحقب ثمانونَ سنة، ونقل عن الحسن أنه سبعون ألف سنة ونقل أقوالًا كثيرة، ثم عقب في نهايتها بقوله: قلتُ: «هذه أقوال متعارضة، والتحديد في الآية للخلود يحتاج إلى توقيف يقطع العذر، وليس ذلك بثابت عن النبي ﷺ إنما المعنى ما ذكرنا أولًا، أي لابثينَ فيها أزمانًا ودهورًا كلمّا مضى زمن يعقبه زمن، ودهر يعقبه دهر، وهكذا أبدَ الأبدين من غير انقطاع، هذا منهجه في التفسير بالمأثور.

أمّا منهجه في التفسير بالرأي فقد أجازه بعد أن ناقش أدلة القائلين بالمنع.

موقفه من القراءات المتواترة والشاذة:

نحنُ نعلم أنَّ كل قراءة متواترة هي القرآن، ولكن المفسرين قد وقفوا

---

(١) الإنشقاق: ٧، ٨.

(٢) الإنشقاق: ٧، ٨.

(٣) النبأ ٢٣.

من القرءات القرآنية مواقف شتى، فمنهم من طعن في تلك القراءات المتواترة كالقرطبي والزمخشري، ومنهم من رجح قراءة على قراءة، ومنهم من سلكَ المسلك السليم فلم يطعن ولم يرجح بل ساوى بينهما.

ولقد سلك القرطبي مسلك المرجحين في القراءات كما في قراءة ﴿ملك يوم الدين﴾ و﴿مالك يوم الدين﴾ بعد أن ساقَ أدلة المرجحين لمالك على ملك أو العكس، قال القرطبي: «وقد احتج بعضهم على أنَّ مالكًا أبلغُ، لأنَّ فيه زيادة حرف فلقارئه عشر حسنات زيادة عمن قرأ «ملك» قلتُ: هذا نظرٌ إلى الصيغة لا إلى المعنى، وقد ثبتَ القراءة بملك، وفيه من المعنى ما ليس بمالك على علمنا والله أعلم»[1].

ونحنُ نرى أنَّ ترجيح القرطبي ليس سليمًا، فقد أفتى العلماء بأنَّ السلامة عند أهل الدين إذا صحت القراءتان أن لا يقال: إحداهما أجود، لأنَّهما جميعًا عن النبي ﷺ فيأثم من قال ذلك، وهناك فتاوى أخرى ترى أنَّ السلامة في الفتوى المذكورة والله أعلم.

ومهما يكن فإنَّ موقف الترجيح يبقى أهونَ من الطعن أو الانتقاص من القراءة الأخرى، فهو لا يسقط أي قراءة ويسلم في النهاية أنَّ القراءتين المتواترة لأنَّها مخالفة للغة في زعمهم كما في قراءة قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾[2] بالفتح والكسر.

فقال إنَّ صنيعهم هذا مردود عن أئمة الدين لأنَّه إذا ثبتَ شيء عن النبي ﷺ فمن ردَّ على النبي واستقبح ما قرأ به، وهذا مقام محظور.

أمَّا موقفه من القراءات الشاذة فإنَّه يوردها ويبين وجهها اللغوي والتفسيري والفقهي كما في قراءة ابن مسعود لقوله تعالى: ﴿فصيام ثلاثة أيام متتابعات﴾.

---

(١) تفسير القرطبي (١/ ١٤٠) وما بعدها.

(٢) النساء: ١

والقرطبي يرفض الاستدلال بذلك ويرى أنها ضرب من ضروب التفسير.

احتكامه إلى اللغة والنحو:

يشترط القرطبي على المفسر معرفة اللغة ويستدلُّ على ذلك بالحديث الشريف «**أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه**»(١).

ومنها ما روي عن ابن مسعود أنَّه قال: «جودوا القرآن وزينوه بأحسن الأصوات وأعربوه فإنَّه عربي»(٢).

والمقصود هنا إعراب القرآن في تفسير ألفاظه وتوضيح معانيه وبيان غريبه.

اهتمامه بالأحكام الفقهية والأصول:

لا نجد تفسيرًا شاملًا للقرآن كله يخص تفسير آيات الأحكام بالاهتمام والعناية مثل تفسير القرطبي الذي جعل من آيات الأحكام عنوانًا لكتابه «الجامع لأحكام القرآن» بل لا عجَبَ أن رأينا كتابه شاملًا لجميع التفاسير التي أفردت الأحكام الفقهية بالتفسير والاهتمام دون بقية الآيات، فلقد جاء القرطبي متأخرًا عنهم فجمعَ كتبهم على اختلاف مذاهبهم الفقهية وإن كان يقتصر أحيانًا على آراء الإمام مالك.

ويمكنُ تلخيص موقف القرطبي ومسلكه في بيانه للأحكام الفقهية على النحو التالي:

١- عرض لمسائل الأحكام الفقهية على مذهب الإمام مالك وهو مذهبه دون رد أو تعقيب في غالب الأحيان، عله يشير إلى رضاه وقبوله عن ذلك.

٢- عرضه لآراء المذاهب الفقهية، الأحناف والمالكية والشافعية

---

(١) مجمع الزوائد (٧/ ١٦٣).
(٢) انظر الإتقان (١/ ١٤١).

والحنابلة وغيرها ثم يورد أدلة كل فريق ويناقشها ثم يرجح الدليل الأقوى. وهو ما يسمى بالفقه المقارن.

ظاهرة التعصب المذهبي:

تنعدمُ هذه الظاهرة عند القرطبي، فقد كان يرجح من المذاهب ما يجدُ الصوابَ والحق بجانبه وإن كان مخالفًا لمذهبه، بل كان يخرج على مذهبه معارضًا له، منصفًا لغيره، متوخيًا الدقة في النقل والتحرير، والأمثلة كثيرة نختار منها المثال التالي في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ﴾[1].

يرجح القرطبي ما ذهب إليه الشافعي وهو ركنية السعي بين الصفا والمروة... فبعد أن استعرضَ أقوال الأئمة المجتهدين وأدلتهم في المسألة قال: «والصحيح ما ذهبَ إليه الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى، لما ذكرنا وقوله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «خذوا عني مناسككم» فصارَ بيانًا لمجملِ الحج، فالواجبُ أن يكونَ فرضًا، كبيانه لعدد الركعات»[2].

هذا وقد خرج القرطبي عن مذهب الإمام مالك في بعض القضايا وقال: «والقولُ بالخروج إن شاء الله أصح للسنة الثابتة في ذلك»[3].

رحم الله القرطبي وأحسنَ مثوبته في دفاعه عن الإسلام، والذود عنه وصلى الله وسلَّم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

* * *

---

(١) البقرة: ١٥٨ .

(٢) انظر الصفدي الوافي بالوفيات (٢/ ١٢٢).

(٣) ابن فرحون، الديباج المذهب (٢/٣٠٨).

الفصل السابع
النسخ

المبحث الأول: تعريف النسخ.
المبحث الثاني: أنواع النسخ.

الفصل السابع

النسخ

تمهيد:

كان الصحابة والتابعون يطلقونَ على التخصيص والتقييد نسخًا، إذ التخصيص عندهم ناسخ للعموم والتقييد ناسخ للإطلاق، ثم جاء الإمام الشافعي فحرر لنا بعض الفروق بين هذه المصطلحات، ولم يفت مؤلفي علوم القرآن أن يعقدوا لهذه المصطلحات بابًا لبيان مدى الفرق بينها، ونحنُ نحذو حذوهم في عقد هذا الفصل.

هذا الموضوع الذي قال فيه السيوطي أفرده بالتصنيف خلائق لا يحصون، وهو موضوع يعوزه الكثير من التمحيص والتدقيق، وهو مثار الخلاف بين المتقدمين والمتأخرين، بل المتأخرين أشد خلافًا واختلافًا، فمن قائل بنفيه شرعًا، وبنفيه عقلًا، وبنفيه شرعًا وعقلًا، حتى أهل الديانات دخلوا في هذه المتاهات، بل هم مجمعون لغاية مهمة عندهم ألَا وهي عدم نسخ شريعة محمد ﷺ لشرائعهم، وفي القرن العشرين حمل الإمام محمد عبده لواء المفكرين للنسخ متأثرًا بالمعتزلي الأصفهاني، ثم تلاه أحمد حسن الباقوري، ومحمد الغزالي[1]، وغيرهم، وقد تصدى مصطفى زيد في رسالة لا نظير لها «النسخ في القرآن الكريم»[2] وتكلم بما لا مزيد عليه، ونحنُ لا نريد أن نتحدث عن النسخ عن إثباته وإنكاره، بل نكتفي بالتنبيه إلى أقوال أهل السلف الأقدمين أنَّه قد يعنون بالتخصيص والتقييد نسخًا، وقد تبعهم الأحناف

---

(١) نظرات في القرآن الكريم لمحمد الغزالي ص٢٣٥ - ٢٥٧ .

(٢) النسخ في القرآن الكريم. دراسة تشريعية تاريخية نقدية، دار الوفاء. القاهرة. الطبعة الثالثة ١٤٠٨ هـ.

حين أطلقوا على التخصيص المستقل «نسخًا»، ولعل هذا يدفعنا لتوضيح معنى التخصيص، ثم الفارق بينه وبين النسخ.

* * *

المبحث الأول

تعريف النسخ

معنى النسخ لغة: للنسخ في اللغة ثلاثة معان:

أولًا: بمعنى الإزالة: ومن ذلك قولهم: نسختُ الشمس الظلّ، إذا أزالته أي أذهبت الظِلّ وحلّت مَحَلَّه، ونسخ الشَيْبُ الشَبَابَ إذا أزالَ سواد الشعرَ وحل محله بياضه، فهنا الإزالة بعوض أو ببدل، وقد تكون الإزالة من غير عوض كقولهم: نسختُ الريح الأثر، أي أزالته ولم تحل مكانه، بل ذهبت هي أيضًا فلم يبقَ ريح ولا أثرَ، وبمعنى الإزالة ورد قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾(١).

ثانيًا: النسخ بمعنى النقل: أي نقل الشيء من موضع إلى موضع ومن ذلك قولهم: نسختُ الكتاب: أَي نقلتُ ما فيه، ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(٢).

ثالثًا: النسخ بمعنى البدل: ذكره ابن منظور في لسان العرب فقال إنَّ النسخ تبديل الشيء من الشيء وهو غيره، والنسخ أيضًا نقل الشيء من مكان إلى مكان وهو هو، فهو يفرّق بين التبديل والنقل في نقل الشيء عينه من مكان إلى آخر دون تغيير.

وقد اختلفَ علماء اللغة في المعنى الحقيقي والمجازي للنسخ، فقال بعضهم إنَّ الإزالة هي المعنى الحقيقي والمعاني الأخرى مجازية ومنهم من عكس، والخلاف يطول استقصاؤه ولا يترتب عليه أثر يذكر.

معنى النسخ شرعًا:

اختلف مؤلفو علوم القرآن والأصول في تعريف النسخ، فمن قائل بأنَّ

---

(١) البقرة: ١٠٦ .

(٢) الجاثية: ٢٩ .

النسخ «هو إبطال الحكم المستفاد من نص سابق بنص لاحق».

ومن قائل: «إنَّه خطاب الشارع المانع من استمرار ما ثبتَ من حكم شرعي سابق».

ومن قائل: «هو رفع الحكم الشرعي لخطاب شرعي».

وأقوال أخرى لا تخلو من مقال ونقد، وأولى الأقوال وأقربها للصواب أنّ النسخ: «هو رَفْعُ الحكم الشَّرعي بدليلٍ شرعي متأخرْ».

ما يستفاد من هذا التعريف:

١- أن يكون الحكم المنسوخ شرعيًا فلا ينطبقُ ذلك في رفع الأحكام المبتناة علي البراءة الأصلية أو العادات والأعراف الجاهلية أو الأحكام العقلية، هذا ما يفيده رفع الحكم الشرعي.

٢- أن يكون الناسخ شرعيًا كذلك، فالشرعُ لا ينسخ إلَّا بالشرع فلا يصح أن يكونَ العقل ناسخًا لجكم الشرع كما هو الحال الآن في آفة المفتونين الذي ينسخون الأحكام الشرعية وفقًا لمقتضيات العقل مؤولين ذلك بالمصالح والمنافع.

٣- أن يكون الناسخ متراخيًا عن المنسوخ فإذا كان الخطاب المرفوع حكمه مقيدًا بوقت معين كقوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْۖ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَٰجِدِۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾(١) فإنَّ الحكمَ ينتهي بانتهاء وقته فلا يقال لهذه الغاية الدالة على انتهاء الحكم إنَّها نسخ،

---

(١) البقرة ١٨٧

وذلك لاتصالها بدليل الحكم الأول وهكذا يقال في كل حكم مؤجل بأجل، إذ لا يعني انتهاء أجله أنّه نسخ.

دليل مشروعية النسخ:

جاءت الأدلة الشرعية من الكتاب والسنّة وإجماع الصحابة بينة واضحة تدل على جواز النسخ ووقوعه.

١- أمّا الكتاب قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[١] وقد فسرها جمهور المفسرين واستدل بها جمهور الأصوليين وهي من أقوى الأدلة على جواز النسخ.

يقولُ إمام المفسرين ابن جرير الطبري: «﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾ أي ما نُبَدِّل من حكم آية فنغيره، وذلك بأن يُحَوَّلَ الحلال حرامًا والحرام حلالًا، والمباح محظورًا، والمحظور مباحًا ولا يكون ذلك إلَّا في الأمر والنهي، والحصرُ والإطلاق، والمنع والإباحة... فأمّا الأخبار فلا يكون فيها ناسخ ولا منسوخ. أمّا قوله: ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾ فمعناه نتركها فلا نبدّلهُ. وأمّا قوله: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ فمعناه: نأت بحكم خير لكم من حكم الآية التي نسخناها، ولا شك أن الخيرية تتحقق بالنسبة للناس في الدنيا إذا كان الحكمُ الجديد أو الناسخ أخف من الحكم المنسوخ، وتتحقق أيضًا إذا كان فضلًا بالنسبة للآخر حيث إنَّ الثواب أجزل».

والدليل الثاني قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٢].

قال الزمخشري: «تبديل الآية مكان الآية هو النسخ، والله تعالى ينسخ الشرائع بالشرائع لأنّها مصالح، والله تعالى عالم بالمصالح والمفاسد، فيثبتُ ما يشاء وينسخُ ما يشاء بحكمته، وهذا معني قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾.

---

(١) البقرة: ١٠٦.

(٢) النحل: ١٠١.

٢- أمَّا السنة: فقد دلَّ قوله ﷺ على جواز النسخ فقد صحَّ الحديث: «**كنتُ نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها**»[١]. وليس معنى الحديث إلَّا القول بجواز زيارتها بعد النهي عن ذلك، والنسخ لا يعني أكثر من ذلك، أن يُحَوَّلَ الحرامُ حلالًا، والمحظورُ مباحًا على حد قول ابن جرير الطبري.

٣- أمَّا إجماع الصحابة: فقد انعقدَ على أنَّ شريعة محمد ﷺ ناسخة لجميع الشرائع السابقة، وانعقدَ إجماعهم على نسخ وجوب الوصية للوالدين والأقربين بآية المواريث، فإجماعهم على ذلك دليل شرعي على النسخ.

٤- وأمَّا الدليل العقلي: فإنَّ وقوع النسخ بالفعل وهو أدلُّ دليل على وجوده وعلى جوازه. وعلى الرغمِ من تضافر الأدلة على النسخ ووقوعه. فإننا نجد أنَّ طائفة من المنتمين للإسلام قد أنكروا النسخ كما أنكرته فرقة الشمعونية والعنانية من اليهود وأيدتهم النصارى.

يقولُ ابن كثير: «والذي يحملُ على البحثِ في مسألة النسخ إنما هو الكفرُ والعناد، فإنَّه ليس في العقل ما يدلُّ على امتناع النسخ في أحكام اللّه، لأنَّه يحكم ما يشاء كما أنَّه يفعلُ ما يريد، مع أنَّه وقع ذلك في كتبه المتقدمة، وشرائعه الماضية، كما أحل لآدمَ تزويج بناته من بنيه، ثم حرم ذلك، وكما أباح لنوح بعد خروجه من السفينة أكل جميع الحيوانات، ثم نسخ حِلَّ بعضها، وكان نكاحُ الأختين مباحًا لإسرائيل وبنيه، وقد حرَّم ذلك في شريعة التوراة وما بعدها، وأُمِرَ بنو إسرائيلَ بقتل من عبد العجل منهَم، ثم رفع عنهم القتل كيلا يستأصلهم وبقوا أحياء يذيقونَ البشرية ألوانًا من أحقادهم وللّه في ذلك حكمة وأشياء كثيرة يطول ذكرها وهم

---

(١) سنن ابن ماجه (١/ ٥٠١) ح١٥٧١ .

يعترفونَ بذلكَ ويصدفون عنه»[1].

المنكرون للنسخ:

أنكرَ أهل الكتاب اليهود والنصارى وقوع النسخ وجوازه، وزعموا أنَّ النسخَ يستلزم البداء، ومعنى البداء لغة الظهور بعد الخفاء، قالوا: لو جاز النسخُ على اللّه تعالى لكان إمّا لحكمة ظهرت له بعد أن لم تكن ظاهرة، أو لغير حكمة، وكلا الأمرين باطل، لأنَّ الأول بداء، والثاني عبث، والبداء والعبث لا يجوزان على اللّه تعالى، إذ كل منهما نقص يتنزه اللّه أن يوصفَ به[2].

ويجابُ على هذا الزعم بهذا التساؤل، لماذا لا يكون النسخ لحكمة معلومة للّه ولم تكن خافية عليه؟ أليس هذا هو القول السديد؟ بلى... ولكن: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾[3].

والعجبُ أنّ الرافضة -المرتدة عن الإسلام- قد تجوزت اليهود في كفرهم وصدهم عن الإسلام، فاليهود ينكرونَ النسخ لأنّه يستلزم البداء، أمّا الرافضة فيثبتونَ النسخ المستلزم للبداء فوصفوا اللّه -تنزه عن ذلك- بالبداء ونسبوا ذلك إلى أئمة آل البيت زورًا وبهتانًا. وقالوا: «البداء ديننا ودين آبائنا».

وأعجبُ بعد ذلك من قول أبي مسلم الأصفهاني من متأخري المعتزلة الذي قال بجواز النسخ عقلًا ومنع وقوعه شرعًا واستدلَّ بقوله تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[4].

وقد حذا حذوه الإمام محمد عبده ومن شايعه من المتأخرين.

هؤلاء جميعًا لم يحالفهم الصواب وليس لهم دليل إلّا التحكم العقلي.

---

(١) تفسير ابن كثير (١/١٥١).

(٢) النسخ في القرآن (٢/٢٩).

(٣) الكهف: ٥ .

(٤) فصلت: ٤٢ .

والحقيقة أننا بحاجة إلى وقفة هادئة متأملة في موضوع نسخ بعض الأحكام في شريعة رسولنا خاتم النبيين محمد ﷺ في فترة نزول القرآن السابقة، خصوصًا ونحن ما نزال نتلو هذه الآيات المنسوخة. . . إلى جانب أننا مطالبونَ بعد عصر التنزيل بالأحكام النهائية التي آلت إليها الشريعة وثبتَ عليها بانتهاء الوحي ووفاة النبي ﷺ، فوق ما هو مقرر ومعلوم بالبداهة عند جميع المسلمين من امتناع وقوع النسخ بعد انقطاع الوحي.

لقد تم النسخ، كما هو معلوم في ظل مبدأ تنجيم القرآن الكريم أي: نزوله مفرقًا على نجوم ودفعات ومراحل مختلفة بلغت في مجموعها نحوًا من ثلاث وعشرين سنة كما أشرنا إلى ذلك، كان لهذا التنجيم فوائده الكثيرة المعروفة ولكن الفائدة الرئيسية أو الغرض الأساسي من هذا التنجيم تكمن في أنّه كان هو الوسيلة الربانية لإعداد الفرد المسلم والأمة المسلمة بوصف هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس لأول مرة في التاريخ من خلال نصوص الكتاب. . . فإذا كان القرآن الكريم هو الذي صنعها وأخرجها للناس خير أمة فقد تنزلت آياته الكريمة على مراحل وأوقات وفي مناسبات لأحكام بناء هذه الأمة الخيرة، أو الأمة الوسط لبنة لبنة، وآية آية، وموقفًا في إثر موقف على اختلاف الظروف والأحوال، ويختص الجيل القرآني الأول -أو جيل التنزيل إن صح التعبير- فوق ذلك بأنّه الجيل الوحيد أو الجيل الأول في تاريخ هذه الأمة الخيرة الذي عبر به القرآن من أوضاع الجاهلية إلى أحكام الإسلام، وانتقلَ به من جميع ملابسات الشرك إلى آفاق التوحيد. حتى حقق به القرآن الكريم ذلك «الجيل النموذج» أو «الجيل المثال» الذي يُحتذَى به إلى يوم الدين.

هذا الجيل القرآني الفريد الذي ليس له نظير في تاريخ الإسلام وفي تاريخ بني الإنسان كان النسخُ بالنسبة إليه واحدًا من أعمق وأهم وسائل التربية والإعداد في بناء شخصياته على الصعيد الفردي، وفي مواجهته

على الصعيد الجماعي كأمة ومجتمع مع الجاهلية العربية وسائر الجاهليات الأخرى في الأمم والشعوب، بل قد يمكننا القول: إنَّ النسخ كان ضرورة لابد منها لنقل أبناء عصر التنزيل من الجاهلية إلى الإسلام بدليل أنَّه جاء مرة نسخًا مباشرًا وجاء مرة أخرى على مراحل... ولكن الذي يهمنا تأكيده هنا هو أنَّ النسخ الذي عمل عمله في إعداد ذلك الجيل الفريد... لا معنى لاستمراره.. بل لا يمكن له من أي وجه أن يوجد بعد ذلك العصر، ونحنُ نتربى الآن بالاقتداء والتأسي بذلك الجيل... لا بالنسخ الذي ساهم في صنعه هو... فالتربية بالنسخ إن صح الشعار أو التعبير بالنسبة لجيل التنزيل، يقابله بالنسبة لسائر الأجيال الأخرى بعده: التربية بالقدوة أو الاحتذاء بذلك الجيل الذي تمثلت فيه حجة اللّه على عباده إلى يوم الدين.

وقد نجح جيل الصحابة ﷺ في تقديم أرفع النماذج الإنسانية في كل مجال... أمّا رسول اللّه ﷺ الذي قدمت لنا سيرته الشريفة أهم وسائل ذلك الإعداد التاريخي، وألقت ضوءًا على فهم مراحله، فقد تجمع في شخصه الكريم كل تلك الصفات والمجاملات الرفيعة، وبلغ في كل واحد منها شأوا لم يبلغه أحد ممن فرغ له نفسه، سواء أكان من الصحابة أم من غيرهم، فكان بذلك رسول الإنسانية الكامل وملاذها الأخير ﷺ.

كان تشريع النسخ جزءًا من ذلك الإعداد التاريخي المرحلي أو وسيلة من وسائله البارزة.. وبعدَ أن تم هذا الإعداد الذي قدم لنا النموذج أو المثال الأخير كما قلنا، أصبحت الأمة الإسلامية مطالبة بالأحكام الأخيرة في البناء والإعداد، وأصبح النسخُ «واقعة تاريخية» لا يمكنُ ولا يعقل تكرارها مرة أخرى بعد قيام الجيل الأول، وبعد أن تمت عملية الانتقال من الجاهلية إلى الإسلام بصورة تطبيقية أعطت أروعَ الأمثلة وأعمقها على «أنَّ أحكام الإسلام ليست رؤيا مثالية في عالم الخيال... ولكنها حقيقة

حية في دنيا الواقع...

وبذلك البعد الهائل الذي ليس له نظير حتى كان مثلًا يحتذى، نقول أصبح النسخُ واقعة تاريخية لا يعقل تكرارها، كما لم تعد هناك ضرورة لتكرار الجزئيات المرحلية في تربية الشخصية المسلمة والأمة المسلمة.

طريق معرفته:

لا يصح القول في النسخ جزافًا، فلا يعتمد في النسخ على قول المفسرين، ولا اجتهاد المجتهدين، من غير نقل صريح ولا معارضة بينة، لأنَّ النسخ يتضمن رفع حكم، وإثبات حكم تقرر في عهده ﷺ، والمعتمد فيه النقل والتاريخ دون الرأي والاجتهاد كما قال ابن الحصار.

هذا ما أوقعَ الكثير من العلماء في الخطأ فبمجرد ظهور شبهة التعارض يلجئونَ إلى القول بالنسخ في حين أنَّ الجمع بينهما ممكن، ولا شك أنَّ الجمعَ هو الأولى من إهمال أحدهما... بل الجمع بينهما ولو من وجه من الوجوه أولى من إهمالها من كل الوجوه وادعاء النسخ فيهما، لأنَّ النسخ على خلاف الأصل... وما كان خلاف الأصل لابد من بينة عليه وإلَّا لم تقم به حجة، وهذه الحجة: إمَّا أن ينص اللاحق على أنَّه ناسخ للسابق لفظًا أو دلالة، كما سيأتي ذكره في آيات المناجاة، أو آيات الزنا، أو ما وردَ في الحديث الشريف: «كنتُ نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها».

وإمَّا أن يكونَ بين النصين تعارض بحيث لا يمكن التوفيق بينهما، فينظرُ في النصين المتعارضين، فإن كان أحدهما معلومًا وقطعيًا والآخر مظنونًا فالعملُ بالمقطوع واجب.

وإن كانا معلومينِ مقطوعًا بهما، أو ظنيين في درجة واحدة من القوة ينظر إلى القرائن، كأن يكون أحدهما متأخرًا عن الآخر فيكون المتأخر ناسخًا والمتقدم منسوخًا.

وقد يعرف التاريخ (مثلًا) من إسناد الراوي كأن يقول هذا الحديث في غزوة كذا أو سنة كذا أو يقول نزلت هذه الآية في مكة والأخرى في المدينة أو نحو ذلك.

أمَّا إذا جهل التاريخ فلا نسخ، وأحدهما ليس بأولى من الآخر بالنسخ، وكل من ادَّعى غير ذلك فقوله مردود لعدمِ معرفته التاريخ.

أقول: لم أطلع على دليلين قطعيين: «أعني قطعي الثبوت وقطعي الدلالة» قد تعارضًا من كل الوجوه.

أمَّا في الأدلة الظنية التي وقع فيه التعارض، فالقرائن لا تحصى في إعمالها فنلجأ إليها وإن تعذرت فالقرائن كثيرة كذلك في تقديم أحد الدليلين ونسخ أحدهما.

المبحث الثاني

أنواع النسخ

جرت عادة علماء التفسير والأصول أن يذكروا للنسخ أنواعًا ثلاثة - نسخ الحكم دون التلاوة- ونسخ التلاوة دون الحكم- ونسخ الحكم والتلاوة معًا- وقد يكون ولعهم بالتقسيم والتبويب هو الذي شجعهم على اعتماد مثل هذه الأقوال وذكرها في بطون الكتب. على ما فيها من مخالفة واضحة ونبو صريح عن نظم القرآن وأناقة أسلوبه المعجز، ومخالفات أخرى لا مجال هنا للإشارة إليها(١).

وهاك الأنواع الثلاثة:

١- منسوخ الحكم دون التلاوة:

هذا النوع الوحيد الجدير بالقبول لذا فقد اتفقَ جميع العلماء على وقوعه وجوازه، ولم يشذ عن إجماعهم إلّا من ذكرنا سابقًا، ولكن الذينَ اتفقوا على وقوعه وجوازه قد اختلفوا في عدد الآيات المنسوخة فمنهم المكثر، ومنهم المتقصد، ومنهم المقل، ونحنُ نرفض قول المفرطين في كثرة دعاوي النسخ التي تجاوزت المئات، وهي أقوال لا يدل عليها فطرة من عقلٍ ولا نقل، ولقد حصرَ الإمام السيوطي قضايا النسخ في عشرين موضعًا واختصرها المرحوم مصطفى زيد بما لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة وهاك من الأمثلة المتفق عليها(٢).

كان قيامُ الليلِ -قبل فرض الصلوات- فرضًا على رسول اللّه ﷺ وعلى أمته لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾(٣).

---

(١) علوم القرآن ص٢٠٤ .

(٢) انظر التشريع الإسلامي فقد ذكرَ أنَّ في حصر السيوطي نظرًا، وانظر كتاب النسخ في القرآن الكريم، ومباحث في علوم القرآن للقصبي زلط

(٣) المزمل ١ - ٤

فمكث يجتهد بقراءة القرآن حتى نزول قوله تعالى في آخر السورة:

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾(١).

وبهذا صارَ التهجد تطوعًا من الرسول بعد أن كان واجبًا عليه وفي هذا تقول عائشة فيما رواه مسلم عنها: «فإنَّ اللّه عز وجلّ افترض قيام الليل في أول السورة تقصد سورة المزمل فقام النبي ﷺ وأصحابه حولًا وأمسكَ اللّه خاتمتها اثني عشرَ شهرًا في السماء حتى أنزلَ اللّه في آخر هذه السورة التخفيف فصار قيام الليل تطوعًا بعد فريضة»(٢).

ومثال آخر من منسوخ الحكمِ دون التلاوة:

ما ذكره المفسرون في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٣).

فقد نسخ بقوله تعالى: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾(٤).

ومثاله أيضًا قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ

---

(١) المزمل: ٢٠ .

(٢) صحيح مسلم. كتاب صلاة المسافرين وقصرها. باب جامع صلاة الليل (١/ ٥١٢) مختصرًا.

(٣) المجادلة: ١٢ .

(٤) المجادلة: ١٣ .

سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾[1].

فهذه الآية قد حرمت شرب الخمر في أوقات الصلاة، ثم نزل تحريم الخمر قاطعًا فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[2].

هذا النوع -منسوخ الحكم دون التلاوة- هو المتفق عليه، ووجوده في القراءة شاهد عيان، فآياته ما زالت تتلى في كل وقت وكل حين.

وفي وجود الآيات وانتفاء التكليف بها فائدة عظيمة وهذا من تمام الحكمة الربانية أن تبقى الآيات القرآنية التي نسخ حكمها تقرأ بألفاظها إلى يوم الدين، لترى فيها سائرَ أجيال هذه الأمة كيف تم إعداد جيلها المثالي الأول، وما هي الأحكام المرحلية التي احتاجت إليها الجماعة الإسلامية النموذج في أطوار نشأتها وتدرجها، وكيف تم قطع علائقها بالجاهلية، وربطت بأسباب الحياة الإسلامية والدين الجديد الأخير الخالد، وربما أمكننا هنا إيراد كلمة سيدنا عمر ﷺ عندما قال: «إنّه يخشى أن ينتقض عرى الإسلام عروة عروة من لم يعرف الجاهلية وأحكامها».

وليس من شك في أنّ استعراض هذه الآيات الكريمة التي نسخ حكمها يقفنا على طريقة القرآن الكريم في تربية هذه الأمة -بوجه عام- تربية عملية واقعية متحركة لا تقف عند بعض الوسائل لا تتخطاها..، أو بعبارة أخرى: نحنُ نأخذ الآن فلسفة هذا الموقف من خلال الحكمة العملية التربوية فيما وراء الحكم المنسوخ لنفيد منه في مخاطبة الناس، وفي محاولة التغيير... وفي الوقوف على الكثير الكثير من سنن الله عز وجل في النفس والمجتمع، وفي وسائل الدعوة وطريق الإصلاح، وتقف الآيات المنسوخة في هذا الباب هدى ومعالم بارزة... كأعمق ما يكون

---

(١) النساء: ٤٣.

(٢) المائدة: ٩٠.

الهدى، وأوضح ما تكون المعالم(١).

٢- منسوخ التلاوة دون الحكم:

استدل القائلونَ بجواز نسخ التلاوة مع بقاء الحكم بما روي عن عمر بن الخطاب أنّه قال: «كان فيما أنزل آية الرجم يعني: «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبتة» قرأناها ووعيناها وعقلناها فرجم رسول الله ورجمنا معه»(٢).

---

(١) علوم القرآن ص٢٠٤ .

(٢) قال أستاذنا الشيخ محمد الصادق عرجون في كتابه محمد رسول الله: «وقد بيّنا بيانًا شافيًا أنّ ألفاظ ما زعموه آية قرآنية نزلت في وجود حد الرجم لمن زنى بعد إحصان في رواياتهم ﴿الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبتة نكالًا من الله﴾ لم تكن قط من ألفاظ القرآن ولا ألفاظ الحديث الشريف، فلم يستعملا كلمة «الشيخة» في معنى الإحصان ولا كلمة «الشيخ» في هذا المعنى، وكذلك كلمة «ألبتة» لم ترد في القرآن الحكيم ألبتة، لا فيما ثبتت قرآنيته بالتواتر ثم نسخ، ولا فيما أحكم فلم ينسخ منه شيء.

هذا وجه وإن لم يدل صراحة على بطلان الرواية فيه، دال على استبعاد نزول آية قرآنية في زعم من رواها قرآنًا بألفاظ طرحها القرآن والحديث فلم يستعملاها في المعنى المقصود وهو وجهة لفظية ترجع إلى خصائص القرآن في ألفاظهِ وملاءمتها في الفصاحة ولطف الأداء، وهي كافية في إلقاء الشك في قرآنية هذا الكلام.

ويؤيد ذلك تأييدًا واضحًا أنّ الإمام البخاري وهو سيد المحدثين في صحة سنده ترك هذين اللفظين «الشيخ والشيخة» وطرحهما من روايته عمدًا كما قال شارحه الحافظ ابن حجر، وهذا يدل دلالة بينة على أنّ الإمام البخاري رحمه الله لم ير أنّ هذين اللفظين «الشيخ والشيخة» من الحديث، ولا أنّ النبي ﷺ قالهما، لا على أنّهما قرآن نزل ثم نسخ، ولا على أنهما غير قرآن.

قال البخاري: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا سفيان، عن الزهري، عن عبيد الله، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال عمر: لقد خشيت أن يطول بالناس زمان حتى يقول قائل: لا نجدُ آية الرجم في كتاب الله فيضلوا ترك فريضة أنزلها الله، ألا وإنّ الرجم حق على من زنى وقد أحصن إذا قامت البينة، أو كان الحمل والاعتراف.

قال سفيان: كذا حفظت، ألا وقد رجم رسول الله ورجمنا بعده.

فهذا الحديث وهو من أعلى وأرفع الأسانيد، لم يذكر فيه «الشيخ والشيخة» ومعناه كله منصب على إثبات حد الرجم للمحصن، وهو أمر مجمع عليه من الأمة سلفها وخلفها، ولم يشذ عن هذا الإجماع إلاّ طوائف من الخوارج والمعتزلة، فإنّهم أنكروا حدّ الرجم، وقالوا لم يكن الرجم في كتاب الله، وقول عمرَ: «فيضل عن فريضة أنزلها الله» يحتمل أنّ المراد من إنزال الله إيّاها وحيه بها إلى نبيه محمد ﷺ وحيًا غير قرآني، فتكون فريضة الرجم ثابتة =

وهذه الرواية إسنادها صحيح، وفي متنها نظر، فقد روي عن عمر

= بوحي السنة، ويدل لذلك قول عمر ﷺ : «ألا وإنّ الرجم حقّ على من زنى وقد أحصن»، بل يجبُ حمل كلام عمر علي هذا الوجه السديد.

وهذه الحقيقة للرجم لا يلزم أن تكون ثابتة بنص قرآني، بل يكفي فيها أن تكون ثابتة عن النبي ﷺ في حديث صحيح، كما يستفاد ذلك من قوله: «ألا وإني أوتيتُ الكتاب ومثله معه».

فالبخاري رَحِمَهُ اللَّهُ لم يذكر في روايته الثابتة الصحيحة «الشيخ والشيخة» لأنهما لم تثبتا عنده، لا لأنهما سقطتا من روايته، كما تقول عليه بعض من يجري وراء السراب.

وإخراج الإسماعيلي لهذا الحديث من طريق الفرياني عن شيخ البخاري علي بن عبد الله وفيه: وقد قرآناها: «الشيخ والشيخة» إذا زنيا فارجموهما ألبته»، لا يلزم البخاري صحة هذه الرواية، ولهذا قال ابن حجر: ولعل البخاري هو الذي حذف ذلكَ عمدًا، ولكن ابن حجر لم يعلل لتعمد ترك البخاري لهذين اللفظين، ولم يوجه تعمد البخاري حذفه لهذه الزيادة التي جاء بها من رواية الإسماعيلي من رواية جعفر الفرياني، والظاهر أنها لم تصح عند البخاري، ولذلك تعمد حذف هذين اللفظين.

ويؤيد صنيع البخاري في تعمده حذف هذه الزيادة لعدم صحتها عنده أنّ النسائي أخرج هذا الحديث عن محمد بن منصور، عن سفيان كرواية أبي جعفر الفرياني، أي بزيادة «الشيخ والشيخة»، غير سفيان، وينبغي أن يكون وهم في ذلك، ويؤيد توهيم النسائي لسفيان في ذكر هذه الزيادة قول الحافظ ابن حجر: «وقد روى الأئمةُ هذا الحديث من رواية مالك، ويونس، ومعمر، وصالح بن كيسان، وعقيل، وغيرهم من الحفاظ، عن الزهري فلم يذكروها -أي الزيادة «الشيخ والشيخة»، ووقوع الزيادة في الموطأ من رواية يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب لا يقاوم عدم ذكرها من رواية الجماعة وفي طليعتهم الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقول عمر ﷺ : لولا أن يقول الناس زاد عمر في كتاب الله لكتبتها في آخر القرآن معارض لما جاء في حديث أبي بن كعب عند النسائي والحاكم من قوله: «ولقد كان فيها -أي في سورة الأحزاب- آية الرجم «الشيخ والشيخة» ولو كانت موجودة في سورة الأحزاب فكيف لم يعرفها عمر مكتوبة فيها؟. ويقول: «لولا أن يقول الناس زاد عمر في كتاب الله لكتبتها في آخر القرآن».

وفي رواية عنه قد قرآناها: الشيخ والشيخة، وهذا يدلُ على أنّ الذين قرأوها جماعة فأنّى ذهبت؟ وكيف يخشى عمر بن الخطاب قالة الناس -وهو من هو في قوة الدين، وشدة الشكيمة، وصلابة الشوكة ومضاء العزيمة، وشدة البأس في أمر يجب عليه أن يقوم به ولو كان في ذلك حتفه، وجميع مواقف عمر في الإسلام تشهد بأن هذا بعيد جدًا عن خلائقه وأخلاقه.

وليس في حديث زيد بن ثابت أنّه سمعَ رسول الله ﷺ يقول: «الشيخ والشيخة» ما يشعر قط أنّ هذا قرآن منزل من عند الله، وزيد بن ثابت أكثر كتاب الوحي لزومًا لرسول الله ﷺ =

قوله: «لولا أن يقول الناس زاد عمرَ في المصحف لكتبتها»، وهو كلام يوهم أنّه لم ينسخ لفظها أيضًا، مع أنّهم يقولون إنها منسوخة اللفظ باقية الحكم، ورواية تذكر قيد الزنى بعد ذكر الشيخ والشيخة، ورواية أخرى لا تذكره، ورواية تذكر عبارة «نكالًا من الله»، ورواية لا تذكرها، بل رواية البخاري لا تذكر الشيخ والشيخة، وما هكذا تكون نصوص الآيات القرآنية ولو نسخ لفظها.

لذا فقد جزمَ الكمال بعدم الأخذ بالروايات قائلًا: «وأمّا ما نظرَ به من الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما، فلولا ما علم بالسنة والإجماع لم يثبت به». إن هذا الحديث المروي عن عمرَ لا يمكن اعتباره قرآنا بحال من الأحوال، لأنّ القرآن لا يثبت برواية الآحاد وإن صحت، ذلك لأنّ القراءات القرآنية لا تثبت قرآنيتها إلّا بالتواتر، وإلّا ردت وحكم عليها بالشذوذ ولو صحت روايتها آحادًا، قال أبو جعفر النحاس: «وإسناد الحديث صحيح إلّا أنّه ليس له حكم القرآن الذي نقله الجماعة، ولكنه

= وأعظمهم حظًا في كتابة وحي القرآن، فلو كان الذي سمعه من رسول الله ﷺ قرآنًا لأمره النبي ﷺ أن يكتبه في المصحف.

وفي حديث خالة أمامة بن سهل أنّها قالت: لقد أقرأنا رسول الله ﷺ آية الرجم، ولم يبين هذا الحديث نص الآية المزعومة، وقد جاء في هذه الرواية زيادة «بما قضيا من اللذة» وهذه زيادة لا وجه لذكرها، لأنّ قضاء اللذة ليس خاصًا بالشيخ والشيخة، فهي زيادة تشير إلى ضعف الرواية، كما أنّ هذه الزيادة «بما قضيا من اللذة» إلى جانب أنها لفظة لم تعهد في ألفاظ القرآن واستعمالاته، فسبيلها سبيل لفظي «الشيخ والشيخة» كما أنها بعيدة عن مواقعة الأدب اللفظي والمعنوي.

وقد روى أبو عبيد القاسم بن سلام حديث خالة أمامة بن سهل فقال بعد سرد سنده: عن أبي أمامة بن سهل أنّ خالته قال: لقد أقرأنا رسول الله ﷺ آية الرجم: الشيخ والشيخة فارجموهما ألبتة بما قضيا من اللذة.

وأبو عبيدة صاحب طامات في هذا الموضوع، رواها عنه السيوطي في الإتقان، وفي حديث مروان بن الحكم عند النسائي أنّه قال لزيد بن ثابت: ألا نكتبها في المصحف؟ قال زيد ﷺ: لا، ألا ترى أنّ الشابين الشيبين يرجمان، وهذا يفيدُ أنّ زيد بن ثابت لم يتحقق عنده ما سمعه من رسول الله ﷺ من قول «الشيخ والشيخة» قرآن تجب كتابته في المصحف.

سنة ثابتة».

ونختم الحديث عن هذا النوع بما قال الدكتور مصطفى زيد: «ومن ثم يبقى منسوخ التلاوة باقي الحكم مجرد فرض، لم يتحقق في واقعة واحدة، ولهذا نرفضه ونرى أنّه غير معقول ولا مقبول، فإنَّ القول بأنّه سقطَ شيء من القرآن، أو أنّه لم يتواترَ فلم يثبتَ في القرآن قول لا يسنده دليل ويجعل للمغرضين صيدًا ثمينًا للنيل من القرآن، فرد الروايات أهون من الدخول في المتاهات[1].

٣- منسوخ التلاوة والحكم معًا:

استدل القائلونَ بجوازه بما روي عن عائشة: «كان فيما أنزل اللّه عشر رضعات معلومات يحرمن، فنسخن بخمس معلومات، فتوفى رسول اللّه ﷺ وهُنَّ فيما يقرأ من القرآن»[2].

وفي هذا النوع من النسخ كلام مثل ما سبق وقلناهُ عن النوع السابق قال الزركشي: «الأخبار فيه أخبار الآحاد، ولا يجوز القطع على إنزال قرآن ونسخه آحادًا لا حجة فيها»[3].

أمّا الشيخ محمد على السايس فقد نقل قول بعض العلماء بأنَّ حديث عائشة الذي رواه مالك وغيره لا يصح الاستدلال به، لاتفاق الجميع على أنّه لا يجوزُ نسخ تلاوة شيء من القرآن بعد وفاة رسول اللّه ﷺ، ولا إسقاط شيء منه، وهذا الحديث يفيدُ أنّه سقط شيء من القرآن بعد وفاته... وهذا هو الخطأ الصراح[4].

النسخ بين مصادر التشريع الإسلامي:

وأعني بالمصادر الكتاب والسنة والإجماع والقياس:

---

(١) علوم القرآن ص٢٠٤ .

(٢) صحيح مسلم. كتاب الرضاع. باب التحريم بخمس رضعات (٢/ ١٠٧٥) ح١٤٥٢

(٣) البرهان (٢/ ٣٩).

(٤) تفسير آيات الأحكام (٢/ ٦٩).

أولاً: نسخ القرآن بالقرآن قد بينا القول فيه وفي أنواعه.

ثانيًا: نسخ السنة بالسنة اتفق العلماء على جوازه كذلك، حتى نفاة وقوع النسخ في القرآن ذهبوا إلى القول بهذا النوع، والمثال عليه واضح «كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها».

ثالثًا: نسخ السنة بالقرآن وحوادثه كثيرة، منها:

ما ورد في الصحاح أنَّ النبي ﷺ كان يتوجه في الصلاة إلى بيت المقدس ثم نسخ ذلك بقوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾(١).

وقد جعلَ الإمام مسلم في صحيحه بابًا سمّاه «تحويل القبلة من القدس إلى الكعبة».

شبهة مردودة في هذا النوع من النسخ:

لقد وردَ في تفسير ابن كثير مثّال على هذه الحالة في شروط صلح الحديبية إذ كان من شروطها «على ألا يأتيك أحدٌ منا إلّا رددته إلينا» وفي رواية «من جاء منا»(٢).

ثم قالوا إنَّ آية الممتحنة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾(٣).

فأمرت الآية بعدم رد النساء، أو على حد تعبير بعض المفسرين فنسخ الله في حق النساء، ولكن كما يقولون يلزم منه القول بنقض العهد، هكذا قالوا، وزعم المستشرقونَ ومن في قلبه مرض أنَّ رسول الله ﷺ هو الذي

---

(١) البقرة: ١٤٤ .

(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٢١٤، ٢٧٢).

(٣) الممتحنة: ١٠ .

بدأ بنقض العهد حين نزلت عليه آية الممتحنة المذكورة.

والحق أنّه لا نسخ للسنة بالقرآن في هذه الحادثة، لأنَّ أكثرَ ما يقال في هذا الأمر وحسب الروايات المذكورة من باب تخصيص القرآن للسنة، وقد خلت كتب الأصول من التمثيل عليه، ويعتبر هذا من أحسن الأمثلة على تخصيص القرآن للسنة كما ذكره ابن كثير بل هو المثال الوحيد.

أمّا قول بعض المفسرين أن هذا نسخ فإنَّ هذا رأي من يقول إنَّ التخصيص بالمنفصل هو نسخ جزئي في رأي لأحد المجتهدين.

والحق أنَّ هذه الآية لم تنسخ، ولم تخصص الروايات المذكورة، إذ ثبتَ في صحيح البخاري «على ألّا يأتيك رجل منا إلّا رددته إلينا»[1] وفي هذه الرواية تفسير لكلمة أحد -الواردة في إحدى الروايات الصحيحة- برجل الواردة في الروايات الأخرى، وعندها لن تكون الآية في حق النساء ناسخة ولا مخصصة والله أعلم.

رابعًا: نسخ القرآن بالسنة: أمّا هذا النوع فقد ذهبَ الشافعي إلى منعه وعدم جوازه، وذهب جمهور العلماء إلى جواز نسخ القرآن بالسنة.

وندع المناقشة بين الفريقين والتي لا يترتب عليها أثر، إذ لم نجد فيه واقعة واحدة من وقائع النسخ على هذا النوع، ومن هنا نرى أنَّ الخلاف الذي قام حول جوازه خلاف نظري، يحسمه عدم وقوعه ووجوده.

خامسًا: أمّا نسخ الإجماع بالإجماع فإنَّ الإجماع كما قال الأصوليون لا ينسخ ولا ينسخ به، إذ لا يتصور أن يحصل إجماع على نسخ نص، إذ لا يصح الإجماع مع وجود النص، كما لا يصح أن ينسخ إجماع إجماعًا لعدمِ صحة أحدهما والكلام يطول في هذا النوع وفي النسخ بالقياس وفي كتبِ الأصول المزيد لمن أراده.

---

(١) صحيح البخاري. كتاب الشروط. باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط.

استدراك: أقولُ: التخصيص هو قصر العلم على بعض أفراده بدليل، وهو نوعان «منفصل ومتصل» أو على حد تعبير الأصوليين «مستقل، وغير مستقل».

والمخصوص المنفصل أو المستقل يشمل أنواعًا كثيرة، فقد يخصص عموم آية، مثال تخصيص عموم القرآن بالقرآن قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾(١) فهو عام في كل مطلقة حاملًا كانت أم غير حامل مدخولًا بها أو غير مدخول بها، خص بقوله: ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾(٢)، وعموم القرآن قوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾(٣)، وخص من البيع البيوع الفاسدة كما في الصحيحين عن بن عمرَ رضي الله عنهما أنَّ رسول الله ﷺ نهى عن بيع حبل الحبلة(٤)، وعموم القرآن خص بالإجماع آية المواريث: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾(٥) خص منها بالإجماع الرقيق؛ لأنَّ الرق مانع من الإرث.

وعموم القرآن خص بالقيام آية الزنا ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾(٦) خص منا العبد على الأمة التي نص على تخصيصها عموم الآية في قوله تعالى: ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾(٧) فيطلق الأحناف على هذا النوع من التخصيص «النسخ الجزئي» على أنَّ يبقى الفرق بين النسخ والتخصيص.

---

(١) البقرة: ٢٣٤ .
(٢) الطلاق: ٤ .
(٣) البقرة: ٢٧٥ .
(٤) أخرجه البخاري في باب بيع الغرر وحبل الحبلة في كتاب البيوع. صحيح البخاري (٣/ ٩١)، ومسلم في باب تحريم بيع حبل الحبلة من كتاب البيوع، صحيح مسلم (٣/ ١١٥٣).
(٥) النساء: ١١ .
(٦) النور: ٢ .
(٧) النساء: ٢٥ .

الفرق بين النسخ والتخصيص:

١- إنَّ الناسخ لا يأتي على الحكم المنسوخ فيزيله بالكلية، وبعبارة أخرى يبطله ويلغيه ويخرجه عن اعتباره دليلًا، أمّا التخصيص فلا يلغي العام بالكلية، بل يبقى حكم العام معمولًا به ولكنه لا يستغرق جميع أفراده بل جزءًا منهم، ويبقى العام بعد تخصيصه دليلًا ثابتًا للحكمِ فيما أبقاه المخصص.

٢- إنَّ الناسخ لا يأتي إلّا متأخرًا عن المنسوخ، أمّا التخصيص فيكون مقارنًا للعام أو متأخرًا عنه بل قد يتقدم عليه في رأي..

٣- النسخ لا يقعُ في مجال العقائد والأخبار والقصص القرآني بل يقعُ في مجال الأحكام، أمّا التخصيص فمجاله جميع ما تقدم دون استثناء.

* * *

الفصل الثامن
المحكم والمتشابه

الفصل الثامن

المحكم والمتشابه

مدلولهما اللغوي:

(أ) **المُحْكَمُ**: تقولُ العربُ: حاكمت وحكمت وأحكمت بمعنى: رددت ومنعت، والحاكم يمنعُ الظالم عن الظلم، وحكمة اللجام هي التي تمنعُ الفرسَ عن الاضطراب، وفي حديث النخعي: أحكم اليتيم كما تحكم ولدك أي امنعه عن الفساد.

قال جرير:

أبني حنيفة أحكموا سفهاءكم إني أخافُ عليكم أن أغضبا

أي: امنعوا سفهاءكم.

وبناء حكم أي وثيق يمنع من تعرض له، وسميت الحكمة حكمة لأنَّها تمنعُ عمّا لا ينبغي[1]، وقيل إنَّ إحكام الشيء إصلاحه وإتقانه، وإحكام آيات القرآن إحكامها من خلل يكون فيها أو يقدر ذو زيغ أن يطعن فيها من قبله[2].

(ب) **المتشابه**: أمّا المتشابه فهو أن يكون أحد الشيئين مشابهًا للآخر بحيث يعجز الذهن عن التمييز بينهما.

قال اللّه تعالى: ﴿وَأُتُوا بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾[3]. أي: متفق المنظر مختلف الطعوم، وقال تعالى: ﴿تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[4]. ومنه يقال: «اشتبه عليه

---

(١) التفسير الكبير للرازي (٧/ ٢٢٥)، وانظر القاموس المحيط في مادة حكم وكذلك جامع البيان للطبري بتحقيق محمود شاكر (٥/ ٢٢٥)، وما بعدها، وتفسير أبي حيان (٥/ ٢٠٠) ط بيروت.

(٢) انظر القاموس المحيط، ومناهل العرفان (٢/ ١٦٦).

(٣) البقرة: ٢٥ .

(٤) البقرة: ١١٨ .

الأمران» إذا لم يفرق بينهما. قال ﷺ: «الحلال بين والحرامُ بين وبينهما أمور مُشتبهات»[1].

ثم لما كان من شأن المتشابهين عجز الإنسان عن التميز بينهما، سمي كل ما لا يهتدي الإنسان إليه بالمتشابه إطلاقًا لاسم السبب على المسبب.

مدلولهما الاصطلاحي:

يجدرُ بنا قبل الحديث عن مدلول المحكم الاصطلاحي أن نسوق الآيات القرآنية للواردة في هذا الموضوع، فآية تصف القرآن كل القرآن بأنَّه محكم، وآية تصفُ القرآن كل القرآن بأنَّه متشابه، وآية تصفُ القرآن بأنَّ منه المحكم والمتشابه، وحيث إننا نعلم أنَّ القرآن منزه عن التناقض فإننا نجزم أنَّ هذه الآيات لا تناقض فيها، بل لكل آية معنى سديد ودقيق يلحظ بالتأمل والتمحيص والتحقيق.

فالآية القرآنية: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾[2].

تفيد إحكام القرآن كله آية آية، وسورة سورة، وتكاد كلمة المفسرين قديمًا وحديثًا -تجمعُ على معنى واحد لهذه الآية، وإن اختلفت تعابيرهم، فالطبري والرازي وإبو حيان يقولون: «إنَّ معنى أحكمت آياته: نظمت تنظيمًا لا نقص ولا خلل فيها كالبناء المحكم، فمعنى أنَّ القرآن كله محكم كونه كلامًا حقًا، فصيح الألفاظ، صحيح المعاني، وكل قول وكلام كان القرآن أفضل منه في فصاحة اللفظ وقوة المعنى»[3].

قال الطبري: «أحكمَ اللّه آياته من الدخل والخلل والباطل».

وكذلك نجدُ المعنى نفسه، بل بالألفاظ نفسها عند المفسرين المتأخرين، يقول الجمل في تفسيره «الفتوحات الإلهية»: «كتاب أحكمت

---

(١) صحيح البخاري. كتاب البيوع. باب الحلا بين والحرام بين وبينهما مشتبهات.

(٢) هود: ١ .

(٣) انظر تفسير ابن كثير وبحاشيته تفسير البغوي (٧/ ٢٣٦، ٢٣٧) ط المنار.

آياته: أي: نظمت نظمًا متقنًا لا يعتريه الخلل بوجه من الوجوه»[١].

أمّا القاسمي فقال: «أحكمت آياته نظمت نظمًا رصينًا محكمًا معجزًا لا يعتريه نقص ولا خلل لفظًا ومعنى»[٢].

أمّا الآية: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا﴾[٣]. فتفيد أن آيات القرآن يشبهُ بعضها بعضًا في الإحكام والإتقان فلا يستطيع أحد المفاضلة والتمييز بين آية وأخري للتماثل في البلاغة والهداية.

قال قتادة: «الآية تشبه الآية والحرف يشبه الحرف»[٤].

أمّا الآية الثالثة: فقول الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ﴾[٥].

فقد تقابل فيها الإحكام والتشابه وجعل كل منهما وصفًا بعض الآيات دون بعض.

هذه الآية هو موضوع حديثنا، وهي تفيدُ أنَّ القرآن الكريم يشتملُ على المحكم والمتشابه معًا، وقد اختلفَ العلماء في تحديد معناهما الاصطلاحي، وسأذكرها دونَ تعرض للأقوال التي لا تستند إلى دليل، ولا إلى مناقشات استقصاؤها فقد بلغت عند بعض العلماء مئات من الصفحات ومن أرادَ معرفتها فليرجع إلى ما كتبَ فيها من المطولات[٦].

القولُ الراجح أنَّ المحكم ما ظهرَ معناهُ وانكشفَ انكشافًا يرفعُ الاحتمال ومثالهُ قول الله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ﴾[٧]،

---

(١) (٢/ ٢٣٨٧) طبعة دار الاستقامة القاهرة.

(٢) محاسن التأويل (٩/ ٣٤٠٨).

(٣) الزمر: ٢٣ .

(٤) التفسير الكبير (٧/ ١٦٧) ط ٢ دار الكتب العلمية طهران وكذلك جامع البيان والبحر المحيط في تفسير الآية نفسها.

(٥) آل عمران: ٧ .

(٦) متشابه القرآن للقاضي عبد الجبار تحقيق عدنان زوزور، وانظر المحكم والمتشابه رسالة دكتوراه للأستاذ إبراهيم خليفة.

(٧) البقرة: ٢٧٥ .

وقوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾[1]، وقوله: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا﴾[2].

وأمَّا المتشابه المقابل للمحكم في هذه الآية: فهو: «ما احتمل أكثر من معنى»، فمعرفةُ المعنى يحتاج فيه إلى التدبر والتأمل، ومن العلماء من يرى أنَّ المتشابه مما استأثرَ الله بعلمه ولا سبيلَ لأحد إلى معرفته.

ويرجعُ سبب الخلاف بين العلماء إلى تغاير أفهامهم لمعنى الآية: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[3].

يرى بعضُ العلماء الوقفَ على قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[4]. والواو في قوله: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾هي واو الاستئناف، والراسخونَ مبتدأ، وخبره يقولونَ آمنا به، وعلى هذا القول ينحصر دور الراسخين في القول آمنا به، وردوا احتمال كون الواو للعطف إذ يقتضي ذلك أن نعرب ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ حالًا، مع أنَّه يستحيل أن تكون حالًا من المعطوف عليه، وهو «اللَّه»، والمعطوف «الراسخون» إذ كيفَ يقولُ اللَّه معهم آمنا به؟.

وقد ذهب إلى هذا المعنى أبي بن كعب وابن مسعود بل نسبه الحاكم في مستدركه إلى ابن عباس وقال إنَّه كان يقرأ هذه الآية: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾.

قال الخطابي: «وما يعلمُ تأويل المتشابه إلَّا اللَّه وحده منفردًا بعلمه»

---

(١) الإخلاص: ٣ .

(٢) المائدة: ٣٨ .

(٣) آل عمران: ٧ .

(٤) آل عمران: ٧

وذهبَ بعضُ العلماء إلى عدمِ الوقفِ على كلمة الله، فالواو في كلمة «والراسخون» واو العطف واستدلوا على ذلك:

١- أنَّ الأصل في الواو هو العطف، أمّا الاستئناف فذلك لا يكون إلّا إذا انتهي الكلام الأول وانتهى معناه، ثم يستأنف بكلام جديد ومعنى جديد، والكلام هنا لم ينته لفظًا ولا معنى، فلا تكون الواو للاستئناف. ومما يؤيد ذلك تواتر القراءة، وبها قرأ حفص بعدم الوقوف على لفظ الجلالة.

٢- أمّا الاعتراض بأنَّ قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ يكون حالًا للمعطوف والمعطوف عليه، وإنَّ ذلك غير جائز في حق الله تعالى، فقد أجابوا على ذلك بأنَّ قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ هو حال للمعطوف دون المعطوف عليه، خصوصًا إذا وجدت قرينة تدل على ذلك فإنَّها تنصرفُ إلى المعطوف فقط دونَ المعطوف عليه. كما في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾[(١)].

فكلمة صفا حال تخص المعطوف «الملك» دون المعطوف عليه «ربك»، كما في قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾[(٢)].

فإنَّ نافلة حال من يعقوب أي من المعطوف دون المبعطوف عليه.

٣- وأوضح دليل على أنَّ الراسخين في العلم يعلمون تأويل القرآن ما روي عن ابن عباس في هذه الآية أنّه كان يقول: «أنا ممن يعلمُ يأويله» وهو يصدق دعاء النبي ﷺ له: **«اللهم فقهه في الدين وعلمّه التأويل»**[(٣)]. ونسبة هذا القول لابن عباس أي العلم بالمتشابه أصح سندًا من نسبة القول السابق إليه، أي عدم العلم بالمتشابه.

---

(١) الفجر: ٢٢.

(٢) الأنبياء: ٧٢.

(٣) رواه أحمد في مسنده (٤/١٢٧) ح٢٣٩٧، ولفظه «اللهم فقه في الدين وعلمه التأويل» وإسناده صحيح والحديث في مجمع الزوائد (٩/٢٦٧)، وعزاه لأحمد والطبراني.

كما روي عن مجاهد أنَّه كان يقول بمثل قول أستاذه ابن عباس في العلم بالمتشابه.

٤- إنَّ ذكر الراسخين في العلم في هذه الآية كان لمزية عن سائر الناس، وهذه الميزة لا تكونُ إلَّا إذا كان لهم علم بالمتشابه.

على أنَّ جملة «يقولون آمنا به» مع ذلك لا يتعين أن تكون حالًا بل يجوزُ أن تكونَ مستأنفة استئنافًا بيانيًا أي واقعة في جواب وسؤال مقدر كأن قائلًا قال: ما حال أولئكَ الراسخين الذين شرفوا ممن دون سواهم من الخلق بعلم تأويل المتشابه، هل غرهم علمهم هذا أو لم يعطوا هذا العلم حقه فأنكروا مقتضاه أم ماذا؟

فكان الجوابُ: يقولون آمنا به... إلخ، وعلى هذا التأويل فهم يعلمونَ كذلك تأويل المتشابه، هذا كله على كون الواو للعطف.

ولبعض الباحثين القائلينَ بعلم الراسخين بتأويل المتشابه رؤية أخرى، تتمثلُ في أنَّه حتى على فرض لزوم الوقف على لفظ الجلالة وكون الواو للاستئناف، فإنَّ الآية لا تقتضي جهل الراسخين بالتأويل، من منطلق أنَّ المعنى حينئذ يمكن أن يكون في هذه الجملة «وما يعلمُ تأويله» علمًا شاملًا محيطًا غير مكتسب إلَّا الله فلا ينافي ذلك علم غيره بالتأويل لكن لا على هذا الوجه التام المحيط غير المكتسب.

فعلى هذا، فالآية تخبرُ عن الراسخين في العلم بأنَّهم يقولونَ آمنا به، ولم تتعرض إلى علمهم ولا إلى عدمِ علمهم، فهذه قضية مسكوت عنها في الآية، فكونهم يعلمونَ أو لا يعلمون مما يحتاج إلى دليل مستقل، وقد وجدَ من الأحاديث ما يدل على علمهم.

مما تقدم يتضح أنَّه ليس في القرآن متشابه بمعنى الذي لا يفهم معناه. لأنَّ اشتمال القرآن على شيء غير مفهوم يخرجه عن كونه بيانًا للناس وهو خلاف ما أخبر الله به.

أمّا تفسير بعض العلماء للمتشابه بأنّه لا يعلمُ، وأنّه مما استأثرَ اللّه بعلمِه كقيام الساعةِ وعلم الغيبِ وغير ذلكَ فإننا نقول لهم: إننا معكم إنَّ هذا مما لا يعلمه إلّا اللّه، ونحنُ نسلمُ بذلك، ولكن تفسير المتشابه بذلك مما لا نسلمه.

وبعدُ: فإنَّ هذا هو الرأي الذي تستريحُ إليه النفس لقوة حجته، ونصوع برهانه، أمّا نسبة القول إلى ابن مسعود وأبي فإنَّها لم تصح في مستدرك الحاكم.

كذلك الزعم بأنَّ ابن عباس قال مثل قولهم غير صحيح، بل الأصح أنَّ ابن عباس على خلاف قولهم، وقد تبنى رأيه تلميذه ابن مجاهد الذي قال بقول أستاذه: «أنا ممن يعلم تأويله».

ولقد أيدَ هذا الرأي علماء أفذاذ كالإمام النووي الذي قال بأنّه الأصح؛ لأنه يبعد أن يخاطب اللّه عباده بما لا سبيل لأحد من الخلق إلى معرفته.

كما اختاره ابن قتيبة وقال: «ولسنا ممن يزعم أنَّ المتشابه في القرآن لا يعلمه الراسخونَ في العلم، وهذا غلط من متأوّليه على اللغة والمعنى، ولم ينزل اللّه شيئًا من القرآن إلّا لينفعَ عباده ويدل على معنى أراده».

ثم قال: «وهل لأحد أن يقول إنَّ رسول اللّه ﷺ لم يكن يعرف المتشابه، وإذا جازَ أن يعرفه مع قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ جاز أن يعرفه الربانيونَ من صحابته فقد علم عليًا التفسير، ودعا لابن عباس فقال: «اللهم علمه التأويل وفقهه في الدين» . وذكرَ بعد ذلك أنّه لم ير المفسرين توقفوا عن شيء من القرآن وقالوا هذا متشابه لا يعلمه إلّا اللّه بل أمروه على التفسير حتى فسروا الحروف المقطعة في أوائل السور.

* * *

منشأ التشابه

قلنا إنَّ المتشابه إنما سمي متشابهًا لاشتباه معناه على السامع الذي قد يكون منشؤه خفاء في اللفظ أو المعنى، وقد يكون ناشئًا عن تركيب في الجملة.

والخفاء في اللفظ أو المعنى، أو التركيب يحدث الاشتباه والالتباس الذي قد يكون منشؤه اللغة لتردد اللفظ بين الحقيقة والمجاز والوضوح والإبهام ونحو ذلك.

وقد يكون منشأ التشابه عائدًا إلى العقل والسمع، وكل ما من شأنه أن يقطعَ بأنَّ المراد من هذا التشابه أمر غير ظاهر، ولهذا فإنَّ المرادَ من المتشابهات يجبُ أن يرجع فيه إلى المحكمات التي جعلها اللّه بمنزلة «الأم» أي الأصل الواحد الجامع الذي ترد إليه المتشابهات فقوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾(١). يرجع في فهمه وتفسيره إلى قوله تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾(٢). وقوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا﴾(٣).

يرجع فيه إلى قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾(٤).

هذا هو منشأ التشابه وهذه تطبيقات عليه:

قلنا إنَّ التشابه يكون منشؤه خفاء المعنى في اللفظ وهذا قد يكون على جهة التساوي كقوله تعالى: ﴿وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖ﴾(٥). فإنَّ لفظ قرء يحتمل أن يراد به أحد المعنيين المتضادين: إمَّا

---

(١) طه: ٥ .
(٢) الشورى: ١١ .
(٣) الإسراء: ١٦ .
(٤) الأعراف: ٢٨ .
(٥) البقرة: ٢٢٨ .

الحيض أو الطهر.

وقد يكون خفاء المعنى من جهة تركيب الجملة كقوله تعالى: ﴿أَوْ يَعْفُوَا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾(١). يحتملُ أن يراد به الزوج أو الولي وقوله: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا﴾(٢). ويحتملُ الزوج أو الولي أيضًا.

وقد يكون خفاء المعنى للفظ لا على جهة التساوي، مثل أن يكون أحد المعاني مرجوحًا والآخر راجحًا، مثل الآيات المتعلقة بالصفات، وكالحروف التي افتتح الله بها بعض سور القرآن: ق، ن ، ص، حم، وغيرها.

فمن العلماء من قال: إنَّها سر استأثرَ الله بعلمه، ومنهم من فسرها، ولكنهم اختلفوا في معانيها اختلافًا كثيرًا، فمنهم من رجح أن فواتحَ السور أسماء للقرآن الكريم، ذكرَهُ السيوطي وقال: أخرجه عبد الرزاق عن قتادة.

ومنهم من قال: هي أسماء للّه وقد أقسم الله بها.

وذهبَ الزمخشري إلى استنباط معنى مبناه العقل، وقد استحسنه كثير من العلماء فقالوا في معنى هذه الحروف: إنَّ هذه الحروف المفتتح بها بعض السور، منها تتكون الكلمة، ومن الكلمات تتألف الجمل، ومن الجمل يتألف الكتاب، والقرآن مؤلف من مثلها ولا يخرج عنها، فإن كان باستطاعتكم الإتيان بمثله، فأتوا بذلك، وإن عجزتم فاعلموا أنَّ هذا القرآن من عند الله، ولذلكَ فقد غلبَ على السور المفتتحة بالحروف أن يعقب ذلك بيان أنَّ القرآن من عند الله:

﴿الم ﴿١﴾ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾(٣). ﴿حم ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَابِ﴾(٤).

---

(١) البقرة: ٢٣٧ .

(٢) النساء: ٤ .

(٣) البقرة: ١، ٢ .

(٤) غافر: ١ ، ٢، والجاثية: ١، ٢، والأحقاف: ١ ، ٢ .

﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾(1). ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾(2). ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾(3).

وللزمخشري كلام طويل استوفاهُ في مطلع سورة البقرة ونجد المفسرين يسهبونَ في معناهُ عند قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾(4).

وهناك مزاعم لا يعتد بها كالذي تكلم في معنى الحروف واستنبط منها أعمارَ الأمم وآجالها. ومنهم من استخرج فتوح بيت المقدس في سنة معينة وقد فندها أبو بكر بن العربي وقال: «وقد تحصلَ لي فيها عشرونَ قولًا وأكثر ولا أعرفُ أحدًا يحكم عليها بعلم ولا يصلُ منها إلى فهم».

وأخيرًا نختتم الكلام عن المتشابه بكلمة موجزة قالها الراغب في المفردات: «إنَّ المتشابه بالجملة ثلاثة أضراب: متشابه من جهة اللفظ فقط، ومن جهة المعنى فقط، ومن جهتهما».

فالأول ضربان:

أحدهما: يرجعُ إلى الألفاظ المفردة، إمَّا من جهة الغرابة نحو الأدب ويزفونَ، أو الاشتراك كاليد واليمين.

وثانيهما: يرجعُ إلى جملة الكلام المركب، وذلك ثلاثة أضرب، ضرب لاختصار الكلام نحو: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾(5).

وضرب لبسطه نحو: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾(6)، لأنه لو قيل ليس

---

(1) يس: ١، ٢.

(2) ق: ١.

(3) ص: ١.

(4) البقرة: ١، ٢.

(5) النساء: ٣.

(6) الشورى: ١١.

مثله شيء كان أظهرَ للسامع.

وضرب لنظم الكلام: ﴿أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾[1].

والمتشابه من جهة المعنى: أوصاف الله تعالى وأوصاف القيامة.

والتشابه من جهتهما خمسة أضرب:

الأول: من جهة الكمية كالعموم والخصوص نحو: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[2].

الثاني: من جهة الكيفية كالوجوب والندب نحو: ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾[3].

والثالث: من جهة الزمان كالناسخ والمنسوخ نحو: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾[4].

والرابع: من جهة المكان والأمور التي نزلت فيها نحو: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾[5].

ونحو: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾[6].

فإن من لا يعرف عادتهم في الجاهلية يتعذر عليه تفسير هذه الآية.

الخامس: من جهة الشروط التي يصح بها الفعل ويفسد كشروط الصلاة والنكاح. ثم قال: «وهذه الجملة إذا تصورت عُلمَ أنَّ كل ما ذكره المفسرونَ في تفسير المتشابه لا يخرجُ عن هذه التقاسيم».

وقد علق الزرقاني على هذا التقسيم فقال: وهو كلام جيد غير أنَّ في بعضه شيئًا[7].

---

(١) الكهف: ١.

(٢) التوبة: ٥.

(٣) النساء: ٣.

(٤) آل عمران: ١٠٢.

(٥) البقرة: ١٨٩.

(٦) التوبة: ٣٧.

(٧) مناهل العرفان (٢/١٧٦، ١٧٧).

الفصل التاسع
المعاجم القرآنية

الفصل التاسع

المعاجم القرآنية

هذا ما وقع لي من المعاجم القرآنية والتي يمكن أن تقع في اتجاهات:

١) معاجم الألفاظ والمعاني[(١)].

٢) معاجم في الأدوات والضمائر والمعاني[(٢)].

٣) معاجم في الألفاظ والأعلام[(٣)].

٤) معاجم في الموضوعات[(٤)].

وسأتحدث عن معاجم الموضوعات، ثم أتحدثُ عن معجم سلك صاحبه مسلكًا جديدًا، وفيه جهد مشكور، كما سأعرضه في حينه إن شاء اللّه تعالى.

معاجم الموضوعات:

أتناولُ حديثي عن معجم الموضوعات عن كتاب كان محل نظر عند كثير من العلماء والباحثين، ألا وهو كتاب «تفصيل آيات القرآن الكريم» الذي وضعه مؤلفه بالفرنسية «جول لابوم» ومعه المستدرك «لادوارد مونتيه» وقد نقلهما إلى العربية محمد فؤاد عبد الباقي، والكتاب في مجلد واحد من القطع الكبير تبلغ عدد صفحاته [٦٦٠] صفحة بدون الفهارس

---

(١) انظر: معجم ألفاظ القرآن الكريم لمجمع اللغة العربية. مطابع الأوفست، ١٤٠٩ هـ، القاهرة.

(٢) انظر: معجم الأدوات والضمائر في القرآن الكريم. وضعه إسماعيل أحمد عمارة، وعبد الحميد مصطفى السيد، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت

(٣) انظر: معجم الأعلام والموضوعات في القرآن الكريم، تصنيف عبد الصبور مرزوق، الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ، دار الشروق، القاهرة.

(٤) انظر: المعجم الموضوعي لآيات القرآن الكريم، صبحي عبد الرؤوف عصر، دار الفضيلة للنشر والتوزيع، مصر، والجامع لمواضيع آيات القرآن الكريم لمحمد فارس بركات الطبعة الرابعة، ١٤٠٥ هـ، دار قتيبة، بيروت، والفهرس الموضوعي لآيات القرآن الكريم لمحمد مصطفى محمد، الطبعة الرابعة ١٤٠٩ هـ، دار عمار، عمان، الأردن

ينتهي الأول بالصحفة الأربعمائة والستين، وينتهي الثاني بالصفحة الستين بعد الستمائة، وضع الأول وهو «تفصيل آيات القرآن الحكيم الحاوي لأكثر آيات القرآن الكريم» وصنفه بالفرنسية «جول لابوم» وقد قسمه إلى ثمانية عشر بابًا ويدخلُ تحتَ كل فروع تبلغ مجموعها ٣٥٠ فرعًا، جميع أو أكثر ما ورد فيه من الآيات. وقد طبع للمرة الأولى في مطابع عيسى البابي الحلبي بمصر ووضع له فهرسان الأول حسب الموضوعات. والثاني حسب الترتيب الهجائي وفي آخره وضع جدولاً لبيان الخطأ والصواب. وبلغت عدد صحفاته بدون الفهارس سبعمائة وأربع عشرة صفحة. وقد تمت ترجمة هذا الكتاب في شهر شعبان عام ١٣٤٢ هـ - مارس ١٩٢٤ م ولم تذكر سنة الطباعة. هذا وقد طبعَ الطبعة الثانية عام ١٣٧٤ هـ/ ١٩٥٥ م طبعته دار إحياء الكتب العربية لعيسى البابي الحلبي. وعدد صفحاته [٤٥١] صفحة. ثم صورته دار الكتاب العربي ببيروت عام ١٩٦٩ م. طبع مع هذه الطبعة «الثانية» المستدرك الذي وضعه مونتيه.

وقد قدم للطبعة الأولى محمد فريد وجدي الذي رفع من قيمة المستشرقين -عند ذكره لمجهوداتهم في خدمة الكتاب والسنة- فوق منزلتهم التي يضّعهم فيها المسلم المستنير الفكر والقلب والشعور. إلَّا أنَّه اعترفَ بوجود كثير من العوج في دائرة المعارف الإسلامية فيما يتعلق بالتراجم، وفهم مدلولات الآيات القرآنية، وفي الاعتماد على خصوم الإسلام في بعض النواحي وقدم للطبعة الثانية مترجم هذين الكتابين.

أمَّا الثاني «المستدرك» فقد وضعه «إدوارد مونتيه» وهو عبارة عن فهرس لمواد القرآن الكريم وضعه لترجمته الفرنسية للقرآن العظيم، والذي أسماهُ المستدرك هو المترجم محمد فؤاد عبد الباقي إذ قال: «بعد أن أوضح أنَّه اطلعَ على هذا الفهرس لمواد القرآن أثناء اطلاعه على الترجمةَ الفرنسية للقرآن التي وضعها «إدوارد مونتيه» والتي قال عنها شكيب أرسلان إنَّها من

أدق الترجمات التي ظهرت حتى ما فات مؤلف تفصيل آيات القرآن الآن - فكأنه وضع لتدراك الحكيم فعرضت ذلك على المغفور له الأستاذ الكبير فأشارَ علي بنقلها إلى اللغة العربية. ولما نفذت الطبعة الأولى رأينا تذييله بهذا الفهرس التفصيلي وأن نطلقَ عليه كلمة المستدرك[1].

ونحنُ لا نستقصي في بحثنا عن هذا الكتاب ونقده، بل نكتفي بفهم طريقته في تناول موضوع من الموضوعات.

ولو أخذنا موضوع الخمرَ لوجدناهُ يتناوله في ثلاثة مواضع:

الأول: في قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ﴾[2].

الثاني: في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾[3].

الثالث: في قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾[4].

لقد تناولَ الباحث هذا الموضوع تناولًا قاصرًا من نواح عدة، فمثلًا حين نريد أن نتحدث عن موضوع الخمر في الإسلام، لابد من جمع الآيات التي وردت فيها مادة هذه الكلمة كخطوة أولى من خطوات التفسير

---

(١) الدراسات القرآنية المعاصرة لمحمد السديس، ص١٨٣، ١٨٤، ١٣٩١ هـ، مطابع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض.

(٢) البقرة: ٢١٩.

(٣) المائدة: ٩٠، ٩١.

(٤) محمد: ١٥.

الموضوعي، ثم لابد بعد ذلك من جمع للآيات التي تتناول موضوع الخمر والتي لم ترد في مادة «خمر» كالآية الواردة في سورة النساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾[1]، لذا وجدنا كتاب الفهرس الموضوعي لآيات القرآن الكريم الذي عني بجمعه محمد مصطفى محمد خير من كتابه[2]، فقد ضم الآيات التي أسقطها لابوم من كتابه؛ لأنَّ لابوم لا يثبت الآيات التي تتعلق بالموضوع والتي لا تتناولها مادة الكلمة «الخمر».

أمَّا المعجم الموضوعي لآيات القرآن الكريم للباحث صبحي عبد الرؤوف عصر فقد تناولَ هذا الموضوع تناولًا قاصرًا كما صنعَ لابوم، وفشل في محاولته إضافة الآيات القرآنية الأخرى التي تتعلق بموضوع الخمر، فبدلًا من أن يأتي بالآية القرآنية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾[3]، والتي تتعلق بموضوع الخمر، لما في السكرِ من علاقة بالخمر، بدلًا من ذلك أتى بالآية: ﴿لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾[4]، وهذه آية لا تمتُ إلى موضوع الخمرِ بصلة، ومثلها الآية: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّ﴾[5].

أمَّا المعجم الموضوعي الموسوم بالجامع لمواضيع آيات القرآن الكريم الذي عني بجمعه فارس بركات فقد جاء بالآيات على الوجه الأكمل، فأثبت آيات الخمر ما تناولتها مادة الكلمة «خمر» وأثبتَ الآيات المتعلقة بالخمر، والتي لم تتناولها مادة خمر مثل الآية: ﴿لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ﴾[6].

---

(١) النساء: ٤٣.

(٢) الفهرس الموضوعي لآيات القرآن الكريم. الطبعة الرابعة ١٤٠٩ هـ.

(٣) النساء: ٤٣، دار عمار، عمان، الأردن.

(٤) الحجر: ٧٢

(٥) ق ١٩

(٦) النساء ٤٣

أمَّا المحظور الثاني في موضوع الخمر والذي وقعَ فيه لابوم فهو ذكرُه لآيات لا تتعلق بموضوع الخمر والذي وضعه في علم تهذيب الأخلاق، وقرن بينه وبين البغي والسرقة، فقد ذكرَ الآية القرآنية: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾[1].

فالخمرُ المذكور في الآية ليس من المفاسد الأخلاقية الدنيوية، بل هي من لذائذ الحياة الأخروية، وشتان بين الأمرين.

هذا، والحديثُ عن المعاجم يطول ويطول، لذا نجدُ من المناسب الحديث عن آخر ما أنتجته العقول وخرج من الصدور إلى السطور المكتوبة والمنشورة إنَّه كتاب معجم حروف المعاني في القرآن الكريم.

لن أتحدث عن نهجه ومنهجه، وأترك الحديث لصاحبه في مقدمته:

منذ عشرين عامًا، أو تزيد، تّعمق هذا التعلق بموارد التنزيل العزيز، عندما شغل الخاطرَ صياغة موسوعة شاملة للقرآن الكريم، تتناولُ جميع موارده، من ألفاظ وحروف، تصنف على وفق المناهج الحديثة للموسوعات، لتضم كل مادة جميع ما يتصل بها، من لغة وأحكام. وأخبار وتشريعات، لتكونَ بحثًا متعمقًا، يضيفُ إلى ما قدمه السابقون شيئًا جديدًا أصيلًا، يبني عليه اللاحقونَ، ويكون لبنه في ذلك الصرح المعرفي العملاق، الذي بدأت قواعده بالارتفاع منذ نزل القرآن الكريم على سيد الخلق محمد ﷺ ومازالت أعمدةُ بنيانه ترتفعُ، عصرًا بعد عصر، وجيلًا بعد جيل.

كانت المحاولات الأولي، منذ عشرين سنة متواضعة، وكانت مغالبة

---

(١) محمد ١٥

بين ظروف الزمان ومقتضياته، وبين الرغبة المتقدة في الفكرِ والقلب بإنجاز هذا العمل، إلى أن استقرَّ القرار بإرادة الله ومشيئته، قبل عشر من السنين، على أن أبدأ المسيرة مع كتاب الله من مكوناته الأولية، وهي الحروف، لأرقى في الجهد إلى ما شاء الله أن يفتحَ به من المعارف والأسرار، فكان المسعى الذي بدأته لتحليل النص القرآني تحليلًا: نحويًا -صرفيًا- صوتيًا- دلاليًا، يجعلُ من الحروف وتفريعاتها وأقسامها مادة الأساس.

وبدأ العملُ يدويًا، لتعذر العثور على برنامج التحليل الآلي للنص القرآني التي تستجيب لهذا التصور من خلال الحاسب، ولوجود تباين أحيانًا بين النص المقروء والمكتوب، لحذفٍ أو إضافة حروف في كلا الجانبين، ولقصور برامج التحليل الموجودة، وفي مقدمتها برامج التحليل الصرفي، وعدم إحاطتها ببعض الخصوصيات النحوية والصرفية للنص القرآني، فضلًا عن عدم قدرتها على الإحاطة بالجوانب الدلالية. فتم يدويًا، استخرج مكونات الجمل والكلمات، في النص القرآني كله، ووضعها في فهارس كتبت بخط اليد، وبلغ تعداد صفحاتها ما ينوف عن السبعة آلاف صفحة، ضمت حروف القرآن الكريم بمفهومها الشامل لحروف المباني والمعاني، والأدوات، والضمائر، وبعض الأسماء المبنية، والحروف الزوائد على الجذور في الصيغ الصرفية. وهو جهد لا نظن أنّه مسبوق، واعتبرناه إضافة متواضعة إلى الجهود السابقة لوضع فهارس شاملة للقرآن الكريم، مثل «المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم» لمحمد فؤاد عبد الباقي، و«معجم الأدوات والضمائر في القرآن الكريم» للأستاذين عمايرة والسيد، وغير ذلك من الجهود.

واشتملت هذه الفهارس على المكونات التالية:

١) الزوائد الحرفية التصريفية، مرتبة حسب الصيغ الواردة فيها.

٢) علامات الإعراب الحرفية، مرتبة هجائيًا حسب الألفاظ الواردة فيها.

٣) حروف المعاني، بمفهومها الضيق «الأدوات» مع التركيز على الفهرسة وفقًا للدلالة السياقية.

٤) الضمائر المتصلة، والمنفصلة، مفهرسة حسب موقعها من الإعراب داخل الجملة القرآنية.

٥) بعض الظواهر النحوية، كالتعدية وما يؤدي وظيفتها من حروف..

٦) ظواهر صرفية -صوتية- كتابية، مثل القلب والإبدال والإعلال والتعويض بين الحروف والإشباع، والحروف المكتوبة غير المقروءة، كألف التفريق، والمقروءة غير المكتوبة، كألف الإشارة.

٧) بعض المكونات الحرفية الأخرى للحركة الصرفية -الصوتية، مثل نون الوقاية وألف التأنيث، بما في ذلك الحروف التي تشكل صيغ التثنية والجموع.

٨) حروف الإعراب، مثل واو وياء جمع المذكر السالم، وألف وياء التثنية، وألف وواو وياء الأسماء الخمسة، ونون الأفعال الخمسة.

وكان لابد خلال العمل المتواصل، الذي استغرق ثماني سنوات، من الاستعانة بكتب النحو والصرف وحروف المعاني والتفسير ومعاجم اللغة، وخاصة عند البحث عن وجوه دلالة الأدوات. أمّا كتب التفسير فكان من أبرزها ما كثر رجوعنا إليه مرتبًا تاريخيًا: «معاني القرآن» للأخفش، «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج، «تفسير الطبري»، «مشكل إعراب القرآن» للعكبري، «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي، «البحر المحيط» لأبي حيان الأندلسي، «تفسير ابن كثير»، «تفسير البيضاوي»، حاشية الجمل على الجلالين، حاشية الصاوي، «روح المعاني» للألوسي، «محاسن التأويل» للقاسمي، «تفسير المنار» لرشيد رضا، تفسير المراغي، «الظلال» لسيد

قطب، «إعراب القرآن الكريم» لمحي الدين الدرويش، «تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه» لمحمد علي طه الدرة، وغير ذلك من التفاسير. وقد أفدنا من تكرار رجوعنا إلى كتب التفسير، في فهرسة مواضع شرح ألفاظ القرآن فيها على بطاقات، لتسهيل الرجوع إليها في صياغة «موسوعة القرآن الكريم».

إنَّ الهدف الأول من هذا الجهد هو خدمة كتاب اللّه تعالى، وإضافة جانب قد لا يكون مطروقًا من قبل. ولكنه إلى جانب ذلك يساهم في مساعدة الباحثين، الذين يتناولونَ مثل هذه المكونات في بحوثهم، ويضعُ أمام الدارسين جميع شواهد القرآنية لهذه الأبواب، ويشكل رافدًا للمعنيين بالصيغ الصرفية ونماذجها التوليدية والتركيبية، بالإضافة إلى ما يمثله ترتيب الأدوات وفقًا للدلالة من إضافة ذات معنى، عند المشتغلين بقضايا النحو، والبلاغة، وأصول الفقه والتشريع، والمهتمين بالأساليب اللغوية، وغير ذلك من العلوم.

ولكن المصنف وجد عسرًا في نشر هذه المكونات كلها في معجم واحد. وبعد مشاورة المعنيين، وتقليب الأمر على وجوهه، وجد أن الأجدى توزيعها بين أربعة معاجم:

١- معجم حروف المعاني في القرآن الكريم.

٢- معجم التحولات الصوتية في حروف القرآن الكريم.

٣- معجم الصيغ الصرفية ودلالاتها في القرآن الكريم.

٤- معجم الضمائر في القرآن الكريم (مرتبة حسب موقعها من الإعراب).

وعندما استقرّ الرأي على هذا التوزيع، بدأ الإعداد للمعجم الأول، وتركز البحث حينئذ على وسائل الاستفادة من التسهيلات الآلية لبرامج الحاسب، وكان الهدف الأول الاستعانة بنص قرآني يغني عن إعادة كتابة

التفسير وأنَّه اختلاف تنوع.

ولا يفوتنا أن ننبه إلى خطأ من فهم من كلام ابن تيمية أنَّ كل خلاف الصحابة هو اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد ثم أخذ يدلل على هذا الكلام. والحقيقة أنَّ كلام ابن تيمية لا يفيدُ هذا المعنى وكأنَّ الذي ورطه في هذا الفهم السقيم هو العنوان الذي وضعه ابن تيمية حيث قال: «فصل في اختلاف السلف وأنَّه اختلاف تنوع» ولكنه لو أتم قراءة ما تحت هذا العنوان لوجد الرأي الصحيح والفهم السديد لكلام ابن تيمية حيث قال بعد سطرين: «وغالب ما يصح عنهم في الخلاف يرجع إلى اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد».

لاحظ كلمة غالب، وليس كل، فالاختلاف في غالبه لا جميعه هو اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد، كيف لا وقد وجد اختلاف تضاد بين الصحابة رضوان اللَّه عليهم بل وقع اختلاف التضاد بين أكبر علمين من الصحابة في التفسير وهما عبد اللَّه بن عباس في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾[1]. قال ابن جرير، عن عكرمة، عن ابن عباس أنَّ رسول اللَّه ﷺ رأى ربه بقلبه[2]، وروي عن ابن عباس أيضًا أنَّه قال: «أتعجبونَ أن تكونَ الخلة لإبراهيم والكلام لموسى والرؤية لمحمد ﷺ»[3].

وقد قال أبو ذر بقول ابن عباس ففي صحيح مسلم عن أبي ذر قال: سألتُ رسول اللَّه ﷺ هل رأيت ربك؟ قال: نور أنَّى أراه. وذهب جميع الصحابة ابن مسعود وأبو هريرة، وعائشة ؅ وغيرهم في تفسير الآية: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ بأنَّ النبي ﷺ قد رأى جبريل روى ذلك الإمام البخاري عن ابن مسعود من وجهين:

---

(١) النجم: ١٣.
(٢) الطبري في تفسير سورة النجم.
(٣) الطبري في تفسير سورة النجم.

بصرف النظر عن مكوناتها البنائية، مع الحرص على أن تكون الشواهد المتعلقة بالأدوات وافية، كوجود الجمل المتعاطفة عند إيراد أدوات العطف، وإيراد المكونات الكاملة للجمل الشرطية وغيرها. كما وضعنا في بداية كل مادة تعريفًا بها، قد يطول أو يقصر حسب الحاجة. ومنعًا للتكرار قمنا بإحالة بعض المواد إلى مواد أخرى، تتحقق الفائدة المرتجاة بالإحالة إليها، ولم تقتصر الإحالة إلى هذا المعجم، بل كثيرًا ما كانت إلى معجم فؤاد عبد الباقي، مثلما كانت هناك إحالات كثيرة إلى «معجم الأدوات والضمائر» مع الإشارة إلى ذلك في تعريف كل مادة. كما حرصنا على إيراد أسماء السور في الفهارس، ولم نكتف بالأرقام وحدها، تسهيلًا على الباحث. وسبق ذلك كله، تمهيد يشرح المراد بالحرف، وتطوره الدلالي، وتقسيماته، والمراد بحروف المعاني والأدوات. وحرصنا أن نقدم فيه رؤية، حاولنا أن تكون جديدة، لطريقة معالجة المواد القرآنية، بحيث تشكل أنموذجًا لما نسعى أن تكون عليه طريقة المعالجة، في الموسوعة الشاملة المقترحة للقرآن الكريم.

وإذا كان لابد من الإشارة إلى الأعمال الماثلة، فإننا نذكرعلى وجه الخصوص عملين كبيرين كان لهما فضل السبق التاريخي:

الأول: دراسات لأسلوب القرآن الكريم الشيخ محمد عبد الخالق عضيمة رَحِمَهُ اللَّهُ ، وهو جهد دراسي ضخم، أمضى فيه مؤلفه ثلث قرن من الزمان، مستقرءًا أسلوب القرآن الكريم في جميع رواياته، متناولًا جميع تطبيقات أبواب النحو الصرف في كتاب اللّه، وكان القسمُ الأول المكون من ثلاثة أجزاء، هو الأكثر إثارة للاهتمام، إذ خصصه لحروف المعاني في القرآن الكريم. -كما يتضح من عنوان هذا المصنف الضخم غير المسبوق- فهو دراسات وافية لأسلوب القرآن الكريم، دون أن يقدم فهارس لما درسه، رغم إشارته إلى أنّه صنعَ لنفسه فهرسًا لم يطلعنا عليه

ولم ينشره، حتى نتمكنَ من معرفة مدى التناظر أو التباين بين «دراساته» وهذا المعجم. وهذا ما يجعل هناك فارقًا كثيرًا -ولا نقول نوعيًا- بين ما قدَّمه الشيخ عضيمة وبين معجمنا هذا، كما أنَّ «الدراسات» لا تقدم للباحث جميع مواضع ورود الأداة في النص القرآني مقترنة بدلالاتها، وكثيرًا ما يكتفي بشواهد محدودة، يقترب فيها، وخاصة في حروف الجر، مما أوردته المصادر السابقة، فضلًا عن توسعة في بعض الأدوات، والتزامه بالاختصار في بعضها الآخر. كما أنَّه التزمَ بالمفهوم التقليدي لحروف المعاني، وجعلها قاصرة على الأدوات، وهو منهج يفترق عن منهج هذا المعجم، الذي تبنى التوسع في مفهومها.

الثاني: معجم الأدوات والضمائر في القرآن الكريم، للأستاذين الدكتور عمايرة والدكتور عبد الحميد مصطفى السيد. ولا شك أنَّ هذا المعجم سد نقصًا في مكتبة الدراسات القرآنية، بسبب عدم وجود معجم يفهرس هذه الأدوات والضمائر، وعدم وفّاء معجم عبد الباقي بهذا الغرض. إلَّا أنَّ المنهج الذي أتبعناهُ في معجمنا، جعله يختلف عن معجم الأدوات في جوانب كثيرة منها:

١- لم نورد ما أورده من الأسماء الموصولة وأسماء الإشارة، لعدم وجود مجال لتصنيفها حسب دلالتها، واكتفاء بفهارسه فيها.

٢- استدركنا عليه حروف الإعراب.

٣- أضفنا إلى فهارس الأدوات دلالالتها، وهو جانب أكد أنَّه لن يخوض فيه.

٤- أضفنا كثيرًا من الحروف التي اعتبرناها جزءًا من حروف المعاني لما وجدناهُ لها من وظائف نحوية أو صرفية أو صوتية ذات دلالة.

٥- بسطنا المواضِع التي أشارَ إلى أرقام آياتها دونَ ذكر شواهدها، حرصًا منه على عدم زيادة حجم معجمه، وحرصًا منا على الوفاء بالغاية

المقصودة من وضع معجمنا، ونشير من ذلك على وجه الخصوص إلى «أل التعريف» و«الواو المفردة».

٦- ولن نتحدث هنا عن استداركاتنا لبعض المواضع التي سقطت سهوًا في المعجم المذكور، وهي استداركات يمكن تلمسها بالمقارنة، والكمال لله وحده.

وفي ضوء ما سبق من فروق، يمكن أن نزعم أنَّ معجمنا هذا غير مسبوق، وأنَّه لا يعتبر تكرارًا لأي تصنيف سابق[(١)]. وإتمامًا للفائدة المرجوة من هذه الكتابة أتحدث عن موضوع التفسير الموضوعي راجيًا أن يحقق المبتغى المنشود في تناول الموضوعات ذات العلاقة بالتفسير القرآني.

تمهيد...

ظهرت بوادر الاهتمام بالتفسير الموضوعي في مطلع هذا القرن، ولعل ذلك يعود إلى أنَّ استيعاب تفسير القرآن أمر عسير على أهل هذا العصر، إذ يتطلب جهدًا متواصلًا وزمنًا طويلًا وتفرغًا قد لا يتأتي للكثير، نظرًا لظروف الحياة والعيش في هذا الزمان لذا قعد العلماء عن ذلك إمَّا عجزًا عن القيام هذه المهمة وإمَّا سعيًا لطلب الرزق فليس لديه متسع من الوقت، وإمَّا إكتفاءً بما هو موجود من كتب التفسير. ولم يفعل ذلك إلَّا من وهبَه الله سعة في الرزقِ أو سعة من الوقت أتاحت له فرصة الاطلاع والكتابة... إلخ

ومع كل هذا فما زالت الأمة بحاجة إلى المفسرين المبدعين الذي يربطون الآيات القرآنية بواقع الحياة ويميطون اللثام عن مكنونات كتب الأقدمين ويقدمون التفسير في حلة جديدة بعرض يناسب الزمن بحيث

---

(١) معجم حروف ومعاني في القرآن الكريم مفهوم شامل مع تحديد دلالة الأدوات، محمد حسن الشريف. الأولى ١٤١٧ هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت.

يتجاوب مع عقولهم ومشاعرهم حتى تدب فيهم حياة إسلامية صحيحة.

فالأمة الإسلامية مازال فيها الخير من علماء وعامة، فإنَّ من العلماء من يعيشونَ بعيدًا عن الأضواء وأشهدُ أنَّ منهم من يفوقُ علمًا وقدرًا وخلقًا هؤلاء الذينَ يظهرون بوسائل الإعلام صباحًا ومساءً ويوم تحقق لهم الإمكانات فإنَّهم أهل لإظهار المعاني القرآنية بصورة جلية مشرقة، ولو أخلص المخلصونَ من الرعاة لهذه الأمة لقام المخلصونَ من العلماء بأكثر مما يقوم به المستشرقون الذين يغدق عليهم من المستعمرين الكافرين.

كل هذا لم يمنع من ظهور علماء قاموا بتقديم أعمال مضيئة في التفسير الشامل والتفسير الموضوعي:

- منهم سيد قطب، في ظلال القرآن الذي شملَ القرآن ثم أفردَ بعض التفاسير الموضوعية في كتب مستقلة مثل: كتابه «مشاهد القيامة في القرآن».

- ومنهم الشيخ محمود شلتوتّ، الذي فسر الأجزاء العشرة الأولى ثم أفردَ آيات السلم والقتال بكتيب خاص.

- ومنهم محمد عزة دروزة، في تفسيره المسمى «التفسير الحديث» ثم أفردَ الآيات القرآنية التي تتحدث عن سيرة النبي ﷺ على ضوء النصوص القرآنية. وغيرهم.

ومن العلماء من قصر تفسيره على موضوعات معينة والكتب في ذلك كثيرة «المرأة في الإسلام» «الآيات المنسوخة في القرآن» «الجهاد» ويضافُ إلى ذلك الرسائل الجامعية التي تناولت مواضيع قرآنية وهي لا تعدُّ ولا تحصى حتى رأينا في الموضوع الواحد أكثر من رسالة وبحث.

ومن خلال دارستي لهذه الموضوعات وجدتُ بعضها قد فقدَ مقومات التفسير الموضوعي ولاحظتُ خلطًا وغلطًا -عن حسن نية أو سوئها- تعود أسبابه، إمَّا لعقيدة فاسدة وسوء نية وخبث في المقصد، وهؤلاء

يعلمون ولكنهم يضللون، ومنهم من تأثرَ بأفكار استشراقية ماكرة أو انبهر وفتن بحضارة الغرب وثقافته، هؤلاء جميعًا ما أظنُّ أن بيان أصول التفسير الموضوعي سيردهم ء [illegible]م إلى الجادة المستقيمة، ولكن نرجو من بيان الأسس والأصول المعرفة لقراء ورواد كتبهم عن جهل بحالهم، فنضعُ الميزان بأيديهم حتي يميزوا الخبيث من الطيب وحتى يظهرَ الصواب والخطأ.

أمَّا أن يكون الخلط والغلط عن حسن نية نتيجة **خطأ في المنهج** الصحيح، ويكثرُ هذا في الأقلام الفجة التي بدأت تتناول موضوعات قرآنية وتريد إنجازها على عجل، فمثل هؤلاء يفيدهم أن نبين لهم القواعد والأصول في التفسير الموضوعي، وبهذا نحقق الفائدة من الكتابة في هذا البحث من جانبين كما وضحنا، فنشرعُ في بيان هذه الأصول بادئين بمعنى التفسير الموضوعي.

أقول: أعني بكلمة التفسير المعنى الشامل لهذه الكلمة، والذي يحمل معنى التفسير والتأويل معًا، فإنَّه إذا أطلق تفسير القرآن فإنما يرادُ به بيان معاني القرآن دونَ ملاحظة الفارق بين كلمتي التفسير والتأويل، وإن كلمة التفسير للآية التي لا تحتملُ إلَّا وجهًا، والتأويلُ لما يحتملُ لأكثر من معنى، فمرادي هو مراد الأقدمين من شمول كلمة التفسير للتأويل.

أمَّا نسبة التفسير الموضوعي فإنَّما أعني بيان الآيات القرآنية لموضوع قرآني معني، كالجهاد أو الربا، و الخمر، مع مراعاة للأسس والأصول المتبعة في كيفية التفسير.

أصول المنهج في التفسير الموضوعي:

لا يسوغ لأحد أن يقول في القرآن قولًا بغير علم، فلا يسوغ القول بالفقه والتفسير إلَّا لمن هو أهل لذلك، إذ الفقه فهم لكتاب الله والتفسير مثله بيان لكتاب الله، ولا يتأتى الحديث عن القرآن فقهًا أو تفسيرًا إلَّا

لأهل الاجتهاد والفقه والتفسير، والقولُ في تفسير الآيات القرآنية المتعلقة بالموضوع الواحد مثل القول في تفسير القرآن كله والقائل بهذا أو ذاك لابد له من شروط يجب استيفائها كما هو مبين في كتب علوم القرآن أو في مقدمات كتب التفسير ولابد من اتباع أصول ومناهج معينة منها:

أولاً: أن يكون عالمًا بالقرآن الكريم:

ولا ضرورة لئن يكون لكتاب الله حافظًا، بل يكفي الإحاطة بسور القرآن بوجه عام، ولآيات الأحكام بشكل خاص، إذ هي التي تتعلق بالموضوع المراد بحثه، ولا يكتفي العلم بالقرآن بل من معرفة للسنة النبوية وبيان العلاقة بينهما من عموم وخصوص وإطلاق وتقييد وإجمال وتفصيل وغير ذلك من الأبحاث التي استوفتها كتب الأصول.

أنَّ العلم بالقرآن والسنة يعينه في عملية جمع الآيات والأحاديث التي تتعلق بالموضوع المراد تفسيره.

أمَّا طريقة الجمع للآيات والأحاديث فتتم بإحدى طريقتين:

الأولى: استخراج مادة الكلمة من القرآن الكريم ولنفرض أنَّ الموضوع المراد تفسيره هو الخمر فإننا نبحثُ عن مادة الخمر في المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، أو ما يماثله من المعاجم فنجد هذه الآيات: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾(1) وآية ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ﴾(2)، وآية ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا﴾(3) وآية ﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا﴾(4).

بعد ذلك نتأمل في هذه الآيات في كتب التفسير -القديم منها

---

(1) البقرة: ٢١٩ .
(2) محمد: ١٥ .
(3) يوسف: ٣٦ .
(4) يوسف: ٤١ .

والحديث- فنجد منها ما يكون محل استشهاد وبحث، ومنها ما يجبُ استبعاده عن البحث، فخمر يعتبر شربه رجسًا في الدنيا وخمر الآخرة لذة للشاربين، ونحنُ إذ نتحدث عن حكم الخمر وشربه في الدنيا لا نتحدث عن خمر الآخرة ونعيمها فهذه حالة نقبلها وتلك حالة أخرى نردها، ولا يفوتنا ونحنُ نجمعُ الآيات أن نكونَ يقظينَ في جمع الآيات التي تتعلق بالموضوع المراد تفسيره ولكنها لم ترد فيها لفظة الخمر مثلِ آية ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾[1].

فهذه الآيات وأمثالها ضرورية لاستكمال البحث في الموضوع وهي الأصعب في جمع الآيات، لأنَّ جمع الآيات من المعاجم أمر ميسور، فمجرد استخراج مادة الكلمة نجد جمع الآيات بين يديك، ولكن جمع الآيات المتعلقة بالموضوع وليس بها مادة الكلمة تتطلب علمًا واسعًا وحضور بديهة حين البحث عنها، فبعض المفسرين مثلًا حينَ أرادَ أن يتكلم عن موضوع الخمر بدأه مثلًا بالآية الكريمة ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَـٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾[2].

الثانية في الجمع: فهي اللجوء إلى الكتب الموسوعية التي تعتني بجمع الآيات المتعلقة بالموضوع مثل معجم الألفاظ للقرآن الكريم لمجمع اللغة العربية، وهناك كتاب باللغة الأجنبية والجامع لمواضيع آيات القرآن الكريم لمحمد فارس بركات، وكتاب المستدرك لادوارد مونتيه وقد عرَّبه محمد فؤاد عبد الباقي[3].

وهذه الطريقة تختصر على الباحث عملية الجمع إلى حد بعيد، ولكنها غير وافية بالغرض تمامًا؛ لأنَّ بها أعواز يحتاج إلى استكمال، وهو نفس

---

(١) النساء: ٤٣ .

(٢) النحل: ٦٧ .

(٣) سبق الحديث عنها في ص٣٣٤ من هذا البحث.

ما أشرتُ إليه في جمع الآيات التي تتعلق بالموضوع وليس من مادة الكلمة، إذ أنها تحتاج إلى عملية استجماع الذهن لربط الآية بالموضوع، وقد يكون هذا الربط خفيًا دقيقًا، لذا فإنَّ كتاب المستدرك قد استدرك على ما كتبه الأول وأكملَ نقصًا ملحوظًا فيه ما كان ليقعَ فيه لو كان علمه أغزر ولعل صلته الجافة بين ما يكتب وما يعتقد جعلت الخلل يتسرب إلى كتابته.

ثانيًا: مراعاة أسباب النزول للآيات ومناسبتها:

فبسبب النزول نستعين على توضيح الآية؛ لأنَّ العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب كما يقول ابن تيمية وعدم الاطلاع على السبب يوقع المفسر في مواقعَ الزلل الذي لا يزول بحال من الأحوال إلّا بمعرفة سبب النزول لها، مثال ذلك: قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

فإنّا لو تُرِكْنا وَمَدْلُولَ اللفظ لاقتضى أنَّ المصلي لا يجبُ عليه استقبال القبلة لا سفرًا ولا حضرًا وهو خلاف الإجماع، إذ لا يجوزُ له أن يجتهدَ في القبلة مع وجود من يسأله.

ولكن مدلول اللفظ القرآني المجرد من سبب النزول يبيحه، ولا يزيل هذا إلّا المعرفة لسبب النزول بما رواهُ الترمذي عن ابن عمرَ أنّه قال: «كان النبي ﷺ يصلي على راحلته تطوعًا أينما توجهت به وهو جاء من مكة إلى المدينة، ثم قرأ ابن عمر هذه الآية: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ الآية. فقال ابن عمر: ففي أنزلت هذه الآية».

وينبغي أن يكون المفسر على حذر ويقظة في التعامل مع أسباب النزول حين تتعدد الأسباب وتتعارض، وحين يتعارض الصحيح مع الصحيح أو مع الضعيف وحين يكون مرجحًا. . . وهو بحث يستحق العناية ومازال فيه أعواز كما قال السيوطي.

إن عدمَ الاطلاع على سبب النزول يوقع العالم -وإن سما علمه- في الإرباك في الفهم، بل لقد وقعَ إشكال لأحد التابعين ﷺ لعدم معرفته لسبب نزول الآية، روى مسلم عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة قال: قلتُ لها إني لا أظنُّ رجلًا لو لم يطف بين الصفا والمروة ما ضره قالت: ولم؟ قلت: لأنَّ الله تعالى: يقول: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾(1).

فقالت ما أتم الله حج أمرئ، ولا عمرته لم يطف بين الصفا والمروة ولو كان كما تقول لكان ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ وهل تدري فيما كان ذلك؟ إنما كان ذلك أنَّ الأنصارَ كانوا يهلون في الجاهلية لصنمين على شط البحر يقال لهما: اساف ونائله ثم يجيئونَ فيطوفون بين الصفا والمروة ثم يحلقون، فلمَّا جاء الإسلام كرهوا أن يطوفوا بينهما للذي كانوا يصنعونَ في الجاهلية، قالت: فأنزل الله عز وجلّ: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ إلى آخر الآية، قالت: فطافوا(2).

أمَّا مراعاة المناسبة فالبعض يخلط بين سبب النزول ومناسبته، وبينهما فرق ولا شك إذ السبب هو الذي من أجله نزلت الآية أو السورة. أمَّا المناسبة فليست كذلك، إنما تهتمُ بوجه الربط بين بداية آية ونهايتها، وبين آية وآية، ونهاية سورة ببداية أخرى.

واكتفي بمثال ذكرَه الزركشي ليجلي لنا أهمية الحديث عن مناسبة من الآيات.

فقد ساقَ الآية القرآنية ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ وَأْتُوا۟

---

(1) البقرة: ١٥٨.

(2) صحيح مسلم، كتاب الجمع، باب بيان أنَّ السعي بين الصفا والمروة ركن لا يصح الحج إلّا به (١/٩٢٨).

﴿ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1]. فمن يقرأ هذه يتساءل أي رابط بين أحكام الأهلة وبين إتيان البيوت؟ يقول الزركشي: «هذا من قبيل التمثيل لما هم عليه من تعكيسهم في سؤالهم وأن مثلهم كمثل من يترك بابًا ويدخل من ظهر البيت، فقيل لهم: ليس البر ما أنتم عليه من تعكيس الأسئلة ولكن البر من اتقى ذلك»[2].

ثالثًا: معرفة تاريخ أو زمن نزول الآيات:

لأنَّ إهمال التاريخ أحيانًا يلبس علينا الموضوع فنقعُ في خلط واضطراب في القول، بل نقعُ في الحرام الذي لا شك فيه، فماذا لو أهملنا التسلسل التاريخي لنزول آيات الخمر مثلًا، فلو أنَّ الآية القرآنية: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ﴾[3] نزلت أولًا ثم الآية التاليه نزلت ثانيًا ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾[4].

لو قلنا ذلك لخرجنا بالقول التّالي أن الخمرَ كانت حرامًا ثم أصبحت مباحة في غير أوقات الصلاة، وهذا الحكم باطل لا شك، ولا يعصمنا من الوقوع فيه إلَّا معرفة زمن النزول وترتيب النازل ترتيبًا تاريخيًا.

وفي ذلك روى أحمد في مسنده عن أبي هريرة قال: حرمت الخمر ثلاث مرات قدم رسول اللّه ﷺ المدينة وهم يشربونَ الخمرَ ويأكلونَ الميسر، فسألوا رسول اللّه ﷺ عنهما فأنزل اللّه على نبيه ﷺ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ...﴾ الآية، فقال الناسُ ما حرم علينا إنما قال: فيهما إثم كبير، وكانوا يشربونَ الخمر حتى إذا كان يوم من الأيام صلى رجل من المهاجرين أمام أصحابه المغرب خلط في قراءته فأنزل اللّه

(١) البقرة: ١٨٩ .
(٢) البرهان في علوم القرآن (١/ ٤١).
(٣) المائدة: ٩٠ .
(٤) النساء: ٤٣ .

فيها آية أغلظ منها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ وكان الناس يشربون حتى يأتي أحدهم الصلاة وهو مضيق، ثم أنزلت آية أغلظ من ذلك ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ فقالوا انتهينا ربنا... الحديث[1]. فمعرفةُ تاريخ النزول طريق العصمة في الفهم السليم.

بهذا ينتهي الحديث عن زمن النزول وإنما قدمت سبب النزول هنا لأنَّ الاطلاع على السبب يعين كثيرًا على معرفة الزمن فيذكرونَ السبب مقرونًا في بعض الأحيان بالزمن كأن يقول نزلت بسبب كذا في أحد . . . أو في صلح الحديبية.

رابعًا: محاولة التوفيق بين الآيات الواردة في الموضوع:

والتي تبدو لأول وهلة بأنَّها متعارضة، ولقد وضعَ العلماء[2] قواعد كثيرة في التعامل بين هذه النصوص، فوضعوا قواعد لمحاولة التوفيق بين هذه الأدلة، من ذلك أن نلجأ أولًا إلى إعمال النصوص كلها، فقال إنَّ إعمال الأدلة خير من إهمالها، وإعمال الأدلة ولو من وجه خير من إهمالها من جميع الوجوه، فإذا تعذرَ ذلك حاولنا الترجيح بين الأدلة، والذي له أيضًا قواعده، وقد يختلف ذلك بين مجتهد ومجتهد، وأخيرًا إذا تساوت الأدلة في القوة وتعارضت من كل وجه فإنَّ آخر العلاج الكي فلابد من إسقاط أحدهما بالنسخ.

نمثل لمحاولة التوفيق بين النصوص في الآية القرآنية ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ

---

(١) رواه أحمد في مسنده (١٦/ ٢٥٤)، ومجمع الزوائد للهيثمي (٥/ ٥١) وقال رواه أحمد وأبو وهب مولى أبي هريرة لم يخرجه أحد ولم يوثقه، وأبو نجيح ضعيف لسوء حفظه، وقد وثقه غير واحد وشريح ثقة.

(٢) انظر. كتاب الأصول مثل: كتاب الأحكام في أصول الأحكام للآمدي، وكتاب المحصول في علم الأصول للرازي، والموافقات للشاطبي.

﴿فَٱجۡنَحۡ لَهَا﴾(١) فقد وردت في موضوع السلام وكذلك الآية الكريمة ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدۡعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾(٢) وفي نفس الموضوع وقد يبدو التعارض بين الآيتين وفعلًا قد حكمَ بعضُ العلماء على أنَّ الآية الكريمة قد نسخت الأولى ومنهم من قال أنَّ لا يجوزُ مهادنة الأعداء وإن سالمونا ومنهم من قال بالجواز.

والواقع أنَّه ليس بين الآيتين أي تعارض مطلقًا ودعوى النسخ مرفوضة أيضًا، ذلكَ أنَّ كل آية تعالج حالة غير الحالة التي تعالجها الآية الأخرى، فرن كانت مصلحةُ المسلمين في الحرب حاربوا، وإن كانت مصلحتهم في السلم سالموا.

يقول ابن العربي في هاتين الآيتين:

فإذا كان المسلمون على عزة وفي قوة ومنعة ومقانب(٣) عديدة وعدة شديدة فكما قال الشاعر:

فلا صلح حتى تطعن الخيلُ بالقنا ... وتضربُ بالبيض الرقاق الجماجم

وإن كان للمسلمين مصلحة في الصلح لانتفاع يجلب به، أو ضر يندفعُ بسببه فلا بأس أن يبتدئ المسلمونَ به إذا احتاجوا إليه وأن يجيبوا إذا دعوا إليه(٤).

فالآيتان محكمتان ولا تعارض بينهما، فالعملُ بهما أولى، ونلاحظ أنَّ إعمال الأدلة يتجلى فيه قوة المفسر، فالتعامل مع الأدلة بإعمالها فيه سعة اطلاع وقدرة على التوفيق لا يستطيعها إلَّا من أوتيَ علمًا وقدرة على استيعاب الأدلة كلها، بخلاف الذي يلجأ إلى القول بالتعارض والنسخ

---

(١) الأنفال: ٦١.

(٢) محمد: ٣٥.

(٣) المقانب: جمع مقنب، والمقنب من الخيل ما بين الثلاثين إلى الأربعين، وقيل: هي دون المائة. انظر هامش أحكام القرآن لابن العربي (٢/ ٨٧٦).

(٤) أحكام القرآن لابن العربي (٢/ ٨٧٦).

فالقول بالنسخ وإسقاط أحد الأدلة لا يكلف تفكيرًا ولا معاناة الجمع بين الأدلة بل قد يكون ذلك لا دلالة عليه من نقل ولا فطرة عقل.

خامسًا: معرفة الناسخ والمنسوخ:

معنى النسخ هو رفعُ حكم شرعي بدليل شرعي(١).

ومن المتفق عليه أنَّ لا يجوزُ لمسلم أن يفسرَ كتاب الله دون معرفة ناسخه من منسوخه فقد يقرر حكمًا ثم يتبين أنَّ هذا منسوخ فيحرمُ العملُ به؛ لأنَّ العمل بالمنسوخ باطل بعد ورود الناسخ وخير الأمثلة الجلية عليه ما وردَ في سورة النساء ﴿وَٱلَّتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا۟ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾(٢).

فقد نسختها الآية الكريمة من سورة النور ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(٣).

ولكن ينبغي أن نتحوط في القول بالنسخ وإطلاقه جزافًا، فقد بالغَ الكثير في دعاوي النسخ فكلما لاحت له لائحة وبدا له التعارض لجأ إلى النسخ، فقد ادَّعى بعض المفسرين أنَّ آية السيف قد نسخت ما يربوا عن مائة آية، وزعمَ آخرونَ أنَّها نسخت الآية القرآنية الداعية إلى السلم ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ إذ إنَّ آية السيف تدعو للقتال وهذه الآية تدعو للصلح، والواقع أن لا نسخ بينهما؛ لأنَّ كل آية تعالج حالة تختلف عن الأخرى فإنَّ آية السيف تعني حالة القتال والآية ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ تعني حالة الصلح، والحالتانِ باقيتان وأحكام كل منهما باقية لم ينسخ شيء منها. قال الزمخشري: «والصحيح أنَّ الأمرَ موقوف على ما يرى فيه

---

(١) الأحكام للآمدي (٣/ ١٨٠).

(٢) النساء: ١٥ .

(٣) النور: ٢

الإمام صلاح المسلمين وأهله من حرب أو سلم، وليس بحتم أن يقاتلوا أبدًا أو يجابوا إلى الهدنة أبدًا»[1] قال السدي، وابن زيد: «ولا نسخ فيهما»[2]. وصدق من قال: والحقيقة أنَّ دعوى النسخ باطلة ولا دلالة عليها من كتاب ولا سنة ولا فطرة ولا عقل ومثل هذا الزعم بأنَّ آية السيف قد نسخت كل آية فيها عفو وصفح وصبر والمتأمل في دعاوي النسخ الكثيرة التي تطالعنا بها كتب التفسير يرى العجبَ العجاب الذي يطير الألباب، وكم من دعوى في النسخ لو كلف مدعيها نفسه أو نظرَ نظرة متأنية لأسقطها في مهدها.

(١) الكشاف للزمخشري (٢/ ١٦٦).
(٢) الجامع لأحكام القرآن الكريم للقرطبي (٨/ ٤٠).

فهرس المراجع

- الإتقان في علوم القرآن للسيوطي. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.
- الأدب الجاهلي لطه حسين.
- أسباب النزول للواحدي.
- إعجاز القرآن والبلاغة العربية للرافعي.
- أثر القراءات القرآنية في الدراسات النحوية لعبد العال سالم.
- البرهان في علوم القرآن للزركشي. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.
- البيان في مباحث من علوم القرآن لعبد الوهاب غزلان.
- التبيان في علوم القرآن لمحمد علي الصابوني.
- التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن على طريق الإتقان لطاهر الجزائري الدمشقي.
- تذكرة الحفاظ للذهبي.
- تفسير آيات الأحكام لمحمد علي السايس.
- تفسير البحر المحيط لأبي حيان.
- التفسير الكبير للفخر الرازي.
- تفسير ابن كثير.
- تفسير المنار لمحمد رشيد رضا.
- التفسير والمفسرون للذهبي.
- تقريب التهذيب لابن حجر العسقلاني.
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان لعبد الرحمن السعدي.
- تاج العروس للزبيدي.
- جامع البيان عن تأويل أي القرآن للطبري.
- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي.
- الجواهر في تفسير القرآن لطنطاوي جوهري.

- حاشية زاده على تفسير البيضاوي للشيخ زاده.
- حجة القراءات لأبي زرعة.
- أبو حنيفة لمحمد أبو زهرة.
- الخصائص لابن جني.
- دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة لموريس بوكاي.
- الدر المصون. شهاب الدين الحلبي.
- دروس في سنن الكائنات لمحمد توفيق صدقي.
- دلائل النبوة للبيهقي.
- الرسالة للشافعي. تحقيق أحمد شاكر.
- روح المعاني للألوسي.
- سنن ابن ماجه.
- سنن الترمذي.
- شرح المعلقات السبع للزوزني.
- الصاحبي لابن فارس.
- صحيح البخاري.
- صحيح مسلم.
- الظاهرة القرآنية لمالك بن نبي. تحقيق محمود شاكر.
- علوم القرآن لعدنان زرزور.
- غاية النهاية في طبقات القراء لابن الأثير.
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني.
- الفتوحات الآلهية للجمل.
- فضائل القرآن للنسائي.
- فقة اللغة للثعالبي.
- الفوائد المشوقة إلى علوم القرآن لابن قيم الجوزية.

- القاموس المحيط للفيروز آبادي.
- القرآن والحديث لمحمد الزفزاف.
- القرأن ينبوع العلم والفرقان لعلي فكري.
- القول المسدد في الذب عن المسند لابن حجر العسقلاني.
- مباحث في إعجاز القرآن لمصطفى مسلم.
- مباحث في علوم القرآن للقصبي محمود زلط.
- مباحث في علوم القرآن لمناع القطان.
- متشابه القرآن للقاضي عبد الجبار.
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمي.
- محاسن التأويل للقاسمي.
- محمد رسول الله لمحمد الصادق عرجون.
- المحكم والمتشابه لإبراهيم خليفة (رسالة دكتوارة).
- المدخل لدراسة القرآن الكريم لمحمد أبو شهبة.
- مدخل إلى القرآن الكريم لمحمد عبد الله دراز.
- مذاهب التفسير الإسلامي لجولد زيهر، نقله إلى العربية عبد الحليم النجار.
- - المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز لأبي شامة المقدسي.
- المزهر في علوم اللغة وأنواعها للسيوطي.
- المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري.
- مسند الإمام أحمد.
- مع العضد والسعد لابن الحاجب.
- المعرب للجواليقي.
- مقدمة ابن خلدون. دار القلم. بيروت.
- مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية. تحقيق عدنان زرزور.

- مناهج المفسرين. إبراهيم خليفة.
- مناهل العرفان لمحمد عبد العظيم الزرقاني.
- منة المنان في علوم القرآن لإبراهيم خليفة.
- المهذب للسيوطي.
- النبأ العظيم لمحمد عبد الله دراز.
- النسخ في القرآن لمصطفى زيد.
- النشر في القراءات العشر لابن الأثير.
- الوجوه والنظائر في القرآن الكريم - دراسة وموازنة، لسليمان القرعاوي، ط الأولى ١٤١٠هـ، مطابع الشاطئ الحديثة. الدمام.
- وقوع المعرب في القرآن لمحمد السيد.
- وكتب أخرى في بقية العلوم قد أثبتناها في الهوامش مع أرقام الأجزاء والصفحات.

المحتويات

المقدمة ٣
الفصل الأول: القرآن الكريم ٧
المبحث الأول: تعريف القرآن لغة وشرعًا ٨
المبحث الثاني: أسماء القرآن ١١
المبحث الثالث: لغة القرآن ١٥
المبحث الرابع: ترجمة القرآن ٢٨
المبحث الخامس: إعجاز القرآن ٣٢
الفصل الثاني: الوحـــي ٥١
المبحث الأول: تعريف الوحي لغة وشرعًا ٥٢
المبحث الثاني: مراتب الوحي إلى النبي ﷺ ٥٥
الفصل الثالث: نزول القرآن ٦٩
المبحث الأول: نزول القرآن منجما ٧٠
المبحث الثاني: أول ما نزل من القرآن وآخره ٩٨
المبحث الثالث: المكي والمدني من القرآن ١١٢
المبحث الرابع: نزول القرآن على سبعة أحرف ١٢١
المبحث الخامس: القراءات القرآنية ١٤١
المبحث السادس: أسباب النزول ١٥٩
الفصل الرابع: جمع القرآن ١٧٣
المبحث الأول: الجمع في عهد النبي ﷺ ١٧٥
المبحث الثاني: جمع القرآن في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه ١٨٠
المبحث الثالث: الجمع في عهد عثمان رضي الله عنه ١٨٤
المبحث الرابع: ترتيب الآيات والسور القرآنية ١٨٨
المبحث الخامس: رسم المصحف ١٩٤
الفصلُ الخامس: أساليب البيان ٢٠١
المبحث الأول: القصة في القرآن ٢٠٢

المبحث الثاني: العام والخاص ٢٠٥
المبحث الثالث: المُطْلَقُ وَالمُقَيَّد ٢٠٩
المبحث الرابع: المنطوق والمفهوم ٢١٢
الفصل السادس: أصول التفسير ومصادره ٢١٩
المبحث الأول: معنى التفسير والتأويل ٢٢٠
المبحث الثاني: لمحة موجزة عن تاريخ التفسير وتطوره ٢٢٥
المبحث الثالث: مصادر التفسير ٢٣١
المبحث الرابع: شروط المفسر ٢٥٣
المبحث الخامس: أنواع التفسير ٢٦٤
الفصل السابع: النسخ ٢٩٧
المبحث الأول: تعريف النسخ ٣٠٠
المبحث الثاني: أنواع النسخ ٣٠٩
الفصل الثامن: المحكم والمتشابه ٣٢١
الفصل التاسع: المعاجم القرآنية ٣٣٣
فهرس المراجع ٣٥٧